تقديم

فى سلسلة الأعداد المخصصة لموضوع المدن الأندلسية يصدر هذا العدد الثالث من المجلة عن مدينة **طليطلة** تلك المدينة العريقة التى حافظت الى اليوم على خططها القديمة وعلى شوارعها الملتفة الحصينة وعلى معمار يستلفت النظر ويعيدنا الى تاريخها العربى .

تضمن هذا العدد عددا من المقالات التى تتناول أوجه الحياة المختلفة فى **طليطلة** حديثا وقديما ، هذه المقالات التى يتضمنها القسم الاسبانى أما القسم العربى فيدفعنى الى كلمة عتاب الى علماء الاسبانيات العرب الذين لم يقدموا اسهاماتهم عن هذه المدينة وفى الواقع هو أمر متكرر ، فقد تبين لى أن هذه المدينة لم تلق من اهتمام المؤرخين القدماء العرب القدر الذى تستحقه كما لم تلق اليوم من اهتمام علماء الاسبانيات مشاركة فى هذا العدد . ولذلك فقد اتجهت النية الى تخصيص الجزء العربى من المجلة الى بداية مشروع ربما يطبق على كل المدن الأندلسية ، وبشكل أوسع فى المستقبل كما سنرى .

هذا المشروع هو تجميع النصوص القديمة المفرقة عن المدينة ودراستها والتعليق عليها بعد محاولة وضعها فى سياق بصرف النظر عن المصدر الذى تؤخذ منه . وأقول بداية مشروع فيما سبق لأننا لم نستطع أن نجمع كل النصوص القديمة العربية عن **طليطلة** فضلا عن النصوص الاسبانية وربما الفرنسية أو الايطالية وذلك لضيق الوقت فعدد المجلة ينبغى أن يصدر فى موعده وبالتالى فقد قررنا أن نجمع النصوص الأكثر تمثيلا وافادة من المصادر العربية دون غيرها .

وكانت تلك النصوص ما ورد عن **طليطلة** فى كل من النفح والذخيرة بجانب نص صغير من معجم البلدان لياقوت . وقد تم التقديم لهذه النصوص وخلال التقديم تم ايراد بعض النصوص الأخرى من مصادر أخرى لأهميتها الخاصة .

بهذا العدد توضع **طليطلة** فى مكانها الرفيع فى الحضارة الأندلسية وتكشف عن وجه جميل وعريق غطاه النسيان . هذه المدينة لعبت دورا مركزيا أيضا فى حضارة العالم الغربى فهى قاعدة نقل الحضارة العربية والمشرقية الى الغرب . لقد صنعت النواة الأساسية التى لولاها لتأخر قدوم الحضارة الغربية مدى لا يمكن تحديده الآن . ولكن فى التاريخ لا توضع افتراضات لأن **طليطلة** لم يكن لديها بديل الا القيام بهذا الدور الذى أهلها له مكانها الجغرافى المركزى فى شبه الجزيرة الايبيريه ومكانتها التاريخية الفريدة عبر التاريخ القديم والأندلسى ، ثم عبر تاريخ حروب توحيد اسبانيا والمجهودات التى بذلت لذلك والتى انتهت بفرض المسيحية دينا وسيادة القشتالية لغة ، كما اختفت العربية وهاجر الاسلام .

لقد كانت **طليطلة** مثلا للتسامح وتعايش الاسلام واليهودية والمسيحية . كانت أيضا مثلا لتعايش اللغة العربية مع غيرها من اللهجات الرومانثية اللاتينية . لقد ظلت **طليطلة** فترة من الزمان ربما أطول من باقى الأندلس مثلا لهذا التعايش الفريد بين الحضارات والأديان واللغات .

وضربت مثلا عن هذه الامكانية الفريدة التى زرعها الوجود العربى والاسلامى فى شبه الجزيرة الايبيرية ، أما الصراع بين الحضارات والأديان الذى عرفته اسبانيا بل وعرفه الأندلس بعد الوجود المرابطى فلم يصل الى **طليطلة** الا متأخرا جدا مما يكشف عن اصالة هذه المدينة بل وتجذر هذه الروح الأندلسية العربية فى ربوعها .

لعل الهدف السامى وراء هذا العدد من المجلة هو اعطاء هذه المدينة بعض حقها الذى لا يكاد يذكر الا فى سياق آخر دون تركيز ودون تعمق ، وكان خروج هذا العدد نتيجة مجهود طليطلى نبيل قاده ميجيل ارناندو دي لاراميندى مدير مدرسة المترجمين **بطليطلة** وساعده فى ذلك الصديق خيسوس كاروبلس سانتوس وجهاز المدرسة التى هى الآن وجود رمزى لدور **طليطلة** الذى يعد فاصلة بين حلقتين من أهم الحضارات التى عرفتها الانسانية ؛ الحضارة العربية والحضارة الغربية . وهى فاصلة عبور واتصال ينبغى أن نستوحى منها الدروس الى اليوم وما أحوج العالم العربى اليوم الى مدرسة للمترجمين أشبه بمدرسة **طليطلة** القديمة فى عصر الفونسو الحكيم لكى ينقل حضارة الغرب ويطورها ويمنحها من جديد هذه القيم الرفيعة التى انبتتها الحضارة الأندلسية فى ظل الوجود العربى الاسلامى .

نقدم هذا العدد للقارىء لكى يستمتع بأخبار ومعارف حول هذه السيدة الجميلة التى اسمها **طليطلة** التى ترتدى ثوب المدينة العريقة التى وان كانت وراء حضارة عظيمة فى العالم الاسبانى تارة وفى الغرب تارة أخرى الا أنها لم تغير صورتها ولم تتخل عن دورها الخير فى التقاء الحضارات التقاء ود وتعارف ونماء .

ولا نملك الا أن نقدم الشكر لمدرسة المترجمين **بطليطلة** والى بلدية **طليطلة** والى الجمعية الملكية **بطليطلة** لدورهم الهام فى اخراج هذا العدد بجانب المعهد المصرى للدراسات الاسلامية الذى شارف الآن عامه الخمسين فى خدمة الالتقاء الحميم بين الحضارة العربية والحضارة الاسبانية وهو نفس الدور الذى لعبته **طليطلة** ردحا من الزمان . كما نقدم الشكر لكل من ساهم فى هذا العدد من الباحثين البارزين .

سليمان العطار

نصوص عربية كلاسيكية عن طليطلة
مختارة
من نفح الطيب والذخيرة

مقدمـــة

أبدأ هذه المقـدمة بايراد هذين النصين – فضلا عن النصوص التى تلى هذا التقديم – لمـا لهما من أهمية خاصة فى فهم دور **طليطلة** الخاص جدا فى تاريخ الأندلس وتاريخ اسبانيا .

النص رقم (١)

وهو مقتطع من كتاب تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية :

أخبـار الحكم بن هشام

ثم ولى الحكم بن هشام ، رحمه الله ، فكان جميل السيرة فى رعيته . متخيراً لحكامه وعماله ، مؤمنا للسبل ، متكرراً بالجهاد .

واستقضى أول ولايته خير قضاة الأندلس وأعدلهم : محمد بن بشير .

وكان محمد بن بشير فى حداثته ، كاتبـاً للعباس بن عبد الله المرواني ببجاية عامل هشام ، رحمه الله ، يسيرا ، ثم رحـل الى المشرق وحج البيت ، وسمع من مالك بن أنس سماعا يسيراً ، وانصرف ، فاستكتبه مصعب بن عمران الهمداني ، المتقـدم ذكره ، وهو قـاضى الجند بقرطبة ، فكان كـاتبه الى أن توفى ، وأجمع الوزراء على توليه بعده ، فولى القضاء أكثر خلافته ، ثم توفى .

وولى القضاء بعده ابنه سعيد بن محمد بن بشير ، وكـان أيضا من أخيـار القضاة .

وكان المتغلب على أمر الحكم طول أيامه حاجبه عبد الكريم بن مغيث ، وكان من العقل وحسن الرأى بمكان كبير .

وكانت للحكم بالأندلس ثلاث وقائع عظيمة ، فمنها : وقيعة **بطليطلة** ، وذلك أنهم كانوا من الاثـارة والطغيان والاستخفاف بالعمال ما لم تبلغه قط رعية من ولاتها ، وكان عندهم غربيب الطليطلى الشاعر ، وكان من أهل الحكمة والدهاء ، وكان أهل **طليطلة** يسندون الى رأيه ، فلم يطمع الحكم وفيهم أيـام غربيب ، فلما توفى استقدم عمروس ، المعروف بالمـولد ، من وشقة ، وهو جـد بني عمروس

الصيديين ، فاختصه ، وقرب مكانه ، ثم استراح اليه بما فى نفسه فى أهل **طليطلة** ، وقال له : انه لم يقم لى أمل فى الانتصاف منهم الا على يدك ، اذ رجا ميل أهل **طليطلة** اليه للدعوة التى هو منها ، فوافقه على ذلك ، فولاه **طليطلة** ، وكتب الى أهلها كتابا يخدعهم عن عقولهم ، ويقول : اني اخترت لكم رجلا من أهلكم وأعفيتكم من موالينا ، ومن يتصرف فى عمالتنا ، وحد لعمروس حدودا رجا بها بلوغ أمله فيهم ، فكان مما حد له أن قال : اذا أنس أهل **طليطلة** اليك ، وأحلوك محل واحد منهم ، باظهارك لهم فى الباطن أنهم أحب اليك من بني أمية ، ومن كل من عرفتهم ، وأنك على كراهة لجميعهم ، أن تقول لهم : اني رأيت هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان ، انما هو بمداخلة الحشم لكم ولبنيكم ونسائكم ، فكنت أرى أن أبنى قصبة فى جانب من المدينة يسكنها الحشم فيكونون بمعزل عنكم ، وتسلمون من شرهم ، فأجابوا الى أن تكون القصبة فى وسط المدينة ، ولا تكون فى جانب . فاختاروا الجبل المعروف بجبل عمروس الى يومنا هذا ، فبنى فيه قصراً ، واستخرج ترابه من حفرة فى وسطه .

فلما تم القصر ورحل اليه وسكنه أعلم الحكم بذلك : فعهد الى بعض قواده فى الثغر بأن يحاط بحركة العدو اليه ، ويسأل الجند والنفير ، فاستنفر الناس بقرطبة وغيرها ، وأخرج ابنه عبد الرحمن ، وهو حينئذ ابن أربع عشرة سنة ، وأخرج معه ثلاثة من وزرائه ، فلما جاوز **طليطلة** ، وقد كتب الحكم ، كتابا مع أحد الخلفاء ، وأمره أن يدفعه الى الوزراء عند اجتماعهم بعمروس ، فلما صار العسكر **بطليطلة** لموضع يعرف بالجيارين ، تلقاه الخبر بانصراف العدو ، فقال عمروس لأهل **طليطلة** : انه يلزمني الخروج الى الولد ، أبقاه الله ، وواجب عليكم مثل ذلك ، فخرج وخرجوا معه حتى أتوه ، فلما وصلوا اليه أمر الولد بايصالهم الى نفسه ، وبسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا اليه .

ثم خلا عمروس بالوزراء ، ودفع الكتاب فقرءوه ، فاذا فيه أن يشير عمروس على أهل **طليطلة** بأن يستجلبوا الولد الى **طليطلة** ليكرمهم بذلك ، وليكونوا من خواصه ، ويظهر الولد لهم التعاصى والاباية فى دخول **طليطلة** حتى يعزموا عليه ، فاذا عزموا تعاد لهم ، وصار فى داخل القصبة ، نظر فى اقامة صنيع لهم ليطعمهم ويكسوهم ويصطنعم بذلك ، وكان فى عهده الى عمروس اذا بنى القصبة أن يكون لها بابان ، فسأل القوم ذلك ، فتعاصوا ، ثم أجابوه .

فرحل الى المدينة ، ودخلها وصار فى القصبة ، ثم أمر بأن يحضر ما يقوم منه الصنيع فى اليوم الثاني ، وأمر باحضار وجوه أهل **طليطلة** فى الحاضرة والبادية، فحضروه ، وأمروا بالدخول من باب ، وصرفت دوابهم الى الباب الثانى ليخرجوا منه ، ووقف السيافون على شفير الحفرة ، وكل من دخل ضربت رقبته ، حتى

أتى القتــل منهم الى خمسة آلاف وثلثمائة ونيف . وأثبت عبد الرحمن بصره فى السيف ، فلم تزل به غمزة فى عينه الى أن مات .

ويحكى أن حكيما من **طليطلة** لما أتى الباب الذى منه الدخول ، ولم يلق فى اقباله أحدا خارجــا ، وقد تعــالى النهار ، فقال لمــن حول البــاب من أهل **طليطلــة** : ياصحابنا ، وأين أصحابنا الذين دخلوا من غدوة ؟ فقيل له : على الباب الثانى يخرجون ، قال : لم ألق أحدا منهم منقلبا ، ثم رفع بصره فنظر الى بخار الدم ، فقال : يا أهل **طليطلة** ، السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخة ، فكان قوله سبب افتراق الناس وبقاء من بقى منهم .

ثم استقامت طاعتهم بقية أيام الحكم ، وأيام عبد الرحمن ابنه كلها ، الى أن توفى عبد الرحمن وخلعوا .

وسيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله .

ثم ظهرت بالجزيرة خارجية تشبه مذاهبهم مذاهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية ، رضى الله عنهما ، ومن بعدهم ، فكتب عباس بن ناصح الى الحكم شعراً يغرى بهم ، ويحض على انكار ما أحدثوه ، وفى الشعر :

صل بالأفيل الذى ربوا لفتنتهم   من قبل أن يرحلوه نحونا جذعا

فقال الحكم : اى والله ، نفعل ، وخرج بنفسه حتى أتى الجزيرة ، ونزل على بابها ، وحمل السيف على أكثر أهلها .

ثم حدث بقرطبة حادثة الهيج ، وذلك أن قوما من أعلام قرطبة أنكروا عليه أشياء رابتهم ، فأرادوا خلعه ، وقصدوا الى ابن عمة له ، يعرف بابن الشماس ، من ولد منذر بن عبد الرحمن بن معاوية ، فخاضوا معه فى ذلك ، وأرادوا تقديمه وخلع الحكم ، فأظهر لهم الاجابة وقــال لهم : عرفوني بمن معكم فى هذا الأمر ، فواعدوه ليوم بعينه ، ثم قصد بنفسه الى الحكم وأعلمه بذلك ، فقــال له : أردت أن تغريني بأعلام بلدى ، والله لتصححون هذا عندى أو لأضربن رقبتك ، فقال له : ابعث الى أمينك ليلة كذا ، فبعث اليه فتاه برنت ، وكــاتبه ابن الخداء ، جد بنى الخداء ، فأقعدهم بمكان يسمعون ما يدور بينه وبينهم ، فــأتوه وأداروا الأمر ، فقال لهم : من معكم فى هذا الرأى ؟ فقالوا : فلان ، والكاتب يكتب خلف الستارة ، فأملوا عددا كثيرا حتى خشى الكاتب أن يسمى ، فصوت بالقلم فى الرق ، فثار القوم وقالوا : فعلتها يا عدو الله ! فمن خرج من وقته ذلك وفر نجا ، ومن توقف قبض عليه .

فكان فيمن فر عيسى بن دينار ، فقيه الأندلس ، ويحيى بن يحيى ، وغيرهما .

وقبض على ستة من أعلام القوم المآخير ، فصلب منهم يحيى بن نصر اليحصبى، من ساكنى قرية شقندة ، وموسى بن سالم الخولانى ، وولده ، فثار أهل الربض بسبب ذلك ، وشهروا السلاح ، ودارت الحرب بينهم وبين الجند ، فلما تكاثر عليهم الحشم صاحوا بالطاعة ، فأشار بعض الوزراء بألا يقبل ذلك منهم ، وأشار بعضهم الى قبول ذلك منهم ، وقال : ان منهم المسيء والمحسن ، فأخذ برأى من أشار بالصفح عنهم ، وأذن لهم بالخروج عن قرطبة .

وافترقوا ولحقوا بساحل بلد البربر ، وصاروا أهلها ، وانخزلت منهم طائفة كبيرة نحو الخمسة العشر الألف ، وركبوا البحر حتى أتوا الاسكندرية فملكوها ، وذلك فى أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكرة ، وحملوا السيف على أكثر أهلها ، وذلك أن جزارا ضرب وجه رجل مسلم منهم بكرش ، فأنفوا لذلك ، فحملوا السيف على أكثرهم .

فلما بلغ الرشيد خبرهم أخرج ثمة ابن أيمن الحاجب ، ليستصلح أمرهم ، فابتاع المدينة منهم بمال كثير ، ثم خيرهم فى النزول حيث شاءوا من عمل مصر وجزائر البحر ، فاختاروا جزيرة اقريطش ، فنزلوها ، وهم فيها الى يومنا هذا .

النص رقم (٢)

وهو مقتطع من كتاب جذوة المقتبس للحميدى يتحدث عن أحد الداخلين من المشرق الى الأندلس :

محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان ابن الأسود بن سفيان ، أبو الفضل التميمي ، بغدادى .

سمع من أبى طاهر محمد بن عبد الرحمن « المخلص » . جزءين ، ومن ابن الصلت « المجبر » ، ومن بعده .

كذا أخبرنى الشيخ الفقيه أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز ابن الحارث ، وهو ابن عمر ، وقال لى : ان مولده سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة .

وهو من أهل بيت علم وأدب .

خرج أبو الفضل الى القيروان فى أيام المعز بن باديس ، فدعاه الى دعوة بنى العباس ، فاستجاب له ، ثم وقعت الفتن ، واستولت العرب على البلاد ، فخرج منها الى الأندلس ، ولقى ملوكها وحظى عندهم بأدبه وعلمه ، واستقر **بطليطلة** ،

فكانت وفاته بها فى سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، على ما أخبرنى به أبو الحسن علي بن أحمد العابدى .

وكان له نظم رائع ، ونثر بديع ، ومن نظمه ، ونسخته ، وأقرأته من خطه ، رحمه الله ، على الشيخ الامام أبى محمد ، ابن عمه ، قال : أنشدنى أبو الفضل محمد بن عبد الواحد لنفسه ، من قصيدة طويلة أولها :

أبعد آرتحال الحى من جو بارق تؤمل أن يسلو الهوى قلب عاشق

وفيها :

أنا ابن السرى لا بل أبوها كأنما سوى أسن من مائها متماذق
شربت سلاف السير تعطب كأسه لفقد خليل أو حبيب مفارق
اذا أظماتنى الحادثات ولم أجد ركابى على قلب من الدهر خافق
صفا تحت كف البين ان ظل غامزى وصابا زعافا ان عرى البين ذائقى
ألفت الفيافى فهى تحسب اننى صواها وعيسى من ربال النقانق
وعلقت آمالى بأبيض صارم واسمر خطى وأجرد سابق
فقربن من نيل كل شاسع وأدنين من بعد المنى كل باسق
فلا تعذلينى فى تسرع مهجتى الى حتفها بين القنا والفيالق
فلست مريحا من قنا الخط راحتى ولا معتقا عن محمل السيف عاتقى

* * *

افتتاحنا هذا الجزء العربى من مجلة المعهد المخصصة لمدينة **طليطلة** – والذى تضمن بعض النصوص العربية القديمة عن مدينة **طليطلة** – بالنصين السابقين المختارين من كتابين هامين يهدف الى الكشف بشكل مباشر عما يرد فى النصوص التالية تحت السطور مرات ومرات وما يرد فيها بشكل بارز مرات قليلة ونادرة . ومع ذلك عند هذه المرات الأخيرة يبتسر الخبر ولا يحمل الكثير من المعلومات .

هذا الأمر المستور مرات ومرات والمكشوف فى نوادر الخبر وفى كلمات قليلة هو اتصاف أهل **طليطلة** بالتمرد وصعوبة شكيمتهم مما جعل ضبط تلك المدينة رمزا لقوة الدولة وانضباطها كما يصدق العكس تماما . بل ان سقوط هذه المدينة فى يد ملوك الشمال كان بداية النهاية لاسبانيا التى تغلب عليها الحضارة الناطقة بالعربية والتى أقامها ملوك الجنوب ودوله ، كما حدث العكس من قبل عند افتتاح الأندلس . ونقصد بملوك الشمال وملوك الجنوب شيئا مخالفا تماما للتقسيم التقليدى للأندلس بين شرق وغرب وموسطة . قد يكون هذا التقسيم

جغرافيا صحيحا لكنه من الناحية الديموجرافية غير صحيح . فالشمال غلبت عليه اللهجات اللاتينية العامية وان عرف العربية كما غلبت عليه المسيحية وان عرف الاسلام أما الجنوب فقد سادته العربية وان عرف اللهجات الرومانثية واحتفل بها فى حياته الفولكلورية كما غلب عليه الاسلام وان عرف المسيحية المستعربة وغير المستعربة .

وكان تاريخ الأندلس أو اسبانيا العربية اللسان عبارة عن صراعين مستمرين صراع أساسى حاسم وصراع هامشى خدم الصراع الأساسى عن عمد أو غير عمد . الصراع الأساسى كان بين ممالك الشمال وخلافة الجنوب ثم بين ممالك الشمال وممالك الجنوب أو باستعمال المصطلح التقليدى بشىء من التوسع بين طوائف الشمال وطوائف الجنوب ، لكن طوائف الشمال كانت تتجه لتكوين دولة على نمط خلافة الجنوب بينما انفرطت خلافة الجنوب الى طوائف على نمط طوائف الشمال . وكما كانت الغلبة للخلافة المتوحدة والقوية صارت فيما بعد الغلبة لطوائف الشمال المتجهة للتوحد والقوة .

أما الصراع الهامشى فكان بين طوائف السكان فى الجنوب مضرية ويمنية وعرب وبربر وغير ذلك من صقالبة وسودان ومستعربين ومولدين بل كان بين مالكية واتجاهات أخرى عقائدية سرية وعلنية منها التصوف والتشيع أو حتى اتخاذ مذهب سنى غير المذهب المالكى ثم أخيرا بين سكان الجنوب الأصليين وسكانه الوافدين من المغرب تحت أعلام مرابطية أو موحدية للدفاع عن الاسلام تارة ولأهداف امبراطورية تارات . ونجد مثل هذا الصراع فى الشمال لكنه صراع بين أسر ملكية داخل كل أسرة أو بين أسرة وأخرى . وقد تعقد الصراعان الأساسيان واستمرا قرونا دون توقف للصراع ؛ الأمر الذى يثير الاستغراب ويستوقف الفكر طويلا . وقد فكر فى هذا الأمر كثيرا أستاذى العظيم عبد العزيز الأهوانى وانتهى الى رأى لم أجد من بعد بديلا له . ذلك الرأى يعزو استمرار الصراع حتى بعد سقوط غرناطة الى ما أطلق عليه «الوقود الآدمى الخارجى» . فلم يتوقف تيار هجرة العرب المشارقة والمغاربة بجانب البربر الى الأندلس لنصرة أهله أو لأسباب أخرى لكن فى الحالتين كان وقودا يجبر ضعف الجنوب ويسد ثغور الخلل كما حدثت هجرات الى الشمال من فرنسا وايطاليا وغيرهما لنصرة المسيحية من ناحية ولعلائق النسب بين الأسر الحاكمة .

كانت هذه الدماء الجديدة الدافقة عونا لكلا الجانبين على الاستمرار فى الصراع دون حسم وقد ساند هذا التيار تدخل دول ومؤسسات فى جنوب الجنوب وشرقه ومثله من شمال الشمال وشرقه وغربه تقدم العون المتعدد أو حتى الاحباط والعرقلة . وكان عون شمال الشمال يزداد ويقوى وعون جنوب الجنوب يضعف ويقل الى أن حسم الشمال الصراع الرمزى الى اليوم ضد الجنوب .

وأضيف عنصرا هامــا لاستمرار الصراع قرونا متطــاولة هو دور المــرأة الحاسم ، فقد أخذت على عاتقها الى حد كبير ولا سيما فى الجنوب ادارة الحياة المدنية فى جوانب متعددة منها الاقتصاد والتعليم والعمل ، مما وفر أعدادا أكبر من الرجال للتعبئة للمعارك دون قلق على أسرهم التى تحفل برعاية نساء قويات الشخصية لهن تصرف غير محدود فى الحياة المدنية ، ولعل خاتمة الخاتمة لهذا الصراع على يد الملكة ايزابيل لاكاتوليكا يرمز لأهمية المرأة وقوة شكيمتها فى بلد خاض حروبا لم تتوقف داخل حدوده لمدة قرون ثمانية .

فى هذا الصراع تقوم **طليطلة** لفترة طويلة بدور هام لم تقدره المصادر التاريخية العربية حق قدره رغم خطورته وحسمه بــل نكاد نعرف القليــل عن دور هــذه المدينة لأسباب تتعلق بتــأخر معظم المصادر الهامة حيث كتــبت بعد سقوط تلك المدينة من يــد ملوك الجنوب الى يد ملوك الشمال . كذلك هنـــاك سبب آخر هو التركيز على مقر السلطة وهو قرطبة ومن بعد فيمــا يبدو أن أشبيلية قــد حلت محلها الى حد كبير ، ثم أخيرا غرناطة ، أما **طليطلة** مخالب العقاب كما وصفها أحد أمراء الموحدين عند ما شبه الأندلس بهذا الطائر ، فلم تحظ بما تستحق من مكانة استراتيجية عند حكام الجنوب ففقدوها وفقدوا معها كل شىء .

ومن هنا تأتى أهمية النص الأول المأخوذ من تاريخ ابن القوطية الذى يصف أهل **طليطلة** — خلال سياق ثلاث وقائع عظيمة خاضها الحكم بن هشام تمثل أهم أحداث التمرد فى عصره ، وعلى عكس الشائع عن أن واقعة التمرد الربضى الذى أعطاه لقبــا « الحكم الربضى » كان أهم وقــائع التمرد فى عصره يــأتى تمردا **طليطليا** فى المقــام الأول بل ويفسر واقعة مذبحة القلعــة التى دبرها محمد علي ضد الممــاليك فى مصر فى القرن التــاسع عشر — ؛ أقول يصف أهــل **طليطلــة** « ... أنهم كانوا من الاثارة والطغيان والاستخفاف بالعمال ما لم تبلغه قط رعية من ولاتها » .

ان هذا الوصف بــالغ الأهمية والطرافة ومثير للاستطلاع : كــيف يمكن أن يوصف شعب مدينة ما أو اقليم ما بأنهم أكثر الرعايا — على الاطلاق — اثارة وطغيانا واستخفافا بولاتهم . انه وصف قبل أن أقع على هذا النص قد تصورته وأردت أن أسجله فى هذا التقــديم نتيجــة قراءتى للنصوص التى اخترتهــا عن **طليطلة** . فلــم يحدث تمرد فى زمن الحكم العربى للأندلس الا بــدأ فى **طليطلة** أو انتهى اليهــا بهرب بعض أقطــابها الى رحابها مــا عدا —بــالطبع— بعض الاستثناءات التى على ما أظن أيضا كانت **طليطلة** وراءها عقــائديا . فمثلا أول تمرد عقــائدى مشهور هو تمرد ابن مسرة الذى حملــه أثين بالاثيوس وزر كل التمرد العقائدى فى الاندلس فى كتابه الشهير «ابن مسرة ومدرسته» يكــاد تهب

رياحه من طليطلة التى طبقا للنصوص التالية سترى شيخا **طليطليا** أستاذا لابن مسرة وشيخا آخر مصاحبا له فى حجه الذى انتهى تقريبا بطقوس مسرية غاية فى الغرابة فى قطر سنى مالكى .

ومن ثم تلك المذبحة التى حذا حذوها محمد علي بدقة شديدة والتى دبرها الحكم بأفضل مما فعل من بعد محمد علي مع المماليك تقدم من القتلى خمسة آلاف وثلاثمائة ونيف حتى أن ابن الأمير الحكم «الربضى» صار «رمضيا» حيث أثبت بصره لقطع الرقاب فلم تنزل به غمزة فى عينه الى أن مات .

هذه القسوة التى لا يعدلها الا تمرد أهل **طليطلة** فرضت عليهم سكينة دامت قليلا «ثم استقامت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام عبد الرحمن ابنه كلها ، الى أن توفى وخلعوا» . انها عبارات قصيرة لكنها تصور استمرارية التمرد بين الطليطليين . السؤال : لماذا ؟ .

فى رأيى أن **طليطلة** التى كانت فصلا من فصول السنة فى حكم اسبانيا فى أقل الحالات نفوذا وعاصمة لاسبانيا فى معظم الأحوال وحصنا بموقعها أقوى من كل القلاع لم تلق ما تستحق من عناية . انها لا يمكن فى تلك العصور الوسطى أن تبخع لحاكم الا بارادتها لتعذر فتحها . ان تمرد أهل **طليطلة** ينم عن وعى بالحصن الحصين الذين يعيشون فيه ، مما يجعلهم يستجيبون لدواعى الميل للحرية فطريا عند الانسان ، لكنه قط لم ينم عن وعى بالدور الذى كان يمكن أن تلعبه هذه المدينة فى حماية الوجود العربى للأندلس لا عند سكانها ولا عند حكام قرطبة، فصارت مأوى للمتمردين من جميع أنحاء الاندلس ومن سدتها أديرت الفتنة فى قرطبة التى قضت على الدولة الأموية . أيضا فقدت أهداف التمرد المتجانسة فأصبح التمرد عند انفراط عقد الدولة عادة لا تكتيكا نحو استراتيجية محددة ، فصارت صورة مصغرة للاندلس فى عهد الطوائف حتى انقلبت من طائفة الى طوائف صغيرة فتحت الأبواب أمام سقوطها وتحولها مبدئيا الى عاصمة للشمال تدرك دورها الاستراتيجى لأول مرة منذ فتحها على يد العرب ، ثم تمارسه الى أن ينتهى الأمر بتصفية السلطة الجنوبية لحساب سلطة الشمال بسقوط غرناطة .

هذا ما نفهمه من (النص ١) أما (النص ٢) فيقدم نموذجا متكررا فى معاجم الرجال يثير الخوف على مصير أى مدينة تفتح أبوابها للمتمردين فكريا وسياسيا . ان نموذج محمد بن عبد الواحد بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان ، أبو الفضل التميمي بغدادى نموذج متكرر فى معظم الوافدين الى **طليطلة** سواء من الأندلس أو المشرق وقد اخترنا هذا النموذج لوضوح دلالة لجوئه الى **طليطلة** . انه صاحب دعوة الى بنى العباس وينجح نسبيا فى دعوته ثم

تقوم الفتن فى القيروان فيلجأ الى **طليطلـة** . وما يعنينى فوق مـا سبق مقطوعة الشعر الواردة التى أولها عقائدى تصوفى :

أبعـد ارتحال الحى من جو بـارق   تؤمل أن يسلو الهوى قلب عاشق

ثم آخرها حديث يمكن طبقا للنص رقم (١) والنصوص التالية أن ينطبق على كثير من رجال **طليطلة** :

فـلا تعـذليني فى تسرع مهجتـى   الى حتفهـا بين القنـا والفيـالق
فلست مريحا من قنا الخط راحتى   ولا معتقا من محمل السيف عاتقى

انها روح التمرد والحمية التى لا تتصف بالروية والعقل .

بعد هذه السطور نطرح فكرة هذا العمل الانتولوجى . اننا نقدم مجموعة من النصوص المـأخوذة من نفح الطيب والذخيرة ونصا صغيرا من معجم البلـدان لياقوت حول **طليطلة** تكـاد تجمع معظم ما أوردته المصادر العربية فيمـا يتعلق بهذه المدينة . وقد استعرضت مصادر أخرى فلـم أجد بها خروجا عما أوردته تلك الكتب الثلاثة لأنها فى الأصل تجمع كل ما ورد عن المواضيع التى تعالجها . ومع ذلك فهناك كثير من الرجال الذين ينتمون الى **طليطلة** فى كتب التراجم عزفنا عن ايرادها حتى لا تفسد سياقا حققته بالفعـل النصوص التى أوردهـا النفح والذخيرة .

وقد كان النص الذى أورده ابن القوطية عن الحكم بن هشام نادرا فى دلالته عندما وصف أهل **طليطلة** . ولذلك أوردناه كاملا رغم أنه يتجاوز **طليطلة** وأهلها الى وقـائع تمرد أخرى . وفيمـا يبدو فى مخـالفة للمعروف حتى الآن أن تمرد **طليطلة** المشار اليه فى هذا النص كان أخطر بكثير من تمرد الربض ، ويشير الى خطورة وضع **طليطلة** بل ويمهد تماما لسقوطها وسقوط باقى الأندلس من بعد . ان **طليطلة** حامية الثغور مشغولة بتمردها لاهيـة عن وظيفتها ، أى أنهـا بوعى وبغير وعى تعمل فى اتجاه حرب الاستعادة تؤيد الشمال ضد الجنوب بشكل غير مباشر حتى تصير قاعدة الشمال الحصينة فى غزوه للجنوب .

أما بـاقى النصوص التى ترد هنـا فى الصفحات التـالية والتى أشرنـا الى مصادرها ، فانها تكشف عن فقر المصادر العربية فيما يتعلق بالحياة الاجتماعية والتفاصيل الدقيقة عن تـاريخ **طليطلة** واسهاماتهـا التى لا شك فيهـا فى صنع الثقافة الأندلسية ، كما تم اهمال شأن هذه المدينة المركزية الدور بعد سقوطهـا بشكل واضح مما يجعل المصادر الاسبانية فى هذا الشأن أكثر أهمية وبيانا .

وعموما فاننا أوردنا كل النصوص الذى ظهر فيها اسم **طليطلة** بشكل مباشر حتى لو كان النص يتحدث عن شيء آخر لأن ذلك يكشف عن أهمية هذه المدينة الاستراتيجية وارتباطها بكثير من الأحداث الهامة مثل الفصل الأخير من حياة المنصور بن أبى عامر ، أو ارتباطها الدقيق بالفتنة بل ان الفتنة أديرت من **طليطلة** كما يكشف ما تحت السطور بتلك النصوص . كما أوردنا أيضا نصوصا لم يرد بها اسم **طليطلة** وان كان قد ورد حدث يتصل بملوكها أو حكامها أو ولاتها أو أدبائها أو القلاع والحصون والقرى التابعة لها .

وقد تم تصنيف هذه النصوص فى أقسام كبرى لاستعصاء النصوص على تصنيف أدق لأن طبيعة الكتابة العربية الكلاسيكية الخوض فى أكثر من موضوع والأخذ من كل شيء بطرف .

وأخيرا فاننى أقدم عدة معلومات ينبغى الاشارة اليها :

١ — من مراجعة أخبار سريعة فى مصادر متعددة كان عزل ولاة **طليطلة** متواترا مما يؤكد تصور ابن القوطية عن صعوبة حكم هذه المدينة .

٢ — يورد الجزء من المقتبس لابن حيان تحقيق الحجى خبرا كبير المغزى أيضا تحت السطور لا يسعنا الا ايراده ، وهذا الخبر يتحدث عن رسالة وردت من محمد بن حسن بن قاسم صاحب عدوة القرويين من مدينة فاس تعلن ولاء صاحب الرسالة للحكم وفيما يبدو تطلب من الحكم الحماية كما يفيد النص التالى : «وفى هذا الوقت قدم الى قرطبة الرجال الشداد الجلاد الذين أرسل بهم سعادة القائد **بطليطلة** وانتقاهم فى ثغرها من ذوي البأس والرجولة ، وكانت عدتهم ألفا وسبعمائة ، وكاد دخولهم معبئين فى الزى الجميل والشكل التام ، قد لبسوا الأقبية البيض ، وتقلدوا السيوف الافرنجية ، وبأيديهم التراس الملونة ، والرماح المستوية الأسنة ، فتقدموا الى الزهراء وعليهم العرفاء الموكلون ، وقعد الوزراء لاعتراضهم ، وأصحاب الحشم معهم ، فكمل اعتراضهم والانفاق فيهم وأزعجوا مع النظار عليهم الى العسكر بالعدوة» . وهذا معناه أن دور **طليطلة** لم يكن سلبيا فى حماية الجنوب بل وجنوب الجنوب ، انما الأمر أن شأن حكام قرطبة تراوح بين تجنيد امكانيات **طليطلة** والوعى بمكانتها وقدراتها الاستراتيجية من عدمه ، بمعنى أن **طليطلة** لا تتحمل وحدها مسئولية دورها السلبى تجاه الجنوب .

أما وصف النص لهم بأنهم «الرجال الشداد الجلاد ... من ذوي البأس والرجولة» فهى صفات تؤكد نص ابن القوطية حول صفات أهل **طليطلة** التى قد تدفعهم بين الحين والحين الى التمرد ، والتمرد ظاهرة أندلسية عامة لكن لهذه

الظاهرة خصوصية فى **طليطلة** لأنها كانت نقطة حاكمة لكل الثغور والتمرد فيها يهز حدود الاندلس الشمالية وينتشر الى حد خطير محققا فرص الاختراق لملوك الشمال . ومع هذا فمن المؤكد أن **طليطلة** ساهمت فى استقرار الجنوب بين الحين والحين برجالها الأشداء طبقا لهذا النص الذى يلفت النظر بحمل هؤلاء الرجال لسيوف افرنجية . ما تلك السيوف الافرنجية ؟ هل يشير النص الى تفوق تكنولوجى للشماليين فى صناعة السلاح مهد لنصرهم النهائى ، وأن أهل **طليطلة** ومعهم أهل الاندلس أصبحوا مستوردين للسلاح وليسوا له بصانعين ؟ ما أكثر ما هو مفقود من تاريخ الأندلس ؟ ان هذه السيوف الافرنجية هل هى مقدمة لمدافع الملكين الكاثوليكيين التى فرضت تفوقا نهائيا للغرب على كل الشرق لمئات السنين بعد سقوط غرناطة بل وحتى اليوم .

٣ — المعلومة الثالثة وتظهر فى كل الحديث عن طرق الغزو والسفر والتجارة فى الأندلس وهى أن **طليطلة** كانت محطة أساسية فى معظم هذه الطرق ، مما يزيد فى أهميتها الاستراتيجية وسقوطها يشبه سقوط فلسطين اليوم وقطعها جسم العالم العربى الى شطرين .

أن **طليطلة** وردت فى هذه النصوص مرة بهاء ساكنة ومرة بتاء التأنيث ، وقد كان هذا التنوع نتيجة أخطاء مطبعية بايراد الاسم دون تاء التأنيث كاملة أى بالهاء الساكنة التى هى أيضا للتأنيث ، ولم أحاول تصحيح ذلك ، لأنى مع كتابتها وكتابة أسماء كل المدن التى تنتهى بهذه العلامة التأنيثيه بالهاء الساكنة ، لأن أسماء الأعلام تستحق التثبيت نطقا وكتابة مع اعفائها من قواعد الاعراب .

٥ — لم نثبت الصفحات التى أخذت منها النصوص لأنها تنتمى لمصدرين معروفين بين يدى المتخصصين ومحققهما العظيم احسان عباس فهرس لهما جيدا فلمن أراد العودة الى المصدر عليه مراجعة المادة : **طليطلة** فى فهارس المحقق .

سليمان العطار

مدير المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد

١

طليطلة

وأساطير فتح الأندلس

بين الحقيقة التاريخية والفولكلور

● قال ابن خلكان : «فاغتبط اليونان بالأندلس أتم اغتبـاط ، واتخذوا دار الحكمة والملك بها **طليطلة** لأنها أوسط البلاد ، وكان أهم الأمور عندهم تحصينها عمن يتصل به خبرها من الأمم ، فنظروا فاذا هو أنه لا يحسدهم على رغد العيش الا أرباب الشظف والشقاء والتعب ، وهم يومئذ طائفتـان : العرب ، والبربر ، فخافوهم على جزيرتهم العـامرة ، فعزموا على أن يتخـذوا لهذين الجنسين من النـاس طلسما ، فرصدوا لذلك أرصاداً ، ولمـا كان البربر بالقرب منهم وليس [بينهم] سوى تعدية البحر ويرد عليهم منهم طوائف منحرفة الطبـاع ، خارجة عن الأوضاع ، ازدادوا منهم نفوراً ، وكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة ، حتى ثبت ذلك فى طبائعهم ، وصار بعضه مركباً فى غرائزهم ، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم ، فلم تجد أندلسيـاً الا مبغضا بربرياً ، وبالعكس ، الا أن البربر أحوج الى أهل الأندلس ، لوجود بعض الأشياء عندهم وفقدها ببلاد البربر» .

«وكان بنواحى غرب الأندلس ملك يونانى بجزيرة يقال لها «قادس» وكانت له ابنة فى غاية الجمال ، فتسامع بها ملوك الأندلس ، وكانت الأندلس كثيرة الملوك ، لكل بلدة أو بلدتين ملك ، فخطبوها ، وخشى أبوها ان زوجها من واحد أسخط الباقين ، فتحير ، وأحضر ابنته ، وكانت الحكمة مركبة فى طباع القوم ذكورهم واناثهم ، ولذا قيـل : ان الحكمة نزلت من السماء على ثلاثة أعضاء من أهـل الأرض : أدمغة اليونان ، وأيدى أهل الصين ، والسنة العرب ؛ فقال لها : يابنية ، انى أصبحت على حيرة فى أمرك ممن يخطبك من الملوك ، وما أرضيت واحداً الا أسخطت الباقين ، فقـالت له : اجعل الأمر الى تخلص ، فقـال : وما تقترحين ؟ فقالت : أن يكون ملكا حكيما ، فقـال : نعم ما اخترته لنفسك . فكتب فى أجوبة الملوك الخطاب ، أنها اختارت من الأزواج الملك الحكيم ، فلما وقفوا على الجواب سكت من لم يكن حكيمـا ، وكان فى الملوك الخاطبين حكيمان ، فكتب كـل واحد منهما : أنا الملك الحكيم ، فلما وقف على كتابيهما قال لها : يابنية ، بقى الأمر على اشكال ، وهذان ملكان حكيمان ، أيهما أرضيت أسخطت الآخر ، فقالت : سأقترح على كل واحد منهما أمراً يـأتى به ، فأيهما سبق الى الفراغ ممـا التمست كنت زوجته ، قال : وما الذى تقترحين عليهما ؟ قالت : انا ساكنون بهذه الجزيرة ، ومحتاجون الى أرحى تدور بها ، وانى مقترحة على أحدهما ادارتها بالماء العذب الجارى اليها من ذلك البر ، ومقترحة على الآخر أن يتخـذ لى طلسماً نحصن به جزيرة الأندلس من البربر ، فاستظرف أبوها ذلك ، وكتب الى الملكين بما قـالت ابنته ، فأجاباه الى ذلك ، وتقاسماه على ما اختارا ، وشرع كل واحد منهما فى عمل ما أسند اليه من ذلك» .

«فأما صاحب الرحى فانه عمد الى أشكال اتخذها من الحجارة نضد بعضها الى بعض فى البحر المالح الذى بين جزيرة الأندلس والبر الكبير فى الموضع المعروف بزقاق سبتة ، وسدد الفرج التى بين الحجارة بما اقتضت حكمته ، وأوصل تلك الحجارة من البر الى الجزيرة ، وآثاره باقية الى اليوم فى الزقاق الذى بين سبتة والجزيرة الخضراء - وأكثر أهل الأندلس يزعمون أن هذا أثر قنطرة كان الاسكندر قد عملها ليعبر عليها الناس من سبتة الى الجزيرة ، والله أعلم أى القولين أصح ، غير أن الشائع الى الآن عند الناس هو الثانى - فلما تم تنضيد الحجارة للملك الحكيم جلب الماء العذب من جبل عال فى البر الكبير وسلطه من ساقية محكمة وبنى بجزيرة الأندلس رحى على هذه الساقية» .

«وأما صاحب الطلسم فانه أبطأ عمله بسبب انتظار الرصد الموافق لعمله ، غير أنه عمل أمره ، وأحكمه ، وابتنى بنيانا مربعا من حجر أبيض على ساحل البحر فى رمل عالج حفر أساسه الى أن جعله تحت الأرض بمقدار ارتفاعه فوق الأرض ليثبت ، فلما انتهى البناء المربع الى حيث اختار صور من النحاس الأحمر والحديد المصفى المخلوطين بأحكم الخلط صورة رجل بربرى ، وله لحية ، وفى رأسه ذؤابة من شعر جعد قائمة فى رأسه لجعودتها ، وهو متأبط بصورة كساء قد جمع طرفيه على يده اليسرى بألطف تصوير وأحكمه ، فى رجله نعل ، وهو قائم من رأس البناء على مستهدف بمقدار رجليه فقط ، وهو شاهق فى الهواء ، طوله نيف عن ستين أو سبعين ذراعا ، وهو محدود الأعلى ، الى أن ينتهى ما سعته قدر ذراع ، وقد مد يده اليمنى بمفتاح قفل قابضا عليه مشيرا الى البحر كأنه يقول : لا عبور ، وكان من تأثير هذا الطلسم فى البحر الذى تجاهه أنه لم ير قط ساكنا ولا كانت تجرى فيه قط سفينة بربر حتى سقط المفتاح من يده . وكان الملكان اللذان عملا الرحى والطلسم يتسابقان الى فراغ العمل ، اذ بالمسبق يستحق زواج المرأة ، وكان صاحب الرحى فرغ أولا لكنه أخفى أمره عن صاحب الطلسم لئلا يترك عمله فيبطل الطلسم ، لتحظى المرأة بالرحى والطلسم ، فلما علم باليوم الذى يفرغ صاحب الطلسم فى آخره أجرى الماء فى الجزيرة من أوله وأدار الرحى ، واشتهر ذلك ، فاتصل الخبر بصاحب الطلسم وهو فى أعلى القبة يصقل وجهه ، وكان الطلسم مذهبا ، فلما تحقق أنه مسبوق ضعفت نفسه فسقط من أعلى البناء ميتا ، وحصل صاحب الرحى على المرأة والرحى والطلسم ، وكان من تقدم من ملك اليونان يخشى على الاندلس من البربر للسبب الذى قدمنا ذكره ، فاتفقوا وجعلوا الطلسمات فى أوقات اختاروا أرصادها ، وأودعوا تلك الطلسمات تابوتا من الرخام ، وتركوه فى بيت **بطليطلة** ، وركبوا على ذلك الباب قفلا تاكيدا لحفظ ذلك البيت ، فاستمر أمرهم على ذلك» .

«ولما حان وقت انقراض دولة من كان بالأندلس ودخول العرب والبربر اليها ، وذلك بعد مضى ستـة وعشرين ملكـا من ملوكهم من تاريخ عمـل الطلسمات بطليطلة ، وكان لذريق المذكور آنفا هو تمام السابع والعشرين من ملوكهم ، فلما اقتعد أريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته وأهل الرأى منهم : قد وقع فى نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفلا شيء ، وأريد أن أفتحه لأنظر ما فيه ، لأنه لم يعمل عبثا ، فقالوا : أيها الملك ، صدقت ، انه لم يصنع عبثا ، ولم يقفل سدى ، والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا أسوة بمن تقدمك من الملوك ، وكان آباؤك وأجدادك لم يهملوا هذا فلا تهمله ، وسر سيرهم ، فقال لهم : ان نفسى تنازعنى الى فتحه ، ولابد لى منه ، فقالوا له : ان كنت تظن أن فيه مالا فقدره ونحن نجمع لك من أموالنا نظيره ، ولا تحدث علينا بفتحه حادثا لا نعرف عاقبته ؛ فأصر على ذلك ، وكان رجلا مهيبـا ، فلم يقدروا على مراجعتـه ، وأمر بفتح الأقفال ، وكان على كل قفل مفتاحه معلقا ، فلما فتح البـاب لم ير فى البيت شيئا الا مائدة عظيمة من ذهب وفضة مكللة بالجواهر ، وعليها مكتوب : هذه مائدة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، ورأى فى البيت ذلك التابوت ، وعليه قفـل ، ومفتاحه معلق ، ففتحه ، فلـم يجد فيه سوى رق ، وفى جـوانب التابوت صور فرسان مصورة بأصبـاغ محكمة التصوير على أشكـال العرب ، وعليهم الفراء ، وهم معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل العربية ، وهم متقلدون السيوف المحلاة ، معتقلون الرماح ، فأمر بنشر ذلك الرق ، فاذا فيه : متى فتح هذا البيت وهذا التابوت المقفلان بالحكمة دخل القوم الذين صورهم فى التابوت الى جزيرة الأندلس ، وذهب ملك من فيها من أيديهم ، وبطلت حكمتهم ، فلما سمع لذريق ما فى الرق ندم على ما فعل ، وتحقق انقراض دولتهم ، فلم يلبث الا قليـلا حتى سمع أن جيشا وصل من المشرق جهزه ملك العرب ليفـتح بـلاد الأنـدلس» انتهى .

فهذا هو بيت الحكمة الـذى أشار اليه لـذريق ، والله أعلم بحقيقـة الأمر فى ذلك كلـه .

على أن فى هذا السياق مخالفة لمـا سنذكره عن بعض ثقات مؤرخى الأندلس وغيرهم فى شأن المائدة وغيرها ، وما ذكر فى هذه القصة من جلب المـاء من بر العدوة الخ . فيه بعد عندى ، لأن بلاد الأندلس أكثر بلاد الله مياها وأنهارا ، فأنى تحتاج الى جلب الماء اليها من العدوة الأخرى ؟ الا أن يقـال : ان المرأة أرادت تعجيز الرجل بذلك ، أو اختبار حكمته حتى يفعل هذا الأمر الغريب ، وعلم الله من وراء ذلك كله ، وفوق كل ذي علم عليم ، ومنتهى العلم الى الله الحكيم .

* * *

[عود الى أخبـار الفتح]

وقال ابن حيان فى «المقتبس» : «ذكروا أن لذريق لم يكن من أبناء الملوك ، ولا بصحيح النسب فى القوط ، وأنه انما نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات اغطشة الملك الذى كان قبله ، وكان أثيرا لديه ، مكينا ، فاستصغر أولاده لمكانه ، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه ، فانتزع الملك من أولاد اغطشة واستبقاهم ، فكانوا هم الذين دبروا عليه – فيما ذكر – عندما لقى رجال العرب المقتحمين عليه بـالاندلس من تلقـاء بحر الزقاق وعليهم طارق بن زيـاد مولى موسى بن نصير طماعة منهم فى أن يـؤدي ويخلص اليهم ملك أبيهم ، فـالتقوا بموضع يدعى وادي لكـة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلى مكان عبورهم ، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة ، فانهزم القوط أعظم هزيمة ، وقتـل ملكهم لذريق ، وغلبت العرب على الأنـدلس ، فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب ، ومصداق موعد نبـيهم ، صلى الله عليه وسلم ، الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحي الله تعالى اليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ، ولله القوة» .

قال : «وقام بأمر العرب بالأندلس منذ فتحت الأمراء المرسلون منهم عليها من قبل أئمة المسلمين بالمشرق طوال دولة بنى أمية ، رضى الله تعالى عنهم ، الى أن طرأ اليها فلهم عند غلبـة بنى العبـاس عليهم ، وذلك عبد الرحمن بن معـاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان ، فملكها وأعاد اليها الدولة الأموية التى أورثها عقبه حقبة ، فكانت عدة هؤلاء الأمراء من لدن أولهم طارق بن زيـاد الى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى عشرين عاملا ، وعدة سنيهم بالشمسى خمس وأربعون سنة ، وبالقمرى سبع وأربعون سنة غير أشهر» انتهى .

وقال فى موضع آخر ، نقلا عن الرازي : «وافتتحت الأندلس فى أيام الوليد بن عبد الملك ، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت فى ظهور الملة الحنيفية ، وكان عمر بن عبد العزيز – رضوان الله عليه – متهمما بها ، معتنيـا بشأنها ، وقد حولها عن نظر والى افريقية وجرد اليها عاملا من قبله اختاره لها ، دلالة على معنيته بها ، ووقعت المقاسم فيها عن أمره وبفضل رأيه» انتهى .

* * *

[ملخص خبر الفتح من الكتاب الخزائنى وغيره]

وفى الكتـاب الخزائنى وغيره سياقة فتح الأندلس على أتم الوجوه ، فلنذكر ملخصه ، قالوا : استعمل أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك – رحمه الله تعالى –

موسى بن نصير مولى عمه عبد العزيز بن مروان ، ويقال : بل هو بكرى ، وذلك أن أباه نصيرا أصله من علوج أصابهم خالد بن الوليد – رضى الله عنه – فى عين التمر ، فادعوا أنهم رهن ، وأنهم من بكر بن وائل ، فصار نصير وصيفا لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، فمن هذا يختلف فيه ، وقيل : انه لخمي ؛ وعقد له على افريقية وما خلفها فى سنة ثمان وثمانين ، فخرج الى ذلك الوجه فى نفر قليل من المطوعة ، فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا ، وأتى افريقية عمله ، فأخرج من أهاها معه ذوي القوة والجلد ، وصير على مقدمته طارق بن زياد ، فلم يزل يقاتل البربر ويفض جموعهم ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، حتى بلغ طنجة ، وهى قصبة ملك البربر وأم مدائنهم ، فحصرها حتى افتتحها – وقيل : انها لم تكن افتتحت قبله ، وقيل : افتتحت ثم ارتجعت – فأسلم أهلها ، وخطها قيروانا للمسلمين . ثم ساروا الى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ، ورأس تلك المدائن سبتة ، وعليها علج يسمى يليان ، قاتله موسى فألفاه فى نجدة وقوة وعدة فلم يطقه ، فرجع الى مدينة طنجة فأقام بمن معه ، وأخذ فى الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف اليهم بالميرة والأمداد من الاندلس من قبل ملكها غيطشة ، فهم يذبون عن حريمهم ذبـا شديدا ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، الى أن هلك غيطشة ملك الاندلس ، وترك أولادا لم يرضهم أهلها للملك ، فاضطرب حبل أهل الأندلس ، ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرب شجاع بطل ، ليس من بيت أهل الملك ، الا أنه من قوادهم وفرسانهم ، فولوه أمرهم ، وكانت **طليطلة** دار الملك بالاندلس حينئذ ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الأيام ، عليه عدة من الأقفال يلزمه قوم من ثقات القوط ، قد وكلوا به لئلا يفتح ، وقد عهد الأول فى ذلك الى الآخر ، فكلما قعد منهم ملك أتاه أولئك الموكلون بالبيت فأخذوا منه قفلا وصيروه على ذلك الباب من غير أن يزيلوا قفل من تقدمه ، فلما قعد لذريق هذا ، وكان متهمما يقظا ذا فكر ، أتاه الحراس يسألونه أن يقفل على الباب ، فقال لهم : لا أفعل أو أعلم ما فيه ، ولابد لى من فتحه ، فقالوا له : أيها الملك ، انه لم يفعل هذا أحد ممن قبلك ، وتناهوا عن فتحه ، فلم يلتفت اليهم ، ومشى الى البيت ، فأعظمت ذلك العجم وضرع اليه أكابرهم فى الكف فلم يفعل ، وظن أنه بيت مال ، ففض الأقفال عنه ودخل ، فأصابه فارغا لا شىء فيه ، الا تابوتا عليه قفل ، فأمر بفتحه يحسب أن مضمونه يقنعه نفاسة ، فألفاه أيضا فارغا ليس فيه الا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العراب متقلدى السيوف متنكبى القسي رافعى الرايات على الرماح ، وفى أعلاها أسطر مكتوبة بالعجمية ، فقرئت فاذا فيها : اذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الأمة المصورة فى هذه الشقة تدخل

الأندلس ، فتغلب عليها وتملكها ، فوجم لذريق وندم على ما فعل ، وعظم غمه وغم العجم بذلك ، وأمر برد الأقفال واقرار الحرس على حالهم ، وأخذ فى تدبير الملك ، وذهل عما أنذر به .

وقد كان من سير أكـابر العجم بالاندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم والتنويه بهم الى بلاد الملك الأكبر **بطليطلـة** ليصيروا فى خدمته ، ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافا لآبائهم ، وحمل صدقاتهم ، وتولى تجهيز اناثهم الى أزواجهن . فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة ، وكانت يومئذ فى يد صاحب الاندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه ، فلما صارت عند لذريق وقعت عيـنه عليها فأعجبته وأحبها حبـاً شديدا ، ولـم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها ، فاحتالت حتى أعلمت أبـاها بذلك سرا ، بمكـاتبة خفية ، فأحفظه شأنهـا جدا ، واشتدت حميته ، وقـال : ودين المسيح لأزيلن سلطانه ، ولأحفرن تحت قدميه ، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الاندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى .

ثم ان يليان ركب بحر الزقاق من سبتة فى أصعب الأوقات فى ينير قلب الشتاء ، فصار بالاندلس ، وأقبل الى **طليطلة** نحو الملك لذريق ، فأنكر عليه مجيئه فى مثـل ذلك الوقت ، وسأله عما لديه ولم جاء فى مثـل وقته ؟ فذكر خيرا ، واعتل بذكر زوجته ، وشدة شوقها الى رؤية بنتها التى عنده ، وتمنيها لقـاءها قبل الموت ، والحاحها عليه فى احضارها ، وأنه أحب اسعافها ، ورجا بلوغها أمنيتها منه ، وسأل الملك اخراجها اليه ، وتعجيل اطلاقه للمبادرة بها ، ففعل ، وأجاز الجارية ، وتوثيق منها بالكتمان عليه ، وأفضل على أبيها ، فانقلب عنه ، وذكروا أنه لمـا ودعه قال له لذريق : اذا قدمت علينا فاستفره لنـا من الشذانقات التى لم تزل تطرفنا بها فانها آثر جوارحنا لدينا ، فقـال له : أيها الملك ، وحق المسيح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك قط – عرض له بـالذى أضمره من السعي فى ادخال رجـال العرب عليه وهو لا يفطن – فلم يتنهنه يليـان عندما استقر بسبتة عمله أن تهيـأ للمسير نحو موسى بن نصير الأمير ، فمضى نحوه بافريقية ، وكلمه فى غزو الاندلس ، ووصف له حسنها وفضلها ، وما جمعت من أسباب المنافع ، وأنواع المرافق ، وطيب المزارع ، وكثرة الثمار ، وثرارة المياه وعذوبتها ، وهو نعليه مع ذلك حـال رجالها ، ووصفهم بضعف البأس وقلـة الغناء ، فشوق موسى الى ما هناك ، وأخذ بالحزم فيما دعاه اليه يليان ، فعاقده على الانحراف الى المسلمين ، واستظهـر عليه بأن سامه مكاشفة أهـل ملته من الاندلس المشركين والاستخراج اليهم بالدخول اليها وشن الغـارة فيها ، ففعل

يليـــان ذلك ، وجمع جمعا من أهـــل عمله ، فدخل بهم فى مركبين وحـــل بساحل الجزيرة الخضراء ، فأغار وقتل وسبى وغنم ، وأقام بها أياما ، ثم رجع بمن معه سالمين ، وشاع الخبر عند المسلمين ، فأنسوا بيليان واطمأنوا اليه ، وكان ذلك عقب سنة تسعين ، فكتب موسى بن نصير الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذى دعاه اليه يليان من أمر الاندلس ، ويستأذنه فى اقتحامها ، فكتب اليه الوليد : أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بـــالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، فراجعه أنه ليس ببحر زخار ، وانما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، فكتب اليه : وان كان فلابد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه . فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف يكنى أبا زرعة فى أربعمائة رجل معهم مائة فارس سار بهم فى أربعة مراكب ، فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم، ويقـــال لها اليوم «جزيرة طريف» لنزوله بها ، وأقـــام بها أياما حتى تتـــام اليه أصحابه ، ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ، ومالا جسيما ، وأمتعة ، وذلك فى شهر رمضان سنة احدى وتسعين ، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا الى الدخول ، وقيل : دخل طريف فى ألف رجـــل ، فأصاب غنائم وسبيا ، ودخل بعده أبو زرعة شيخ من البرابرة ، وليس بطريف ، فى ألف رجل منهم أيضا فأصابوا أهل الجزيرة قد تفرقوا عنها ، فضرموا عامتها بالنار ، وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظمة ، وأصابوا سبيا يسيرا ، وقتلوا وانصرفوا سالمين .

وقال الرازى : هو أبو زرعة طريف بن مالك المعافرى ، الاسم طبق الكنية .

قالوا : ثم عاود يليان القدوم على موسى بن نصير محركا فى الاقتحام على أهل الاندلس ، وخبره بما كان منه ومن طريف وأبى زرعة ، وما نالوه من أهلهـــا ، وباشروه من طيبها ، فحمد الله على ذلك ، واستجد عزما فى اقحام المسلمين فيها ، فدعا مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيا همذانيا – وقيل : انه ليس بمولى لموسى ، وانما هو رجل من صدف ، وقيل : مولى لهم ، وقد كان بعض عقبه بالأندلس ينكرون ولاء موسى انكـــارا شديدا ، وقيـــل : انه بربرى من نفزة – فعقد له موسى ، وبعثـــه فى سبعة آلاف من المسلمين جلـــهم البربر والموالى ، وليس فيهم عرب الا قليل ، ووجه معه يليـــان ، فهيأ له يليـــان المراكب ، فركب فى أربع سفن لا صناعة له غيرها ، وحط بجبل طارق المنسوب اليه يوم سبت فى شعبـــان سنة اثنـــتين وتسعين ، فى شهر أغشت ، ثـــم صر المراكب الى من خلفه من أصحابه ، فركب من بقى من الناس ، ولم تزل السفائن تختلف اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل ، وقيـــل : حل طارق بجبله يوم الاثنـــين

لخمس خلون من رجب من السنة فى اثنى عشر ألفا غير ستة عشر رجلا من البرابرة ، ولم يكن فيهم من العرب الا يسير ، أجازهم يليان الى ساحل الاندلس فى مراكب التجار من حيث لم يعلم بهم ، أولا أولا ، وركب أميرهم طارق آخرهم .

قيل : وأصاب طارق عجوزا من أهل الجزيرة ، فقالت له فى بعض قولها : انه كان لها زوج عالم بالحداثان فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلدهم هذا ، ويغلب عليه ، ويصف من نعته أنه ضخم الهامة ، فأنت كذلك ، ومنها أن فى كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فان كانت بك هذه العلامة فأنت هو ، فكشف طارق ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرته العجوز ، فاستبشر بذلك هو ومن معه .

وذكر عن طارق أنه كان نائما فى المركب فرأى فى منامه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الأربعة أصحابه عليهم السلام يمشون على الماء حتى مروا به ، فبشره النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بالفتح ، وأمره بالمرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد . وقيل : انه لما ركب البحر غلبته عينه فكان يرى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي ، فيقول له رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك ، ونظر اليه والى أصحابه قد دخلوا الاندلس قدامه ، فهب من نومه مستبشرا ، وبشر أصحابه ، وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه ، فقويت نفسه ، ولم يشك فى الظفر ، فخرج من البلد ، واقتحم بسيط البلاد شانا للغارة .

قالوا : ووقع على لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس ، وتوالى غاراتهم على بلد الجزيرة ، وأن يليان السبب فيها ، وكان يومئذ غائبا بأرض بنبلونة فى غزاة له الى البشكنس لأمر كان استصعب عليه بناحيتهم ، فعظم عليه ، وفهم الأمر الذى منه أتى ، وأقبل مبادرا الفتق فى جموعه ، حتى احتل بمدينة قرطبة من الموسطة ، ونزل القصر المدعو بها ببلاط لذريق المنسوب اليه ، وليس لأنه بناه أو اخترعه – وهو بناء من تقدمه من الملوك اتخذوه لمنزلهم فى قرطبة اذا أتوها – الا أن العرب لما غلبوا لذريق وهذا القصر من مواطنه نسبوه اليه ، اذ لم يعرفوا من بناه . ويزعم العجم أن الذى بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن المدور أسفل قرطبة ، وخرج يوما يتصيد حتى انتهى الى مكان قرطبة وهى يومئذ خراب ، وكان فى موضع قصرها غيضة عليق ملتفة أشبه ، فأرسل الملك بازيا له يكرم عليه على حجلة غنت له من ناحية الكدية المنسوبة بعد الى أبى عبدة ، فتخبت فى ذلك العليق ، ولج البازى فى الانقضاض عليها ، فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه بالحرجة ، فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضنا منه به ، فقطعت ، وبدا له تحتها أساس قصر عظيم راقه رصه ، وقد كان ذا همة ، فأمر بالكشف عنه ، وتقصى حدوده طولا وعرضا ، وتتبع أسه وأصله ، فوجده مبنيا من وجه الماء

بصم الحجارة فوق زرجون وضع بينها وبين المـاء بأحكم صناعة ، فقال : هذا أثر ملك كريم ، وأنـا أولى من جدده ، فأمر باعادته الى هيأته ، واتخذه منزلا من منازل راحاته ، فكـان اذا طاف بعمله أو مضىء فى متصيده نـزل فيه ، وصار السبب فى بناء قرطبة الى جنـبه ، ونزول الناس فيها ، وتوارث الملوك قصرها من بعد ، ونزله لذريق فى زحفه الى العرب أياما ، والحشود من أعماله تتوافى اليه ، ثم مضى نحو كورة شذونة يبغى لقاءهم فى حشوده الكثيرة .

وقيل : ان آخر ملوك الاندلس الذين تلتهم العرب غيطشة ، وانه هلك عن أولاد ثلاثـة صغار لم يصلحوا للملك ، فضبطت أمهم عليهم ملك والـدهم بطليطلة ، وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم ، فصار بقرطبة ، فلما اقتحم طارق الاندلس نفر اليه لذريق واستنفر اليه أجناد أهل الاندلس ، وكتب الى أولاد غيطشة – وقـد ترعرعوا ، وركبوا الخيـل ، واتخذوا الرجال – يدعوهم الى الاجتماع معـه على حرب العرب ، ويحذرهم من القعود عنـه ، ويحضهم على أن يكونوا على عدوهم يدا واحدة ، فلم يجدوا بدا ، وحشدوا ، وقدموا عليه بقرطبة ، فنزلوا أكناف قرية شقندة بعدوة نهرها قبالة القصر ، ولم يطمئنوا الى الدخول على لذريق أخذا بالحزم ، الى أن استتب جهـاز لذريق وخرج ، فانضموا اليه ، ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه . والأصح – والله أعلم – ما سبق أن ملك القوط اجتمع للذريق ، واختلف فى اسمه فقيل : رذريق – بالراء أوله – وقيل : باللام لذريق وهو الأشهر ، وقيل : ان أصله من اصبهان ويسمى الاشبان ، والله أعلـم .

قالوا : وعسكر لذريق فى نحو مـائة ألف ذوي عدد وعدة ، فكتب طـارق الى موسى يستمده ويعرفه أنه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس ، وملك المجاز اليها ، واستولى على أعمالها الى البحيرة ، وأن لذريق زحف اليه بما لا قبل له به ، الا أن يشاء الله ، وكان موسى منذ وجه طارقا لوجهه ، قد أخذ فى عمـل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة ، فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا كملت بهم عدة من معه اثنى عشر ألفا أقوياء على المغانم ، حراصا على اللقاء ومعهم يليان المستأمن اليهم فى رجاله وأهل عمله يدلهم على العورات ، ويتجسس لهم الأخبار ، وأقبل نحوهم لذريق فى جموع العجم ، وملوكها وفرسانها ، فتلاقوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض : ان هذا ابن الخبيثة قـد غلب على سلطـاننا ، وليس من أهله ، وانما كان من أتباعنا ، فلسنا نعدم من سيرته خبالا فى أمرنا ، وهؤلاء القوم الطارقون لا حاجة لهم فى استيطان بلدنا ، وانما مرادهم أن يملأوا أيديهم من الغنائم ، ثم يخرجوا عنا ، فهلم فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينـا القوم لعلهم يكفوننا ايـاه ، فاذا انصرفوا عنـا أقعدنا فى ملكنـا من يستحقه ، فأجمعوا على ذلك ، والقضاء يبرم ما ارتأوه .

وكان لذريق ولى ميمنته أحد ابنى غيطشة ، وميسرته الآخر ، فكانا رأسي الذين أداروا عليه الهزيمة ، وأداهما الى ذلك طمع رجوع ملك والدهما اليهما .

وقيل : لما تقابل الجيشان أجمع أولاد غيطشة على الغدر بلذريق ، وأرسلوا الى طارق يعلمونه أن لذريق كان تابعا وخادما لأبيهم فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وأنهم غير تاركى حقهم لديه ، ويسألونه الأمان على أن يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم ، وأن يسلم اليهم اذا ظفر ضياع والدهم بالاندلس كلها ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، وهى التى سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فأجابهم الى ذلك ، وعاقدهم عليه ، فالتقى الفريقان من الغد ، فانحاز الأولاد الى طارق ، فكان ذلك أقوى أسباب الفتح ، وكان الالتقاء على وادي لكة من كورة شذونة ، فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ، ونصر المسلمين نصرا لا كفاء له ، ورمى لذريق نفسه فى وادي لكة وقد أثقلته السلاح ، فلم يعلم له خبر ولم يوجد .

وقيل : نزل طارق بالمسلمين قريبا من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة ٩٢ ، فوجه لذريق علجا من أصحابه قد عرف نجدته ووثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم ويعاين هيئاتهم ومراكبهم ، فأقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر ، ثم شد فى وجوه من استشرفه من المسلمين ، فوثبوا اليه ، فولى منصرفا راكضا ، وفاتهم بسبق فرسه ، فقال العلج للذريق : أتتك الصور التى كشف لك عنها التابوت ، فخذ على نفسك ، فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت أو اصابة ما تحت قدميك ، قد حرقوا مراكبهم اياسا لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، اذ ليس لهم فى أرضنا مكان مهرب ، فرعب وتضاعف جزعه ، والتقى العسكران بالبحيرة ، واقتتلوا قتالا شديدا ، الى أن أنهزمت ميمنة لذريق وميسرته ، انهزم بهما أبناء غيطشة ، وثبت القلب بعدهما قليلا وفيه لذريق ، فعذر أهله بشىء من قتال ، ثم انهزموا ولذريق أمامهم ، فاستمرت هزيمتهم ، وأذرع المسلمون القتل فيهم ، وخفى أثر لذريق فلا يدرى أمره ، الا أن المسلمين وجدوا فرسه الأشهب الذى فقد وهو راكبه ، وعليه سرج له من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، ووجدوا أحد خفيه وكان من ذهب مكلل بالدر والياقوت ، وقد ساخ الفرس فى طين وحمأة ، وغرق العلج ، فثبت أحد خفيه فى الطين فأخذ ، وخفى الآخر ، وغاب شخص العلج ولم يوجد حيا ولا ميتا ، والله أعلم بشأنه .

وقال الرازى : كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، فاتصلت الحرب بينهم الى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل

ملبسة لتلك الأرض ، قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجل قدره ، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها فى أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس ، فجمع طارق الفىء وخمسه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع ، وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالاندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الاندلس عند ذلك الى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال ، ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شذونة ، فامتنعوا عليه ، فشد الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرهم ، فتهيأ له فتحها عنوة ، فحاز منها غنائم ، ثم مضى منها الى موررور ، ثم عطف الى قرمونة فمر بعينه المنسوبة اليه ، ثم مال على اشبيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل استجة وهم فى قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالا شديدا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم ان الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربا مثلها ، وأقاموا على الامتناع الى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغترا سيىء التدبير ، فخرج الى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقا هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق فى الماء ، فأخذه وجاء به الى العسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية ، وخلى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه ، وقذف الله الرعب فى قلوب الكفرة لما رأوا طارقا يوغل فى البلاد ، وكانوا يحسبونه راغبا فى المغنم عاملا على القفول ، فسقط فى أيديهم ، وتطايروا عن السهول الى المعاقل ، وصعد ذوو القوة منهم الى دار مملكتهم **طليطلة** ، قيل : وكان من ارهاب طارق لنصارى الاندلس وحيله أن تقدم الى أصحابه فى تفصيل لحوم القتلى بحضرة أسراهم وطبخها فى القدور ، يرونهم أنهم يأكلونها ، فجعل من انطلق من الأسرى يحدثون من وراءهم بذلك فتمتلىء منه قلوبهم رعبا ويجفلون فرارا ، قالوا : وقال يليان لطارق : قد فضضت جيوش القوم ورعبوا ، فاصمد لبيضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى مهرة ، ففرق جيوشك معهم فى جهات البلاد ، واعمد أنت الى **طليطلة** حيث معظمهم ، فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجتماع الى أولى رأيهم ، ففرق طارق جيوشه من استجة ، فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد ابن عبد الملك الى قرطبة ، وكانت من أعظم مدائنهم ، فى سبعمائة فارس ، لأن المسلمين ركبوا جميعا خيل العجم ، ولم يبق فيهم راجل ، وفضلت عنهم الخيل ، وبعث جيشا آخر الى مالقة ، وآخر الى غرناطة مدينة البيرة ، وسار هو فى معظم الناس الى كورة جيان يريد **طليطلة** ، وقد قيل : ان الذى سار لقرطبة طارق بنفسه، لا مغيث ، قالوا : فكمنوا بعدوة نهر شقندة فى غيضة أرز شامخة ، وأرسلت

الأدلاء فأمسكوا راعى غنم فسئل عن قرطبة فقـال : رحل عنها عظماء أهلها الى **طليطلة** ، وبقى فيها أميرهـا فى أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفـاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها الا أنه فيه ثغرة ووصفها لهم فلما أجنهم الليـل أقبلوا نحو المدينة ووطـأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويدا حتىعبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقـا بالذى نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر ، وليس بين النهر والسور الا مقدار ثلاثين ذراعا أو أقل ، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقا، ورجعوا الى الراعى فى دلالتهم على الثغور التى ذكرها ، فأراهم اياها ، فاذا بها غير متسهلة التسنم ، الا أنه كانت فى أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها من التعلق بها ، فصعد رجـل من أشداء المسلمين فى أعلاها ، ونزع مغيث عمـامته فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور ، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نفرا منهم ، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة ، فصعد الى البـلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة فبـادر بالفرار عن البلاط فى أصحابه ، وهم زهـاء أربعمائة ، وخرج الى كنيسة بغربى المـدينة ، وتحصن بها ، وكان المـاء يأتيها تحت الارض من عين فى سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وما حولها ؛ وقـال من ذهب الى أن طارقا لم يحضر فتح قرطبة وأن فاتحها مغيث : انه كتب الى طارق بـالفتح ، وأقام على محاصرة العلج بالكنيسة ثلاثة أشهر ، حتى ضاق من ذلك وطال عليه ، فتقدم الى أسود من عبيده اسمه رباح ، وكان ذا بأس ونجدة ، بالكمون فى جنان الى جانب الكنيسة ملتفة الاشجار ، لعله أن يظفر له العلج يقف به على خبر القوم، ففعل ، ودعاه ضعف عقله الى أن صعد فى بعض تلك الاشجار ، وذلك أيام الثمر ، ليجنى ما يأكله ، فبصر به أهل الكنيسة ، وشدوا عليه ، فأخذوه فملكوه ، وهم فى ذلك هائبون له منكرون لخلقه ، اذ لم يكونوا عاينوا أسود قبله ، فاجتمعوا عليه، وكثر لغطهم وتعجبهم من خلقه ، وحسبوا أنه مصبوغ أو مطلى ببعض الاشياء التى تسود ، فجردوه وسط جماعتهم ، وأدنوه الى القنـاة التى منها كان يأتيهم المـاء ، وأخذوا فى غسله وتدليكه بالحبـال الحرش ، حتى أدمـوه وأعتـنوه ، فاستغاثهم ، وأشار الى أن الذى به خلقة من بارئهم ، عز وجل ، ففهموا اشارته ، وكفوا عن غسله ، واشتد فزعهم منه ، ومكث فى اسارهم سبعة أيـام لا يتركون التجمع عليه والنظر اليه الى أن يسر الله له الخلاص ليلا ، ففر وأتى الأمير مغيثا فخبره بشأنه وعرفه بالذى أطلع عليه من موضع المـاء الذي ينتابونه ، ومن أى ناحية يأتيهم ، فأمر أهل المعرفة بطلب تلك القناة فى الجهة التى أشار اليها الأسود

حتى أصابوها ، فقطعوها عن جريتها الى الكنيسة ، وسدوا مناقفذها ، فأيقنوا بالهلاك حينئذ ، فدعاهم مغيث الى الاسلام أو الجزية ، فأبوا عليه ، فأوقد النار عليهم حتى أحرقهم فسميت كنيسة الحرقى ، والنصارى تعظمها لصبر من كان فيها على دينهم من شدة البلاء ؛ غير أن العلج أميرهم رغب بنفسه عن بليتهم عند ايقان الهلاك ، ففر عنهم وحده ، وقد استغفلهم ورام اللحاق **بطليطلة** ، فنمى خبره الى مغيث ، فبادر الركض خلفه وحده ، فلحقه بقرب قرية تطليرة هاربا وحده وتحته فرس أصفر ذريع الخطو ، وحرك مغيث خلفه ، فالتفت العلج ودهش لما رأى مغيثا قد رهقه ، وزاد فى حث فرسه فقصر به ، فسقط عن الفرس واندقت عنقه ، فقعد على ترسه مستأسرا قد هاضته السقطة ، فقبض عليه مغيث ، وسلبه سلاحه ، وحبسه عنده ليقدم به على أمير المؤمنين الوليد ، ولم يؤسر من ملوك الاندلس غيره ، لأن بعضهم استأمن وبعضهم هرب الى جليقية . وفى رواية أن مغيثا استنزل أهل الكنيسة بعد أسره لملكهم ، فضرب أعناقهم جميعا ، فمن أجل ذلك عرفت بكنيسة الأسرى وأن مغيثا جمع يهود قرطبة فضمهم الى مدينتها استنامة اليهم ، دون النصارى ، للعداوة بينهم ، وأنه اختار القصر لنفسه ، والمدينة لأصحابه .

وأما من وجه الى مالقة ففتحوها ، ولجأ علوجها الى جبال هناك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه الى البيرة ، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها عنوة ، وضموا اليهود الى قصبة غرناطة ، وصار ذلك لهم سنة متبعة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضى معظم الناس لغيرها ، واذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح ، ثم صنعوا عند فتح كورة رية التى منها مالقة مثل ذلك .

ومضى الجيش الى تدمير ، وتدمير : اسم العلج صاحبها ، سميت به ، واسم قصبتها أريولة ، ولها شأن فى المنعة ، وكان ملكها علجا داهية ، وقاتلهم مضحيا ، ثم استمرت عليه الهزيمة فى فحصها ، فبلغ السيف فى أهلها مبلغا عظيما أفنى أكثرهم ولجأ العلج الى أريولة فى يسير من أصحابه لا يغنون شيئا ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور فى زي القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قدامهن فى بقية أصحابه يغالط المسلمين فى قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه لكثرة من عاينوه على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل اليه ، ونكر زيه ، فنزل اليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه ، واعتذر اليهم بالابقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها الا العيال والذرية ، فندموا على الذى أعطوه من الأمان ،

واسترجحوه فيما احتــال به ، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفــاء عادتهم ، فسلمت كورة تدمير من معرة المسلمين بتدبير تدمير ، وصارت كلها صلحا ليس فيها عنوة ، وكتبوا الى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم ، ومضى معظمهم الى أميرهم لفتح **طليطلة** .

قال ابن حيان : وانتهى طارق الى **طليطلة** دار مملكة القوط ، فألفاها خالية قد فر أهلها عنها ولجأوا الى مدينة بهــا خلف الجبــل ، فضم اليهود الى **طليطلــة** ، وخلف بها رجــالا من أصحابه ، ومضى خلف من فــر من أهــل **طليطلة** فسلـك الى وادي الحجارة ، ثــم استقبل الجبــل فقطعه من فج سمى بــه بعد ، فبلـغ مدينة المائدة خلف الجبل ، وهى المنسوبة لسليمان بن داود عليهما السلام ، وهى خضراء من زبرجدة حافــاتها منهــا وأرجلها ، وكــان لهــا ثلاثمائــة وخمس وستون رجــلا ، فأحرزها عنده ، ثم مضى الى المدينة التى تحصنوا بهــا خلف الجبل ، فأصاب بهــا حليــا ومالا ، ورجع ولــم يتجاوزها الى **طليطلة** سنة ثــلاث وتسعين . وقيل : انه لم يرجع ، بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى الى مدينة استرقة ، فدوخ الجهة ، وانصرف الى **طليطلة** ، والله أعلم . وقيل : ان طارقا دخل الاندلس بغير أمر مولاه موسى بن نصير ، فالله أعلم . قال بعضهم : وكانت اقامته فى الفتوح وتدويخ البلاد الى أن وصل سيده موسى بن نصير سنة ، وكان ما سيذكر .

وأنشد فى «المشهب» وابن اليسع فى «المعرب» لطارق من قصيدة قالها فى الفتح :

ركبنــا سفينــا بالمجــاز مقيــرا ... عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفــوسا وأمــوالا وأهــلا بجنــة ... اذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسرا
ولسنا نبــالى كيف سالت نفوسنا ... اذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

قال ابن سعيد : وهذه الأبيــات مما يكتب لمراعاة قائلهــا ومكانته ، لا لعــلو طبقتها ، انتهى .

وأما أولاد غيطشة فانهم لمــا صاروا الى طارق بالأمــان ، وكانوا سبب الفتح حسبما تقــدم ، قالوا لطــارق : أنت أمير نفسك أم فوقك أمير ؟ فقــال : بل على رأسى أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم ، فاستأذنوه باللحاق بموسى بن نصير بافريقية ليؤكد سببهم به ، وسألوه الكتــاب اليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهده ، ففعــل ، وساروا نحو موسى فتلقــوه فى انحداره الى الأندلس بــالقرب من بــلاد البربر وعرفــوه بشأنهم ، ووقف عــلى ما خاطبه بــه طارق فى ذمتــهم وسابقتهم ، فأنفذهم الى أمير المؤمنين الوليد بالشام بدمشق ، وكتب اليه بما عرفه به طارق من جميل أثرهم ، فلما وصلوا الى الوليد أكرمهم وأنفذ لهم عهد طارق فى

ضياع والدهم ، وعقد لكل واحد منهم سجلا ، وجعل لهم أن لا يقوموا لداخل عليهم ، فقدموا الأندلس ، وحازوا ضياع والدهم أجمع ، واقتسموها على موافقة منهم ، فصار منها لكبيرهم ألمند ألف ضيعة فى غرب الأندلس ، فسكن من أجلها اشبيلية مقتربا منها ، وصار لأرطباش ألف ضيعة ، وهو تلوه فى السن ، وضياعه فى موسطة الاندلس ، فسكن من أجلها قرطبة ، وصار لثالثهم وقلة ألف ضيعة فى شرقى الأندلس وجهة الثغر ، فسكن من أجلها مدينة **طليطلة** ، فكانوا على هذه الحال صدر الدولة العربية ، الى أن هلك ألمند كبيرهم ، وتخلف ابنته سارة المعروفة بالقوطية وابنين صغيرين ، فبسط يده أرطباش على ضياعهم ، وضمها الى ضياعه ، وذلك فى خلافة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، فأنشأت سارة بنت ألمند مركبا باشبيلية حصينا كامل العدة ، وركبت فيه مع أخويها الصغيرين تريد الشام حتى نزلت بعسقلان من ساحلها ثم قصدت باب الخليفة هشام بداره بدمشق ، فأنهت خبرها ، وشكت ظلامتها من عمها واستعدت عليه ، واحتجت بالعهد المنعقد لأبيها وأخويه على الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فأوصلها هشام الى نفسه ، وأعجبه صورتها وحزمها ، وكتب الى حنظلة بن صفوان عامله بافريقية بانصافها من عمها أرطباش وامضائها وأخويها على سنة الميراث فيما كان فى يد والدها مما قاسم فيه أخويه ، فانفذ لها الكتاب بذلك الى عامله بالاندلس أبى الخطار ابن عمه ، فتم لها ذلك ، وأنكحها الخليفة هشام من عيسى بن مزاحم ، فابتنى بها بالشام ، ثم قدم بها الى الاندلس ، وقام لها فى دفاع عمها أرطباش عن ضياعها ، فنال بها نعمة عظيمة ، وولد له منها ولداه ابراهيم واسحاق فأدركا الشرف المؤثل والرياسة باشبيلية ، وشهرا ونسلهما بالنسبة الى أمهما سارة القوطية ، وكانت أيام وفادتها على الخليفة هشام رأت عنده حفيده عبد الرحمن بن معاوية الداخل بعد الى الاندلس ، وعرفها ، فتوسلت بذلك اليه لما ملك الاندلس ووفدت اليه ، فاعترف بذمامها وأكرمها ، وأذن لها فى الدخول الى قصره متى جاءت الى قرطبة فيجدد تكرمتها ولا يحجب عياله منها ، وتوفى زوجها عيسى فى السنة التى ملك فيها عبد الرحمن الاندلس ، فزوجها عبد الرحمن من عمير بن سعد .

وكان لها ولأبيها ألمند وعمها أرطباش فى صدر الدولة العربية بالاندلس أخبار ملوكية : فمنها ما حكاه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة المالكى أنه قصد أرطباش يوما الى منزله عشرة من رؤساء رجال الشاميين فيهم الصميل وابن الطفيل وأبو عبدة وغيرهم ، فأجلسهم على الكراسى ، وبالغ فى تكريمهم ، ودخل على أثرهم ميمون العابد جد بنى حزم ، وكان فى عداد الشاميين ، الا أنه كان شديد الانقباض عنهم لزهده وورعه ، فلما بصر به أرطباش قام اليه دونهم اعظاما ، ورقاه الى كرسيه الذى كان يجلس عليه ، وكان ملبسا صفائح الذهب ،

وجذبه ليجلسه مكانه ، فامتنع عليه ميمون ، وقعد على الأرض ، فقعد أرطباش معه عليها ، وأقبل عليه قبلهم ، فقال له : يا سيدى ، ما الذى جاء بك الى مثلى ؟ فقال له : ما تسمعه ، انا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا كثرنا من العدة ، ثم حدث بعدنا على موالينا وفى أجنادنا ما قد أيسنا معه من الرجوع الى أوطاننا ، وقد وسع الله عليك ، فأحب أن تدفع الى ضياعا من ضياعك أعتمرها بيدى ، وأؤدى اليك الحق منها وآخذ الفضل لى طيبا أتعيش منه ، فقال : لا أرضى لك بالمساهمة ، بل أهب لك هبة مسوغة ، ثم دعا بوكيل له فقال له : سلم اليه المجشر الذى لنا على وادي شوش بما لنا فيه من العبيد والدواب والبقر وغير ذلك ، وادفع اليه الضيعة التى بجيان ، فتسلم ميمون الضيعتين وورثهما ولده ، واليهم نسبت قلعة حزم ، فشكره ميمون وأثنى عليه ، وقام عنه . وقد أنف الصميل من قيامه اليه ، فأقبل على أرطباش وقال له : كنت أظنك أرجح وزنا ، أدخل عليك وأنا سيد العرب بالاندلس فى أصحابى هؤلاء ، وهم سادة الموالى ، فلا تزيدنا من الكرامة على الاقعاد على أعوادك هذه ، ويدخل هذا الصعلوك فتصير من اكرامه الى حيث صرت ؟ فقال له : يا أبا جوشن ، ان أهل دينك يخبروننا أن أدبهم لم يرهفك ولو كان لم تنكر على ما فعلته ، انكم أكرمكم الله انما تكرمون لدنياكم وسلطانكم ، وهذا انما أكرمته لله تعالى ؛ فقد روينا عن المسيح ، عليه السلام ، أنه قال : من أكرمه الله تعالى من عباده بالطاعة له وجبت كرامته على خلقه ، فكأنما ألقمه حجرا . وكان الصميل أميا ، فلذلك عرض به ، فقال له القوم : دعنا من هذا ، وانظر فيما قصدنا له ، فحاجتنا حاجة الرجل الذى قصدك فأكرمته ، فانظر فى شأننا ، فقال له : أنتم ملوك الناس ، وليس يرضيكم الا الكثير ، وها أنا أهب لكم مائة ضيعة تقتسمونها عشرا عشرا ، وكتب لهم بها ، وأمر وكلاءه بتسليمها اليهم ، فكان القوم يرونها من أطيب أملاكهم ، انتهى .

قال ابن حيان وغيره : ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما أتيح له من الفتوح حسده ، وتهيأ للمسير الى الاندلس فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم ، وقيل : انهم كانوا ثمانية عشر ألفا ، وقيل : أكثر ، فكان دخوله الى الاندلس فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين ، وتنكب الجبل الذى حله طارق ، ودخل على الموضع المنسوب اليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك طريق طارق ، ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان : نحن نسلك بك طريقا هو أشرف من طريقه ، وندلك على مدائن هى أعظم خطرا وأعظم خطيا وأوسع غنما من مدائنه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك ان شاء الله تعالى ، فملىء سرورا . وكان شفوف طارق قد غمه ، فساروا به فى جانب ساحل شذونة ، فافتتحها عنوة ، وألقوا

بأيديهم اليه ، ثم سار الى مدينة قرمونة ، وليس بالاندلس أحصن منها ، ولا أبعد على من يرومها بحصار أو قتال ، فدخلها بحيلة توجهت بأصحاب يوليان ، دخلوا اليهم كأنهم فلال وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا لهم الباب ، وأوقعوا بالأحراس ، فملكت المدينة . ومضى موسى الى اشبيلية جارتها فحاصرها ، وهى أعظم مدائن الاندلس شأنا ، وأعجبها بنيانا ، وأكثرها آثارا ، وكانت دار الملك قبل القوطيين ، فلما غلب القوطيون على ملك الاندلس حولوا السلطان الى **طليطلة** ، وبقى رؤساء الدين فيها أعنى اشبيلية ، فامتنعت أشهرا على موسى ، ثم فتحها الله عليه ، فهرب العلوج عنها الى مدينة باجة ، فضم موسى يهودها الى القصبة ، وخلف بها رجالا ، ومضى من اشبيلية الى لفنت الى مدينة ماردة ، وكانت أيضا دار مملكة لبعض ملوك الاندلس فى سالف الدهر ، وهى ذات عز ومنعة ، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضا ، وكان فى أهلها منعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعات ، وآذوهم ، وعمل موسى دبابة دب المسلمين تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر أفضوا بعده الى العمل المدعو بلسان العجم ألاشه ماشه ، فنبت عنه معاولهم وعدتهم ، وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمى ذلك الموضع برج الشهداء ، ثم دعا القوم الى السلم ، فترسل اليه فى تقريره قوم من أمثالهم أعطاهم الأمان واحتال فى توهيمهم فى نفسه ، فدخلوا عليه أول يوم ، فاذا هو أبيض الرأس واللحية كما نصل خضابه ، فلم يتفق لهم معه أمر ، وعاودوه قبل الفطر بيوم ، فاذا به قد قنأ لحيته بالحناء فجاءت كضرام عرفج ، فعجبوا من ذلك ، وعاودوه يوم الفطر ، فاذا هو قد سود لحيته ، فازداد تعجبهم منه ، وكانوا لا يعرفون الخضاب ولا استعماله ، فقالوا لقومهم : انا نقاتل أنبياء يتخلقون كيف شاءوا ، ويتصورون فى كل صورة أحبوا ؛ كان ملكهم شيخا فقد صار شابا ، والرأى أن نقاربه ونعطيه ما يسأله ، فما لنا به طاقة ، فأذعنوا عند ذلك ، وأكملوا صلحهم مع موسى على أن أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين الى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين ، ثم فتحوا له المدينة يوم الفطر سنة أربع وتسعين فملكها . ثم ان عجم اشبيلية انتقضوا على المسلمين ، واجتمعوا من مدينتى باجة ولبلة اليهم ، فأوقعوا بالمسلمين وقتلوا منهم نحو ثمانين رجلا ، وأتى فلهم الأمير موسى وهو بماردة فلما أن فتحها وجه ابنه عبد العزيز بن موسى فى جيش اليهم ففتح اشبيلية وقتل أهلها ، ونهض الى لبلة ففتحها ، واستقامت الأمور فيما هنالك، وعلا الاسلام ، وأقام عبد العزيز باشبيلية ، وتوجه الامير موسى من ماردة فى عقب شوال من العام المؤرخ يريد **طليطلة** ، وبلغ طارقا خبره ، فاستقبله فى وجوه الناس ، فلقيه فى موضع من كورة طلبيرة ؛ وقيل : ان موسى تقدم من ماردة

فدخل جليقية من فج نسب اليه ، فخرقها حتى وافى طارق بن زياد صاحب مقدمته بمدينة استرقة ، فغض منه علانية ، وأظهر ما بنفسه عليه من حقد ، والله أعلم ؛ وقيل : لما وقعت عينه عليه نزل اليه اعظاما له ، فقنعه بالسوط ، ووبخه على استبداده عليه ومخالفته لرأيه . وساروا الى **طليطلة** ، فطالبه موسى باداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك ، واستعجله بالمائدة ، فأتاه بها وقد خلع من أرجلها رجلا وخبأه عنده ، فسأله موسى عنه ، فقال : لا علم لى به ، وهكذا أصبتها ، فأمر موسى فجعل لها رجل من ذهب جاء بعيد الشبه من أرجلها يظهر عليه التعمل ، ولم يقدر على أحسن منه ، فأخل بها .

وقال ابن الفرضي : موسى بن نصير صاحب فتح الاندلس لخمي يكنى أبا عبد الرحمن ، يروى عن تميم الدارى ، وروى عنه يزيد بن مسروق اليحصبى .

وقيل : غزا موسى بن نصير فى المحرم سنة ثلاث وتسعين ، فأتى طنجة ، ثم عبر الى الاندلس ، فأداخها ، لا يأتى على مدينة الا فتحها ونزل أهلها على حكمه ، ثم سار الى قرطبة ، ثم قفل عن الاندلس سنة أربع وتسعين ، فأتى أفريقية ، وسار عنها سنة خمس وتسعين الى الشام يؤم الوليد بن عبد الملك يجر الدنيا بما احتمله من غنائم الاندلس من الأموال والأمتعة يحملها على العجل والظهر ، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبي ، فلم يلبث أن هلك الوليد بن عبد الملك وولى سليمان ، فنكب موسى نكب أداه الى المتربة ، فهلك فى نكبته تلك بوادي القرى سنة سبع وتسعين .

قال ابن حيان : وهذه المائدة المنوه باسمها المنسوبة الى سليمان النبى عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وانما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الحسنة منهم اذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسى وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل اذا أبرزت فى أيام المناسك ، ويضعونها على المذابح فى الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة **بطليطلة** مما صيغ فى هذه السبيل ، وتأنقت الأملاك فى تفخيمها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر مطاره عنها ، وكانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر الأعين مثلها ، وبولغ فى تفخيمها من أجل دار المملكة ، وأنه لا ينبغى أن تكون بموضع آلة جمال أو متاع مباهاة الا دون ما يكون فيها ، وكانت توضع على مذبح كنيسة **طليطلة** ، فأصابها المسلمون هناك ، وطار النبأ الفخم عنها ، وقد كان طارق ظن بموسى أميره مثل الذى فعل من غيرته على ما تهيأ له ومطالبته له بتسليم ما فى يده اليه ، فاستظهر بانتزاع رجل

من أرجل هذه المائدة خبأه عنده ، فكان من فلجه به على موسى عدوه عند الخليفة اذ تنازعا عنده بعد الأثر فى جهادهما ما هو مشهور ، انتهى .

وقال بعض المؤرخين : ان المائدة كانت مصنوعة من الذهب والفضة ، وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت زمرد ، وكلها مكللة بالجواهر ، انتهى .

وما ذكره ابن حيان من أن الذى نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب ، وأما ما حكاه ابن خلكان من أن المنكب له الوليد فليس بصحيح ، والله أعلم .

رجع الى كلام ابن حيان — قالوا : ثم ان موسى اصطلح مع طارق ، واظهر الرضى عنه ، وأقره على مقدمته على رسمه ، وأمره بالتقدم أمامه فى أصحابه ، وسار موسى خلفه فى جيوشه ، فارتقى الى الثغر الأعلى ، وافتتح سرقسطة وأعمالها ، وأوغل فى البلاد ، وطارق أمامه لا يمران بموضع الا فتح عليهما ، وغنمهما الله تعالى ما فيه . وقد ألقى الله الرعب فى قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد الا بطلب الصلح ، وموسى يجيء على أثر طارق فى ذلك كله ، ويكمل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه ، فلما صفا القطر كله وطامن نفوس من أقام على سلمه ، ووطأ لأقدام المسلمين فى الحلول به ، أقام لتمييز ذلك وقتا ، وأمضى المسلمين الى افرنجة فافتحوا وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا ، حتى انتهوا الى وادي رودنة ، فكان أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم . وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد افرنجة فملكت مدينتى برشلونة وأربونة وصخرة أبنيون وحصن لوذون على وادي رودنة ، فبعدوا عن الساحل الذى منه دخلوا جدا ، وذكر أن مسافة ما بين قرطبة وأربونة من بلاد افرنجة ثلاثمائة فرسخ وخمسة وثلاثون فرسخا ، وقيل : ثلاثمائة فرسخ وخمسون فرسخا ، ولما أوغل المسلمون الى أربونة ارتاع لهم قارله ملك الافرنجة بالأرض الكبيرة ، وانزعج لانبساطهم ، فحشد لهم ، وخرج عليهم فى جمع عظيم، فلما انتهى الى حصن لوذون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل حتى انتهى الى صخرة أبنيون ، فلم يجد بها أحدا ، وقد عسكر المسلمون قدامه فيما بين الأجبل المجاورة لمدينة أربونة ، وهم بحال غرة لا عيون لهم ولا طلائع ، فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله ، فاقتطعهم عن اللجا الى مدينة أربونة ، وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالا شديدا استشهد فيه جماعة منهم ، وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ، ولاذوا بحصانتها ، فنازلهم بها أياما أصيب له فيها رجال ، وتعذر عليه المقام ، وخامره ذعر وخوف مدد للمسلمين ، فزال عنهم راحلا الى بلده ، وقد نصب فى وجوه المسلمين حصونا على وادي رودنة شكها بالرجال فصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين ، وذلك بالأرض الكبيرة خلف الاندلس .

وقال الحجارى فى المسهب : ان موسى بن نصير نصره الله نصراً ما عليه مزيد، وأجفلت ملوك النصارى بين يديه ، حتى خرج على باب الاندلس الذى فى الجبل الحاجز بينها وبين الأرض الكبيرة ، فاجتمعت الافرنج الى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سمة لملوكهم ، فقالت له : ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من جهة مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الاندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد بجمعهم القليل ، وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم ، فقال لهم ما معناه : الرأى عندى أن لا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل من يصادره ، وهم فى اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر ، قال : فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب والمضريين واليمانية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الاعداء ، انتهى .

وقيل : ان موسى بن نصير أخرج ابنه عبد الأعلى الى تدمير ففتحها ، والى غرناطة ومالقة وكورة رية ففتح الكل ، وقيل : انه لما حاصر مالقة - وكان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفظ - كان يخرج الى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمة الحصار من غير نصب عين وتقديم طليعة ، وعرف عبد الأعلى بأمره ، فأكمن له فى جنبات الجنة التى كان ينتابها قوما من وجوه فرسانه ذوي رأى وحزم ، أرصدوا له ليلا فظفروا به وملكوه ، فأخذ المسلمون المدينة عنوة ، وملأوا أيديهم غنيمة .

وقيل : كانت نفس موسى بن نصير فى ذلك كله تنزعج الى دخول دار الكفر جليقية ، فبينما هو يعمل فى ذلك ويعد له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد ابن عبد الملك ومولاه يأمره بالخروج عن الأندلس والاضراب عن الوغول فيها ، ويأخذه بالقفول اليه ، فساءه ذلك ، وقطع به عن ارادته ؛ اذ لم يكن فى الاندلس بلد لم تدخله العرب الى وقته ذلك غير جليقية ، فكان ذلك الحرص على اقتحامها ، فلاطف موسى مغيثا رسول الخليفة ، وسأله انظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها والمسير معه فى البلاد أياما ويكون شريكه فى الأجر والغنيمة ، ففعل ، ومشى معه حتى بلغ المفازة ، فافتتح حصن باروا وحصن لك ، فأقام هناك ، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر ، فلم تبقى كنيسة الا هدمت ، ولا ناقوس الا كسر ، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز، وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا

به ونزلوه قاطنين ، فاتسع نطاق الاسلام بأرض الأندلس ، وخذل الشرك ، وبينما موسى كذلك فى اشتداد الظهور وقوة الأمل اذ قدم عليه رسول آخر من الخليفة يكنى أبا نصر أردف به الوليد مغيثا لما استبطأ موسى فى القفول ، وكتب اليه يوبخه ، ويأمره بالخروج ، وألزم رسوله ازعاجه ، فانقلع حينئذ من مدينة لك بجليقية ، وخرج على الفج المعروف بفج موسى ، ووافاه طارق فى الطريق منصرفا من الثغر الأعلى ، فأقفله مع نفسه ومضيا جميعا ومعهما من الناس من اختار القفول ، وأقام من أثر السكنى فى مواضعهم التى كانوا قد اختطوها واستوطنوها ، وقفل معهم الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا باشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على امارة الاندلس ، وأقره بمدينة اشبيلية لاتصالها بالبحر نظرا لقربه من مكان المجاز ، وركب موسى البحر الى المشرق بذى حجة سنة خمس وتسعين وطارق معه ، وكان مقام طارق بالاندلس قبل دخول موسى سنة وبعد دخوله سنتين وأربعة أشهر ، وحمل موسى الغنائم والسبى ، وهو ثلاثون ألف رأس والمائدة منوها بها ومعها من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره ، وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته ، أسيف على ما لحقه من الازعاج ، وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلد افرنجة ، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام مؤملا أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقا مهيعا يسلكه أهل الاندلس فى مسيرهم ومجيئهم من المشرق واليه على البر لا يركبون بحرا ، وقيل : أنه أوغل فى أرض الفرنجة حتى انتهى الى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصاب فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت ، فاذا هى : يا بنى اسماعيل ، انتهيتم فارجعوا ، فهاله ذلك ، وقال : ما كتب هذا الا لمعنى كبير ، فشاور أصحابه فى الاعراض عنه وجوازه الى ما وراءه ، فاختلفوا عليه ، فأخذ برأى جمهورهم ، وانصرف بالناس، وقد أشرفوا على قطع البلاد وتقصى الغاية .

وحكى الرازى : أن موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على افريقية أسن ولده عبد الله بن موسى ، وكان موسى فى عشرة آلاف ، قال : وكان عبد الملك بن مروان هو الذى أغزى موسى المغرب فى خلافته ، ففتح له فى أهله البرابرة فتوح كبار ، حتى لقد بعث الى عبد الملك فى الخمس بعشرين ألف سبية ، ثم أردفها بعشرين ألفا أخرى ، كل ذلك من البربر ، فعجب عبد الملك يومئذ من كثرة ذلك .

وزعم ابن حبيب : أنه دخل الاندلس رجل واحد من أصاغر الصحابة ، وهو المنيذر ، قال : ودخلها من التابعين ثلاثة : موسى الأمير ، وعلى بن رباح اللخمي ، وحيوة بن رجاء التميمي ، وقيل : ان ثالثهم انما هو حنش بن عبد الله الصنعانى ، صنعاء الشام ، وانهم قفلوا عنها بقفول موسى ، وأهل سرقسطة

يزعمون أن حنشا مات عندهم ولم يقفل للمشرق ، وقبره لديهم مشهور يتبركون به ولا يختلفون فيه ، فالله أعلم .

وقيل : ان التابعين أربعة بأبى عبد الرحمن الحبلى الأنصارى ، واسمه عبد الله ابن يزيد ، والله أعلم ، وخمسهم بعضهم بحبان بن أبى جبلة مولى بنى عبد الدار وكـان فى ديوان مصر ، فبعث بـه عمر بن عبد العزيز الى أفريقيـة فى جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها ، وكان روى عن عمرو بن العاص وابن عباس وابن عمر ، وحدث عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره ، وغزا مع موسى حين افتـتح الاندلس ، وانتهى معه الى حصن من حصون العدو يقال له قرقشونة ، وقيل : بل قفل الى افريقية فتوفى بها بعد العشرين ومائة .

وقال بعضهم : ان بين قرقشونة هذه وبين برشلونة مسافـة خمسة وعشرين يوما ، وفيهـا الكنيسة المعظمة عند الفرنج المسماة شنت مرية ، وقـد حكى ابن حيان أن فيها سبع سوار من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها لا يحيط الانسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مفرط .

وحنش الصنعاني المذكور تابعي جليل ، كان مع علي رضى الله عنه بالكوفة ، وقدم مصر بعد قتله ، فصار عداده فى المصريين ، وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فعفا عنه ، وكفى الاندلس شرفاً دخوله لها .

وعلى بن رباح بصري تابعى ، يكنى أبا عبد الله ، وهو لخمي ، ولد عام اليرموك سنة خمس عشرة ، قال ابن معين : أهل مصر يقولونه بفتح العين ، وأهل العراق يقولونه بضمها ، وروى الليث عن ابنه موسى بن على ، وكانت لعلى بن رباح عند عبد العزيز بن مروان مكانة ، وهو الذى زف ابنته أم البنين لزوجها الوليد ، ثم عتب عليه عبد العزيز فأغزاه افريقية .

وأما المنيذر الصحابى فلم ينسبه ابن حبيب ، وذكره ابن عبد البر فى الصحابة وقال : انه المنيذر الافريقى ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبلى ، قـال : حدثنا المنيذر الافريقى ، وكان سكن افريقية ، وكـان صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « من قال : رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، فأنا الزعيم له ، فلآخذن بيده ، فلأدخلنه الجنة » ورواه عنه ابن عبد البر بسنده اليه ، وسيأتى ان شاء الله تعـالى فى حق المنيذر مزيد بيان .

ولما قفل موسى بن نصير الى المشرق وأصحابه سأل مغيثا أن يسلم اليه العلج صاحب قرطبة الذى كان فى اساره ، فامتنع عليه ، وقال : لا يؤديه للخليفة سواي، وكان يدل بولائه من الوليد ، فهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : ان سرت

به حياً معك ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل ، فاضطعتها عليه مغيث ، وصار البأ مع طارق الساعى عليه ، واستخلف موسى على طنجة وما يليها من المغرب ابنه الآخر عبد الملك ، وقد كان - كما مر - استخلف بافريقية أكبر أولاده عبد الله ، فصار جميع الاندلس والمغرب بيد أولاده؛ وابنه عبد الله الذى خلفه بافريقية هو الفاتح لجزيرة ميورقة . وسار موسى فورد الشام ، واختلف الناس : هل كان وروده قبل موت الوليد أو بعده ؟ فمن يقول بالثانى قال : قدم على سليمان حين استخلف ، وكان منحرفا عنه ، فسبق اليه طارق ومغيث بالشكية منه ، ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة ، وقالا له : انه قد غل جوهرا عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلما وافى سليمان وجده ضغينا عليه ، فأغلظ له ، واستقبله بالتأنيب والتوبيخ ، فاعتذر له ببعض العذر ، وسأله عن المائدة ، فأحضرها ، فقال له : زعم طارق أنه الذى أصابها دونك ، قال : لا ، وما رآها قط الا عندى ، فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التى تنقصها ، فسأله ، فقال : هكذا أصبتها ، وعوضتها رجلا صنعتها لها ، فحول طارق يده الى قبائه فأخرج الرجل ، فعلم سليمان صدقه وكذب موسى ، فحقق جميع ما رمى به عنده ، وعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وحبسه ، وأمر بتقصى حسابه ، فأغرمه غرما عظيما كشفه فيه ، حتى اضطره الى أن سأل العرب معونته ، فيقال : ان لخما حملت عنه فى أعطيتها تسعين ألفا ذهبا ، وقيل : حمله سليمان غرم مائتى ألف ، فأدى مائة ألف ، وعجز ، فاستجار بيزيد بن المهلب أثير سليمان ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه اياه ، الا أنه عزل ابنه عبد الله عن افريقية .

وقال الرازى : ان الذى أزعج موسى عن الاندلس أبو نصر رسول الوليد فقبض على عنانه وثناه قافلا ، وقفل معه من أحب المشرق ، وكان أكثر الناس قطنوا ببلاد الاندلس لطيبها ، فأقاموا فيها .

* * *

[نهاية موسى وابنه عبد العزيز]

وذهب جماعة من أهل التاريخ الى أن موسى انما قدم على الوليد ، وأن سليمان ولى العهد لما سمع بقرب موسى بن نصير من دمشق - وكان الوليد مريضا - كتب - أى سليمان - الى موسى يأمره بالتربص ، رجاء أن يموت الوليد قبل قدوم موسى فيقدم موسى على سليمان فى أول خلافته بتلك الغنائم الكثيرة التى ما رئى ولا سمع مثلها ، فيعظم بذلك مقام سليمان عند الناس ، فأبى موسى من ذلك ، ومنعه دينه منه ، وجد فى السير حتى قدم والوليد حي ،

فسلم له الأخماس والمغانم والتحف والذخائر ، فلم يمكث الوليد الا يسيرا بعد قدوم موسى ، وتوفى ، واستخلف سليمان ، فحقد عليه وأهانه ، وأمر باقامته فى الشمس حتى كاد يهلك ، وأغرمه أموالا عظيمة ، ودس الى أهل الاندلس بقتل ابنه الذى استخلفه على الاندلس ، وهو عبد العزيز بن موسى ، وكان تـولى الاندلس بعد قفول أبيه عنها باستخلافه اياه كما سبق ، فضبط سلطانها ، وضم نشرها ، وسد ثغورها ، وافتتح فى ولايته مدائن كثـيرة مما كان قد بقى على أبيــه موسى منها ، وكان من خير الولاة ، الا أن مدته لم تطل لوثوب الجند به وقتلهم ايـاه عقب سنة خمس وتسعين فى خلافة سليمان المـوقع بأبيه موسى لأشياء نقموهـا عليه : منهـا زعموا تزوجه لزوجة لذريق المكنـاة أم عاصم وكانت قد صالحت على نفسها وأموالها وقت الفتح ، وبـاءت بالجزية ، وأقـامت على دينهـا فى ظل نعمتها الى أن نكحها الأمير عبد العزيز ، فحظيت عنده . ويقال : انه سكن بها فى كنيسة باشبيلية ، وانها قالت له : لم لا يسجد لك أهل مملكتك كما كـان يسجد للذريق — زوجها الأول — أهل مملكته ؟ فقال لها : ان هذا حرام فى ديننا ، فلم تقنع منه بذلك ، وفهم لكـثرة شغفه بهـا أن عدم ذلك مما يزرى بقدره عندهـا ، فاتخذ بابا صغيرا قبالة مجلسه يدخل عليه الناس منه ، فينحنون ، وأفهمها أن ذلك الفعل منهم تحية له ، فرضيت بذلك ، فنمى الخبر الى الجند ، مع ما انضم الى ذلك من دسيسة سليمان لهم فى قتله ، فقتلوه ، سامحه الله تعالى .

وذكر بعض المؤرخين أنهم وجدوا فى الحجر بعد ما تقدم من الكتابة التى هى «ارجعوا يا بنى اسماعيل الخ» ما معناه : وان سألتم لم ترجعون فاعلموا أنكم ترجعون ليضرب بعضكم رقاب بعض ، انتهى .

قال ابن حيان : وليحيى بن حكم الشاعر المعروف بالغزال فى فتح الاندلس ، أرجوزة حسنة مطولة ذكر فيها السبب فى غزوها نظمـا ، وتفصيل الوقـائع بين المسلمين وأهلها ، وعداد الأمراء عليها وأسماءهم ، فأجاد وتقصى ، وهى بأيدى الناس موجودة ، انتهى .

وقـد عرفت بمـا سبق تفصيل مـا أجمله ابن خلدون ، والروايـات فى فتح الاندلس مختلفة ، وقد ذكرنا نحن بحسب ما اقتضاه الوقت ما فيه كفاية ، وأشرنا الى بعض الاختلاف فى ذلك ، ولو بسطنا العبارة فى الفتح لكان وحده فى مجلد أو أكـثر .

* * *

ورأيت فى بعض كتب التـاريخ أنه وجد فى **طليطلـة** حين فتحت من الذخـائر والأموال ما لا يحصى ، فمن ذلك مائة وسبعون تاجا من الذهب الأحمر مرصعة

بالدر وأصناف الحجارة الثمينة ، وجد فيها ألف سيف ملوكى ، ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال ، ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف ، ومائدة سليمان ، وكانت – فيما يذكر – من زمردة خضراء ، وزعم بعض العجم أنها لم تكن لسليمان ، وانما أصلها أن العجم أيام ملكهم كان أهل الحسنة فى دينهم اذا مات أحد منهم أوصى بمال للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم مال له قدر صاغوا منه الآلة من الموائد العجيبة ، والكراسى من الذهب والفضة ، تحمل الشماسة والقسوس فوقها الأناجيل فى أيام المناسك ، ويضعونها فى الأعياد للمباهاة ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صنع فى هذا السبيل ، وتأنق الملوك فى تحسينها ، يزيد الآخر منهم فيها على الأول ، حتى برزت على جميع ما اتخذ من تلك الآلات ، وطار الذكر بها كل مطار ، وكانت مصوغة من الذهب الخالص مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد ، وقيل : انها من زبرجدة خضراء حافاتها وأرجلها منها ، وكان لها ثلاثمائة وخمس وستون رجلا ، وكانت توضع فى كنيسة طليطلة ، فأصابها طارق .

٢

أدباء طليطلة وحكامها

ووقائع تاريخية ارتبطت بها

(١) أدبـاء القسم الثالث من نفح الطيب

٢٠ – والأديب أبو عامر البماري .

٢١ – والأديب أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة .

٢٢ – والأديب أبو حاتم الحجارى .

٢٣ – والأديب أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة .

٢٤ – والأديب أبـو جعفر بن السودين البلنسى . ورسالـة ابن غرسية الشعوبية والرد عليه .

٢٥ – والكاتب أبو جعفر بن أحمد الدانى .

٢٦ – والوزير الكاتب أبو الخطاب بن عطبون **الطليطلى** .

٢٧ – والوزير الكاتب أبو عبد الله بن أبى الخصال .

٢٨ – والأديب أبو بحر بن عبد الصمد ، وذكر الشيخ الكاتب عبد الصمد السرقسطى .

٢٩ – والأديب أبو تمام الملقب بالحجام .

٣٠ – والأديب أبو اسحاق بن معلى ، وخبر وقعة بطرنة .

٣١ – والأديب أبو عامر بن الأصيلى .

٣٢ – والأديب أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف .

٣٣ – وفصل يشتمل على طوائف مقلين من سكان ذلك الجانب الشرقى .

والقسم الرابع : أفردته لمـن طرأ على هذه الجزيرة فى المدة المؤرخة من أديب شاعر ، وأوى الى ظلها من كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله . وحفظت فى ملوكها أقواله ، ووصلت بهم ذكر طـائفة من مشهورى أهـل تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصرنا بافريقية والشام والعراق . فيشتمل منهم على جملة ، وهم :

١ – أبو العلاء صاعد اللغوى ، وتلخيص التعريف بدولة ابن أبى عامر ، من المبدأ الى الآخر .

٢ – وأبو الفضل بن عبد الواحد البغدادى .

٣ – وسليمان بن محمد الصقلى .

٤ – وأبو الفتوح الجرجانى .

٥ — والأديب عبد العزيز السوسى ، ولمع من دولة ابن دي النون ومآل حفيده ، وأخذ طليطلة من يديه ، ودوران دائرة السوء بها عليه ، مع ما اندرج فى ذلك من خبر ، والتف به من قبيح أثر .
٦ — وأخبار أبى عبد الله بن شرف ، وغرر أشعاره ، وذكر خراب بلده القيروان .
٧ — وأخبار ابن السقاء مدبر الملك الجهورى بقرطبة ومقتله .
٨ — وأبو الحسن المكفوف الحصرى . وذكر تغلب ابن هود المقتدر على دانية .
٩ — وأخبار عبد الكريم بن فضال الحلوانى .
١٠ — وأبو العرب الصقلى .
١١ — وأبو عبد الله بن الصباغ الصقلى .
١٢ — وأبو محمد بن حمديس الصقلي .

● قال ابن حيان : واسماعيل بن عباد قاضيهم القديم الولاية ، ورجل الغرب قاطبة ، المتصل الرئاسة فى الجماعة والفتنة ، وكان أيسر مكور بالأندلس وقته ، ينفق من ماله وغلاته ، لم يجمع درهما قط من مال السلطان ولا خدمه ، وكان واسع اليد بالمشاركة ، آوى صنوف الجالية من قرطبة عند احتدام الفتنة ، وكان معلوما بوفور العقل وسبوغ العلم والركانة ، مع الدهاء وبعد النظر واصابة القرطسة .

فأما ذو الوزارتين أبو القاسم ابنه فأدرك متمهلا ، وسما بعد الى بلوغ الغاية فخلط ما شاء وركب الجراثم الصعبة ، وكان القاسم بن حمود قد اصطنعه بعد مهلك أبيه اسماعيل ، ورد عليه ميراثه من قضاء بلده بعد بعده عنه مدة ، وحصل منه بمنزلة الثقة ، فخانه تخون ، الأيام عند ادبارها عنه ، ايثارا للحزم وطلبا للعافية ، فصده عن اشبيلية بلده لما قصده من قرطبة مفلولا ؛ وكان الذى وطد له ذلك نفر من أكابرها المرتسمين بالوزارة ، مناغين فى ذلك لوزراء قرطبة ، على تحميلهم لابن عباد كبر ذلك ، لانافته عليهم فى الحال وسعة النعمة ، واحصائهم عليه ملك ثلث اشبيلية ضيعة وغلة ، يخادعونه بذلك عن نشبه ، ابقاء منهم على نعمهم به وهو يشترى بذلك أنفسهم ولا يشعرون ، الى أن وقعوا فى الهوة، وكانوا جماعة منهم بنو أبى بكر الزبيدى النحوى وبنو يريم صنائع ابن عباد وغيرهم ، راض بهم الأمور واستمال العامة ، فلما توطأت له قبض أيدى أصحابه هؤلاء ، وسما بنفسه فأسقط جماعتهم ، وجرت له فى تدبيرهم أمور يشق احصاؤها ، ركب فيها أحزم طرق طلاب الدول ، حتى انفرد بسابقته ومهد لدولته، واجتمع أهل عمله على طاعته ، فدانوا له ، وسلك سيرة أصحاب الممالك بالاندلس

لأول وقته ، وقام بأصح عزم وأيقظ جد ، واخترع فى الرياسة وجوها تقدم فيها كثيرا منهم ، وامتثل رسم ابن يعيش صاحب **طليطلة** من بينهم فى تمسكه بخطة القضاء وارتسامه باسمه ، وأفعاله على ذلك أفعال الجبابرة ، وأقبل لأول وقته يضم الرجال الأحرار من كل صنف ، ويشترى العبيد ، والجد يساعده والأمور تنقاد له ، الى أن ساوى ملوك الطوائف وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه ، وكثرة غلمانه ، فنفع الله به كافة رعيته ونجاهم من ملك البرابرة ؛ وتدرج فى تدبير ذلك أولا أولا ، ومارسه شأنا شأنا ، الى أن استولى على أمده ، ومهد قواعد سلطانه ، وشد أواخيه . وأخباره مأثورة مشهورة .

المعتمد بن عباد واذفونش فى رسائل سلطانية كتبها عن المعتمد أبو بكر الدانى

● له من رقعة وردت على الجناح بهزيمة الطاغية اذفونش ، قصمه الله ، يوم الجمعة المشهور ، الذى أباد الله فيه عبدة الطواغيت على يدى أمير المسلمين وناصر الدين ، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، قال فيها :

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين ، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يدى مسعانا الفتح المبين ، بما يسر الله فى أمسه وسناه ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أذفونش بن فرذلند ، أصلاه الله – ان كان طاح – الجحيم ، ولا أعدمه – ان كان أمهل – العيش الذميم ، كما قنعه الخزي العظيم ، واتيان القتل على أكابر رجاله وحماته ، وأخذ النهب فى سائر اليوم والليلة المتصلة به الى جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدى من رؤوسهم ، ولم يحتز منها الا ما قرب ، وامتلاء الأيدى مما قبض ونهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد فى آثارهم ، وتمادى الطلب من وراء فرارهم ؛ والذى لا مرية فيه أن الناجى منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ، ولم يصبنى بحمد الله الا جرح أشوى ، وعنت رغب حسن المآل عندى وزكى ، فلا يشتغل لك بذلك بال ، ولا تتوهم فيه غير ما أشرت اليه ، والحمد لله على ما صنع حق حمده ، وهو أهل المزيد الذى لا يرجى الا من عنده .

قال ابن بسام : وشهر رجب الذى ذكره كان سنة تسع وسبعين .

ثم ورد بعد كتاب من انشائه يشرح جمل هذا الفتح وتفصيله ، قال فى بعض فصوله : وقد علم ما كنا قبل مع عدو الله اذفونش بن فرذلند ، قصمه الله ، من تطأطؤنا واستعلائه ، وتقامئنا وانتخائه ، وأنا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاء ، ولا لمدة الامتحان به فناء ، الى أن سنى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين ، أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ، معقلى الأحمى – أيده

الله – ما سنى ، وأدنى من نأي دياره وشحط مزاره ما أدنى ، فلم أزل أصل بينى وبينه الأسباب ، وأستفتح الى ما كنت أتخيل من نصره الأبواب ، الى أن ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجت السبل القصية له ؛ ثم أجاز – على بركة الله وعونه – يريش ويبري ، وصار بعد قدما يخلق ويفري ، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقرى ، وأنا أنجده بوسعى ، وأسعده على حسب ما يطيقه ذرعى ، الى أن صرنا معشر الحلفاء ببطليوس – حرسها الله – واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قورية – حرسها الله – وسمع العدو – لعنه الله – بذلك ، فصمد من محتشده اليها فى جيوش تملأ الفضاء ، وتسد الهواء ، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قرونهم الى أقدامهم ، واتخذوا من السلاح ما يزيد فى جرأتهم واقدامهم ، ولما أشرف على جنابها ، ولسنا بها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتجه لنا بعد ما أردنا من المامها ، دعاه تعاظمه الى مواجهة سبيلنا ، وحمله نفجه وتهوره على السلوك فى مدرج سيولنا .

وفى فصل منها : فدنونا اليه بمحلاتنا – نصرها الله – ثم اضطربناها بازائه ، وأطللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائه ، ورأى – لعنه الله – ما اعتمدناه من اصغاره واخزائه ، فأجمع مضطرا على اللقاء ، وقدم بعض أخبيته دهشا فى الرقعة التى كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء ، وقد تيقن أنه ان أخذ المسلمون مصافهم ، ورتبوا فى مواقعهم كوافهم ، اصطلم عن آخره جمعه ، واجتث أصله وفرعه ، فاهتبل فيما قدر غرة ، وحمل ولم يكن – بحمد الله – ما استشعره مرة ، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور ، وأقبلوا عليه وعلى من معه فى حال مؤذنة بالظهور والوفور ، فتواقف قليلا الجمعان ، وتجاول مليا الفريقان ، وللسيوف حكمها ، ومن الحتوف حدها المفهوم ورسمها ، ثم صدق أمير المسلمين وناصر الدين – أيده الله – الحملة ، وصدم فى جمع لم يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث أعداء الله أن ولوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسلمين – نصرهم الله – بقية اليوم والليلة ، تقتلهم فى كل غور ونجد ، وتقتضى أرواحهم على حالين من كالىء ونقد ، ولم يخلص منهم على أيدى المتبعين – آجرهم الله – الا من سيلتهمه البعد ، ويأتى على حشاشته الجهد ، وأما محلتهم فانتهبت فى أول وهلة ، وشربت بأسرها فى نهلة .

وفى فصل منها :

ولم يصب بحمد الله من المسلمين – وفرهم الله – على هول المقام ، وشدة الاقتحام ، كثير ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة الا عدد يسير ، فان كان اذفونش – لعنه الله – لم يمت تحت السيوف بددا . فسيموت لا محالة أسفا وكمدا ، ونحمد الله على ما يسره من هذا الفتح الجليل وسناه ، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاه .

قول أبى بكر فيما كتب به عن المعتمد يومئذ : «ولـم يصبنى الا جرح أشوى» تواتر النبأ أنه جرحت يده فى ضنك ذلك المأزق .

وقيل فى يوم الجمعة أشعار سارت بالمغارب والمشارق .

أخبرنى أبو بكر الخولانى المنجم قال : كتب الى أبو عبد الله بن عبادة من المرية بقصيدته فى صفة يوم الجمعة ، فارتفعت الى المعتمد على يدى ، وهى التى يقول فيهـا :

وقـالوا كفـه جرحت فقلنـا ... أعـاديه تـواقعهـا الجـراح
وما أثـر الجراحة مـا رأيتم ... فترهبهـا المنـاصل والـرمـاح
ولكن فـاض سيل البأس منها ... ففيهـا من مجـاريه انسيـاح
وقد صحت وسحت بالأمـانى ... وفـاض الجود منها والسماح
رأى منـه أبـو يعقوب فيهـا ... عقـابا لا يهاض لهـا جنـاح
فقـال له لـك القـدح المعلى ... اذا ضربت بمشهـدك القـداح

وفى ذلك اليوم يقـول عبد الجليل ، ويمـدح أمير المسلمين ونـاصر الدين ، رحمه الله تعـالى .

فثـأر الى الطعان حليف صدق ... تثـور بـه الحفيظة والذمـام
نمـى فى حـمير ونمتـك لخـم ... وتلـك وشائج فيهـا التحـام
فيـوسف يوسف اذ أنت منـه ... كيـامن ، لا وهى لكما نظـام
نهجت لسيلـه نهجـا فـوافى ... وفـى آذيـه الطـامـى عـرام
فهيـل به كثـيب الكفر هيـلا ... وكـل رفـيـغـة منـه ركـام
وصاروا فوق‌ظهر الأرض أرضا ... كـأن وهـادهـا منهم اكـام
عـديـد لا يشـارفـه حساب ... ولا يحـوى جمـاعتـه زمـام
تـألفت الوحوش عليـه شتى ... فما نقص الشراب ولا الطعام
فـان ينـج اللعين فـلا كحـر ... ولـكن مثلمـا ينجـو اللئـام

وكان اذفونش قد اضطره الخور يومئذ للفرار ، فتسنم قنن الجبال الشاهقة والأوعار ، الى أن جنه ثوب الظلام ، فنجا منجى الحارث بن هشام . برأس طمرة ولجام ، ودخل **طليطلـة** – أعادها الله – مع شرذمة من أتباعه قليلة ، وبقية من طائفة له مخذولة مغلولة ، فوصف ذلك كله عبد الجليل فى هذه القصيدة ، فقال :

فـأين العجب يـا أذفونش هلا ... تجنـبت المشيخـة يـا غـلام
ستسألـك النساء ولا رجـال ... فتخبر مـا وراءك يـا عصام

وهذا لفظ أبى فراس فى سيف الدولة ، وننشد ما قبله لاتصال المعنى به :

سلى عنى سراة بنى كلاب ببالس عند مشتجر العوالى
لقيناهم بأسياف قصار كفين مؤونة الأسل الطوال
تدور به نساء بنى قريظ وتسأله النساء عن الرجال

وفى هذه القصيدة يقول كأنه يخاطب أذفونش :

أقمت لدى الوغى سوقا فخذها مناجزة ، وهون ما تسام
فان شئت ، اللجين فثم سام وان شئت النضار فثم حام
رأيت الضرب تصليبا فصلب فأنت على صليبك لا تلام
أنام رجالك الأشقون ؟ كلا وهل يحلو بلا رأس منام
رفعنا هامهم فى كل جذع كما ارتفعت على الأيك الحمام
سيعبد بعدها الظلماء لما أتيح له بجانبها اكتتام
ولا ينفك كالخفاش يغضى اذا ما لم يباشره الظلام
نضا أدراعه واجتاب ليلا يود لو ان طول الليل عام
وليس أوان للأيم انسلاخ ولكن فى ضمائره احتدام

وقوله : « سيعبد بعدها الظلماء » ... البيت ، كقول المتنبي :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب

وكقول أبى تمام :

جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا
بدين النصارى أن قبلته الغرب

وقوله : « يود لو أن طول الليل عام » ؛ من قول المعري ، وقصر عنه :
يود أن ظلام الليل دام له ... البيت ، ونقله التهامى نقلا مليحا فقال :

وتود لو جعلت سواد قلوبها وسواد عينيها سواد عذار

وكانت طوائف الروم ، مدة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب داؤهم بكل اقليم ، فلاطفوهم بالاحتيال ، واستنزلوهم بالأموال ، فلم يزل دأبهم الاذعان والانقياد ، ودأب النصارى التسلط والعناد ، حتى استصفوا الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ ، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة ، الى ما يتبعها من هديات ونفقات ، وشعر العصر ، شاهد بالأمر ، كقول حسان بن المصيصى يمدح المعتمد ويهون عليه تلك الاتاوات ، من جملة أبيات :

ولم تطو دون المسلمين ذخيرة تهين كرام المنفسات لتكرما
تحيل فى فك الأسارى وانما تعاقد كفارا لتطلق مسلما

وما كنت ممن شح بالمال والقنا فتكنز دينارا وتركز لهذما
فترسله للصفر أصفر عسجدا وان خالفوا أرسلت أبيض مخذما

وفى ذلك يقول أبو بكر الدانى من جملة قصيدة :

فى نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع
تنيلهم نعما فى طيها نقم سيستضر بها من كان ينتفع
وقل ما تسلم الأجسام من عرض اذا توالى عليها الري والشبع
لا يخبط الناس عشوا عند مشكلة فأنت أدرى بما تأتى وما تدع

وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، وملق معتف سائل ، وخديعة طالب نائل ، وهيهات ! ! بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم «حين أيقن النصارى بضعف المنن ، وقويت أطماعهم بافتتاح المدن ، واضطرمت فى كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم فانما هو بأيديهم سبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، حتى دنوا مما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب» . وحصلت مدينة قورية وسرتة أولا فى يد العدو ، الى عدة حصون وقلاع ، كلها فى غاية من الحصانة والامتناع ، ثم لم يزل التخاذل يتزايد ، والتدابر يتساند ، حتى حلت الفاقرة ، وقضيت القضية ، وتعجلت البلية ، بحصول مدينة طليطلة فى أيدى النصارى ، وذلك فى سنة ثمان وسبعين ، وهى من الجزيرة كنقطة الدائرة ، وواسطة القلادة ، تدركها من جميع نواحيها ، ويستوى فى الاضرار بها قاصيها ودانيها . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

حثوا مطاياكم عن أرض أندلس فما المقام بها الا من الغلط
فالثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ولعمرى لو قضى بالسماع على العيان ، واستغنى بالاقناع عن البرهان ، واطمأن قلبه الى التمويه ، وقد رآه محضا لا شك فيه ؛ لكان كلام الدانى أبى بكر ، فى ذلك المعنى المتقدم الذكر ، برتبة ذلك أليق ، وفى حلبته أجمح وأسبق ، حتى لو سمعه الحارث بن هشام ، لعلم أنه قد ترك فى حمد المذموم ، ومعارضة الصحيح بالسقيم ، طلقا شاسعا ، ومجالا واسعا .

وأول من حسن الفرار ، فما وقع ولا طار ، الملك الضليل حيث يقول :

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت مرابطها من بربعيص وميسرا

ثم تتابع الشعراء فى خدع العقول ، بالتمويه المستحيل ، فمن محسن برز ، ومن مقصر عجز ، ومن أحسن ما ورد فى ذلك قول حسان :

نوليها الملامة ان ألمنا اذا ما كان مغث أو لحاء
ونشربها فتتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

الأبيات ، حتى قال الحارث بن هشام قطعته فى حسن الفرار ، التى صارت نهاية فى العجب ، وشهادة فى تحسين نتائج الهرب ، وهى قوله :

الله يعلم مـا تـركت قتـالهم　　حتى علوا فرسي بأشقر مزبد
ونشيت ريح الموت من تلقائهم　　فى مـأزق والخيل لـم تتبـدد
وعلمت أني ان أقـاتل واحدا　　أقتل ، ولا يضرر عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبـة فيهـم　　طمعـا لهم بعقاب يـوم سرمد

وسمعها بعض العجم فقـال : قاتلكم الله معشر العرب ، حسنتم كـل شىء حتى الفرار .

ومن أسحر ما ورد فى ذلك للألباب ، وأخدعه عن الصواب ، قول ابن الرومى فى سوداء ، وقد تقدم فى ما مر من الكتاب :

أكسبهـا الحب أنهـا صبـغت　　صبغة حب القـلوب والحدق

الى ما لا يحصى عدده ، ولا يستقصى أمده .

ذكر الخبر عما دار به نجم قرطبة يومئذ ، من تغلب ابن ذي النون عليها وعودة المعتمد بعد اليها

● قال ابن بسام : قـد قدمت من عجب المعتمد بـذاته ، وتوفره – كان – على لذاته ، وتقديره أنه يضبط أزمة البـلاد ، ويملك رقاب العبـاد ، وخيله فى الأجلال ، وكأسه فى يد الساقى المختال ، على مكانه من العلم ، ووفور حظه من الحلم ، ما فيه كفاية لمن استغنى ، وآية لمن تدبر واجتلى . وعندما اخرج قرطبة من أيدى بنى جهور ، فى خبر قد شرح فى القسم الأول وفسر ، ولاها ابنه عبادا ، وكان محش حرب ، ونشأة طعن وضرب ، فتى لا يبالى من لقى ، ولا الى أى شىء دعي ، هاجم ابن ذي النون فى بعض نهداته الى قرطبة ، وجيشه قد ملأ الفضاء ، وفات الاحصاء ، ففل أجناده ، واستباح طارفه وتلاده ، ونجـا ابن ذي النون منجى أبـي نصر ، بعد مـا أعطى على القسر ، وتـرجح بين القتـل والأسر ، لا يحفل بما أخر ، ولا يلوي على من تعذر .

غير أن المعتمد لما تهيأت له على ابن ذي النون الجسرة ، وأمكنـته منه تلك الغرة ، أدار أمر قرطبة ، وأميرها ابنه ، على أحد عبيده المتجندين ، محمد بن مرتين ، وكان شهابا لا يصطلى بناره ، وأسدا لا يستقر على زاره ، الا أنه كان من الادلال ببأسه ، والاهمال لنفسه ، والاقبال على كيسه وكأسه ، والغفلة عن

عادة الله فى جنسه ، آية من آيـات الله الذى وكله الى سوء القـدر ، وقتله بيد أضعف البشر ، أحد الرجالة المتلصصين ، والـدائرة المتمردين ، المتصرفين فى صغار المهن ، النابتين فى مدارج سيول الفتن ، رجل كان يعرف بابن عكاشة ، لم تكن له سابقة قديمة ، ولا نبـاهة معلومة ، فراشة طارت حول نـار الفتنة المبيرة ، المهتكة لمحارم هذه الجزيرة ، فترقى من سكنى الشعاب ، والسكون الى الذئاب ، وانتهاز الفرصة ان أمكنته فى الطارق المنتاب ، الى تسنم المعاقل ، وتدبير الأمور الجـلائل ، وأذكـاه ابن ذي النون عينا على قرطبـة ، فى أحد الحصون المصـاقبة لها ، وأبعد آماله كانت اخافة سبلها ، وتحيف عملها ؛ وكـان احدى الأعاجيب ذكاء لب ، وصرامة قلب ، وتقدما الى ضرب ، لا يحل الا ريثما يرحل ، ولا يقول الا بعد ما يفعل ، وابن مرتين فى خلال ذلك خال بشيطانه ، ساع فى شأنه، بين بطالته وطغيانه ، كلما حدث عن ابن عكاشة بغرة اهتبلهـا ، وأشير عليه فى أمره بنصيحة كي يقبلها أعرض عن الصادق الخبـير ، ودفع فى صدر الناصح المشيـر .

حدثنى من أثق بخبره ، ممن كان بعض أبواب قرطبة يومئذ الى نظره ، أن ابن عكـاشة كان يسرى تحت الليـل الى أحد حراسها فيخرج اليه بعض مردتهـا ، فيطعمهم ويسقيهم ، ويدبر كيف يفتح البلد على أيديهم ، ويوليهم الأعمال ويقطعهم النفوس والأموال ، فأخبر بذلك عباد بن المعتمد ، فقـال له : الق ذا الوزارتين الأعلى ابن مرتين ، وكان لا يستبد عليه ، ولا يقطع أمرا الا بين يديه ، فأدى ما كان عنده من ذلك اليه ، فأظهر السرور ، ووعد الجد والتشمير ، وقال له : تقدم الى فلان وفلان ، جماعة كانت بالحضرة من الأعيان ، فليكونوا عندك فى العدد الوافر، والسلاح الظاهر ، فأمرهم عنه فأتمروا ، وتقدم اليهم بالحضور فحضروا :

فى ليلـة من جمادى ذات أندية   لا يبصر الكلب فى ظلمائها الطنبا

وأقاموا منتظرين لأمره حتى بدا النور ، وتكلم العصفور ، وهو مشغول بجر ذيوله ، وعصيان عذوله ، فيئسوا من نصره ، وجعلوا بعد يلحدون فى أمره ، وتم لابن عكاشة تدبيره ، واستوسق له عيره ونفيره ، فانتهك حرمـة قرطبة ، سنة سبع وستين ، فى شرذمة قليلة ، وشباة كليلة ، معلنين بشعـارهم ، متلبثين بين تغريرهم واغترارهم ، لم تكن لهم همة الا دار عباد ، فثار اليهم عندما أحس بهم ولا أهبة الا اقـدامه ، ولا صاحب الا حسامه ، فجادلهم بالسيف صلتـا ، حتى أذاقوه الموت بحتا ، ثم نهدوا الى دار ابن مرتين وهو فى منزل راحته ، غافلا عما نزل بساحته . ذكر أنه كان ساعتئذ يلعب بين يديه بـالكرج ، فعول على الفرار ، واستتر مديدة فى بعض الأقطار ، حتى انقضت أيامه ، وعثر عليه حمامه ، أخرج من قرطبة كـأنه يحمل الى ابن ذي النون ، وقد تقدم الى حملتـه ، فطووا خبره ، ومحوا أثره .

وبات ابن عكـاشة ليلته يطرق دور الأعيان من أهـل قرطبة ، يتودد اليهم ، ويعرض نفسه عليهم ، فمن أجابه قبله ، ومن أبى عليه لم يعرض له ؛ وأصبح قد انضاف اليه من بنى المحن ، وطغام الفتن ، من منع منه ، وحسم الأطماع عنه . ودعا الكافة الى المسجد الجامع فآتوه خفافا وثقـالا ، وبايعوه بطـاء وعجالا ، وانثالت اليه طوائف الأمداد ، وقواد الأجناد ، فـانتظم له الأمر ، واستوسق له المصر ، ولحق ابن ذي النون بعد ذلك وهو يرى أنه قد وطىء صلعة النسر ، وأخذ بمخنق الدهر ، أملا طالمـا عللته به المطامع ، وهزته اليه المضاجع ، ولم يزل فى يوم دخوله قرطبة يعمل الحيلة فى اقصاء ابن عكاشة من دولتـه ، واخراجه عن جملتـه .

بلغنى أنه دخل على ابن ذي النون يوما ، وقد رفـل فى الشارة ، وتقلـد مثنى الوزارة ، فرحب به وأدناه ، وهش اليه وناجاه ، فلمـا خرج تنفس الصعداء ، وأتبعه نظرة شوهاء ، وهينم بكلمة عوراء ، فكـأن بعض الحاضرين أنكر عليه وجعل يطري ابن عكاشة ، ويذكر حسن بلائه ، وينبه على مكانه من الدولة وغنائه، فلما أكثر قال له ابن ذي النون : دع عنك ، من اجترأ على الملوك لم يصلح للملوك.

ثم لـم يلبث ابن ذى النون الا أشهرا لم تتعب كف العـاقد ، ولا أطالت غم الحاسد ، حتى أتى من مأمنه ، أغبط ما كان بسيئه وحسنه ، وسقاه السم الوحي – زعموا – بعض ثقـاته ، فاستقل بجسده تابوته ، وطـار به الى **طليطلة** جنه وعفاريته ، وخلا وجه قرطبة بعد ذلك للمعتمد وعاد اليه ملكها ، وانتظم فى يديه سلكها ، وأخذ بثار ابنه عباد بقتله لابن عكاشة فلم يكن كما قال دريد بن الصمة :

قتلنـا بعبد الله خـير لداتـه ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

وأخذ فى ضبط الحصون ، وما يغنى بـه الحزم من وجوه التحصين ، وأظهر أهل البلد [من] الاغتبـاط بمـآلهم ، والاستبشار بمفاتحة حالهم ، ما يظهر من خرج من ضيق الى سعة ، وانتقل من هرج الى دعة .

وله من أخرى عنه : شر الناس لنفسه من جهل مقدارها ، ولم يتهم اختيارها ، وقفا اذا شرهت وعميت آثارها ، وطار بجنـاح طمعها ، الى ذميم طبعها ، واتبع رائد جشعها ، الى وخيم مرتعها ، وعاد الى الصلح من خلطائه فاستفسده ، والى الصفى فأحقده ، والى المستنيم فـأوحشه وشرده ، ولا سيما فى حـال تحض على استدناء البعداء ، وتبعث على مصادقة الأعداء ، ومع نصبة قد انذرت بمآلها ، وحذرت من بغتة اغتيالها ، بل والله قد نفحت رجومها ، ولفحت سمومها ، وصرح بالبأساء شومها .

وليس يذهب عنـك أنى ، بما أشرت اليـه ودرت حواليه ، الى صاحب **طليطلة** ناظر ، والى قبح ما عاملنى به شاهر ، وذلك أنه منذ زمن يتمرس بجانبي ، ويقوم

فى وجه ما لا يريبه من مذاهبى ؛ فمن ذلك ما نعلمه من خفوفه الى بسطة للقاء فلان -- أخذه الله بما ألبسته من حرمة فجردها ، وأوليته من نعمة فغمطها وجحدها -- وبقائه هنالك يشجعه على غدرى ، ويشيعه من مخالفة أمرى ، وتوثق له أنه اذا انصرم مني ، وانخزل ببعض عملــه عنى ، كان له أن هممت بــه سندا ، ووصل به ان وصلت يدا ، فحينئذ صنع فلان ما صنع ، وحاول أن يطير فوقع ، من تلك الجهة التى كانت انخرطت فى سلك بلدى وعملى ، واطردت فى منابرها الخطبة لى ، حتى انصات فيها فواق بكية حكمه ، وذكر على أعوادها اسمه ، « ولكن قليلا ما بقاء التثاؤب » ووسمه ، الى غير ذلك من قوارص القول والفعل ، ستصل اليك على ألسنة الرسل ، وأنا فى كل ذلك أحتمل الأذى ، وأغضى على القذى ، وأقبض يد الانتصار، طمعا فى الاقتصار والاستبصار ، وذهابا مع عادة الأناة والانظار . وربما ألمحت فى بعض الأحايين بعتــاب ، وتكلمت بكلمات غضاب ، فظن أن ذلك قصارى فى انكــارى ، ومنتهى وسعى واقتدارى ، فزاد الاعتداء والاستهداف ، وعظم الازدراء والاستخفاف ، ولولا نظرى من هذه الجزيرة -- عصمها الله -- الى ما ينظر اليه ، واشفاقى منها على مــا لا يشفق عليه ، لأسكنت أول انبعــاثه ذلك النزوان ، وردعت قبل احتفاله ذلك الاستنان .

وفى فصل منها : ثم ختم تلك الهنات ، وتلا تلك السيئات ، بخبر صاحب فلانة ، كنت أوطأته على علمك رقاب أهلها ، وجعلت اليه القبض والبسط فيها ، ولم أشرك معه أحدا فى معنى ، فخــان بما ائتمن ، وفرط فى ما احتجن ، وخــاف عاقبة ذلك فنغل واضطغن ، وأراد أن يفوز ببطنته وما جمع ، وينجو مما حذر عليه وتوقع ، فأزمع على الانحراف والانزواء ، واستجمع للخلاف والانــتزاء ، وداخل فلانــا يعرض عليه ما ذهب اليه ، ليؤيده على قبوله بما فى يديه ، فنأى عنه بجانب النزيه الكــريم ، وأعرض اعراض الحر الصميم ، فــانصرف الى المذكور وهو لمنــاها مستمطر متوكف ، والى مثلهــا مستوقف مستشرف ، فما دعاه حتى لبــاه ، ولا أومى اليه حتى تهافت عليه ، لا يتهيب حالا ، ولا يتوقع مآلا ، وبلغنى الخبر وكفى به مزعجا ، ولا كمثله مبرما محرجا ، فصبرت حتى أعذرت ، وتأنيت حتى أبليت، ثم اعتزمت على الانتصار، وتقدمت لطلب الثار ، مستخيرا وعد الله لمن بغى عليه ، مقتضيا حكمه العدل فيمن تسبب اليه ، فتقدمت فى معسكر ألفته يــد الاعجال ، وحــالت البديهة بيــنه وبين الاحتفــال ، فــأنخت به على بلــده أيامــا ، قطعت فيها دونه كل الرفاف ، ولم أبق حوله سقفــا على جدار ولا قائمة على ساق ، ثم مررت الى جهة فلانة أجوس خلالها ، وأتقرى بالنهب والاحراق أعمالها ، وأتسنم معاقلها ، وأجعل أعاليهــا أسافلها ، الى أن وقفت بجنابها منــازلا ، وزحفت الى بابها مقــاتلا ، وصاحبها يرى الخوي مــلء عينيه ، ويقلب على خسارة صفقته كفيه ، ولا يعاين الا نارا تضطرم عليها ، وتصطلم حواليها ، فلو أصغينا لسمعنا

قعقعة أضراسه ، واستشعرنا لوجدنا حر أنفاسه ، وكل كمي عنده – وكانوا عددا لفيفا ، وجمعا كثيفا – قد نسخ جبانا ، ومسخ هدانا ، لا يكاد يقبل حتى يدبر ، ولا يبرز حتى ينجحر :

تلقى الحسام على جراءة حده ... مثل الجبان بكف كل جبان

ثم انكفأت ، على غير الطريق التى كنت أنشأت ، عائدا بمثل ما بدأت ، واطئا ما لم أكن قبل وطئت ، فتخيل سبيلى ، فى وجهتى وقفولى ، وتمثل أثرى ، فى وردى وصدرى . وكنت قد وجهت أسطولا بلغ فى ساحل بلده أقصى المبالغ من الافساد والتدمير ، والتغيير والتأثير ، ثم انصرف بحمد الله كما انصرفت على غاية الوفور والظهور .

فى ذكر الأديب أبى بكر يحيى بن بقى واثبات جملة من سرى نظامه ، وحر كلامه

● وأبو بكر فى وقتنا هذا على صغر سنه شهاب فهم ونبل قلما يخلو شعره من بديع ، وأخرجته فتنة **طليطلة** – جبرها الله – الآتي خبرها فى القسم الرابع من هذا المجموع ، ولما يسطع بعد ضوءه ، ولا نشا نوءه ، فاحتل اشبيلية ، فمن ثم شرق وغرب ، وأحزن ذكره فى البلاد وأسهب ، ولذلك نسقته فى دررها ، وأثبته أثناء حجولها وغررها ، وقد أخرجت من شعره ما يشهد بما أجريت من ذكره ، ويبرأ من الاطراء ، ويرى أني ربما قصرت فى الثناء .

جملة من شعره فى أوصاف شتى

استهدى من بعض اخوانه أقلاما ، فبعث اليه منها بثلاث من القصب ، وكتب معها اليه :

خذها اليك أبا بكر العلا قصبا ... كأنما صاغها الصواغ من ورقه
يزهى بها الطرس حسنا ما نثرت بها ... مسك المداد على الكافور من ورقه

فأجابه أبو بكر بأبيات منها قوله :

أرسلت نحوى ثلاثا من قنا سلب ... منآدة تطعن القرطاس فى درقه
فالحظ ينكرها والخط يعرفها ... والرق يخدمها بالرق فى عنقه

فكأن بعض من حضر سماع شعره حسده عليه ، ونسب الانتحال اليه ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأول من جملة أبيات :

وجاهل نسب الدعوى الى كلمى — لما رماه بنبل النبل فى حدقه
فقلت من حنق لما تعرض لى — من ذا الذى أخرج اليربوع من نفقه
ما ذم شعرى وأيم الله لي قسم — الا امرؤ ليست الأشعار من طرقه
الشعر يشهد أنى من كواكبه — بل الصباح الذى يستن فى أفقه

وله من كلمة فى الوزير أبى العلاء :

علقتها من ربرب العفر — لكنها عربية النجر
لا تلتمدها ربما سلبت — منك الفؤاد وأنت لا تدرى
واذهب بشأنك ان مقتلها — سقيت ببابل قهوة السحر
سل بالعيون فتى أصيب بها — مثلى لتعلم صحة الأمر
هن السيوف من الردى طبعت — تبرى القلوب وقلما تبري

ومن المدح :

من جده كعب بن مامة قد — حاز الندى بالطي والنشر
هو آثر النمري صاحبه — بالماء فى دوية القفر
واساه حتى مات من ظمأ — ثم انطوى والجود فى قبر
وأراك يا زهر اقتديت به — فى صبره ونواله الغمر
زهر الكواكب كلها شهدت — أن السيادة فى بنى زهر
ذر حاتما يشجى بكعبكم — وافخر بدعمى على عمرو
وافخر بنفسك لست دونهم — ولئن سكت فخيفة الكبر

وله من أخرى [فيه] :

افخر على الناس ملء الأرض من شمم
العز أقعس والآباء انجاد
هل يستوى الناس قالوا كلنا بشر
فالمندل الرطب والطرفاء أعواد

وهذا يشبه قول أبى الطيب :

فان تفق الأنام وأنت منهم — فان المسك بعض دم الغزال

وقال الحصرى :

أبا بكر آن أصبحت بعض ملوكهم — فان الليالى ليلة القدر

ومنهـا :

يـا زهر زهـر اياد لا كمـا زعمـت ... زهـر النجـوم فمـا للصيد أنـداد
حقـا سلـكت الينـا كـل مـوحشة ... تـيـهـاء سـاكـنـهـا ظـبي وفيـاد
يجيب فيها الصدى من ليس يسألـه ... ويـقتـل الجـوع فيهـا من لـه زاد
ويـنضب المـاء وهو الجـم مـورده ... [...] الرمـل رمـلا وهـو أعقـاد
والمرو فى الحرة الرجلاء قـد حميت ... كـأنـهـن مـن الـعشـاق أكـبـاد
من شر مـا طرق الأقـوام من نـوب ... وخيـر مـا ارتـاده للنجح مرتـاد
يخرجن من جنبـات النقـع طـائرة ... كـأنـهـن سـقـوط وهـى أزنـاد

ومنهـا :

ولوا جميعا بما فى الدهر من حسن ... لا عيب فى القوم الا أنهم بادوا

وهذا كقول أبى تمـام حيث يقول :

وما كان بين الهضب فرق وبينهم ... سوى أنهم زالوا ولم يزل الهضب

ولأبى بكر من قصيدة :

لـم أعلـم الشوق الا من مطـوقـة ... فهمت عنهـا الذى قـالت ولـم تبن
لا مثلهـا وسقـيط الطـل يضربهـا ... فى عـاتقي حلـة من سنـدس اليمن
تذكـرت ساق حـر وهـى تنـدبـه ... بـالأخضرين من الظلمـاء والفـنن
كـأنهن بـأعلى الـدوح اذ سجـعت ... روم تـراطـن بـالألفـاظ من فـدن
والـنجـم مـنـهـزم أولى كتـائبـه ... والصبح يغسل ثوب الليـل من درن
والروض يرشف ريق الطل عن ترف ... ولـيت لى مثـلـه ممـن يعـذبـنـى
دع المـنى ربمـا نيلت بـلا طـلب ... وربمـا وقـع الحـرمـان فى المـهن

ومنها فى وصف طرف :

لـكن عـلى سابـح نهـد مـراكلـه ... مـؤلـل الجيـد والأرسـاغ والأذن
أقـام فـي الحـي أحـوالا وآونـة ... يسقى الخليطين من مـاء ومن لبـن
فجـاء اذ صنعـوه وهـو مضطمـر ... سامي التليـل ممر الخلق كـالشطن
يهوي من الأرض أنـى شاء راكبـه ... ويتـرك الـريح فى الآري والـرسن

قولـه : « والصبح يغسل ما فى الليـل من ردن » . يشبه قـول بعض أهـل العصر :

شهم لـه نظرة فى كـل مشكلة ... يكاد يغسل ما فى الطين من درن

وقلبه من قول المعري :

فان كان يكتبه كاتب — فقد سود الصبح مما كتب

وقال أبو بكر من قصيدة :

أقبلت بالجيش ملموما كتائبه — كأنك البدر تحت العارض الهطل
فى فتية كسيوف الهند أنحلهم — حب الصوارم والخطية الذبل
وتيموا بعيون غير فاترة — من الأسنة لم تهجع مع المقل
ان لا تكن أعينا نجلا فان لها — فى أضلع القوم مثل الأعين النجل

وما أحسن ما أتى بهذا المعنى ، وانما ذهب الى قول أبى الطيب :

أثبت عينك فى حشاي جراحة — فتشابها كلتاهما نجلاء

وقال :

عليهن من وقع السيوف حواجب

ومن قصيدة أبى بكر :

ترى السماء دخانا مثلما خلقت — والأرض قد شرقت بالخيل والابل
تمشى بها الخيل لا جرد مطهمة — مشي الكواعب فى حلي وفى حلل
من كل مضطمر الكشحين حافره — أحق من مبسم الحسناء بالقبل
يا معشر الروم قد شالت نعامتكم — اما من الحين أو من شدة الفشل
لم يكسكم من ثياب الخزي أسبغها — الا اتقاؤكم للصدر بالكفل
يا ويلكم معشرا بل ويل أمكم — فانها ولدت للثكل والهبل

وهذا المعنى كثير ، ومنه قول أبى تمام :

لم تبق مشركة الا وقد علمت — ان لم تنب أنه للسيف ما تلد

وأخذه أبو الطيب فقال :

للسبى ما نكحوا والقتل ما ولدوا — والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وقال محمد بن هانىء :

لو تعلم الروم ما لاقت بطارقها — ما هنئت أم بطريق بمولود

وقال أبو بكر من قصيدة :

من لى به والوغى شهباء من أسل — فى صهوة من أقب البطن منجرد
يردي ويصرع أقواما ، عيونهم — حمر من الروع لا حمر من الرمد
بكل غصن من الخطي منعطف — بطائر من سنان ليس بالغرد

ومنهـا :

الـدهر أخون من أن يستقيـم لكـم   وانمـا جـاد عن كـره ولـم يـكـد
ومـن تصنـع يـرجـع بعـد آونـة   الى الطبـاع رجـوع العير للـوتـد

وهذا المعنى مشهور ومنه قول الآخر :

كل امرىء راجع يومـا لشيمته   وان تـمتـع أخلاقـا الى حين

وقـال آخر :

يا أيهـا المتحلى غيـر شيمتـه   ان التخلق يـأتي دونه الخلق

وقـال آخر :

ومن يتكلف غير ما فى طبـاعه   يدعه ويغلبه على النفس خيمهـا

وقـال الرضي :

لا تبـدين لى التكـلف فى الهوى   فضح التطبـع شيمة المطبـوع

ولكن أبـا بكر استولى على الأمد ، ونفث بالسحر فى العقد ، بقـولـه : « رجوع العير للوتـد » .

وله من قصيدة :

لـم أنس اذ ودعتـه وقـد التقت   منـى هنـالـك بـالبكـا عينـان
يـرنـو بنـرجسـة الى وريـمـا   قـرع الأقـاح بيـاسميـن بنـان

وهذا كقول الآخر ، ولكن أبابكر نقص عنه :

وأسبلت لؤلؤا من نرجس فسقت   وردا وعضت على العناب بالبرد

وقـال من أخرى :

وقـالـوا ألا تبـكى وتلـك مطيهـم   على السهب يحملن الأوانس كالدمى
لئن نفـدت منى الـدموع تغـامزوا   وقالوا : سلا أو لم يكن قبل مغرمـا
فهـلا أقـامـوا كـالبكـاء تنهـدى   اذا مـا بكى القمري قـالوا ترنمـا

وهذا من حجول الكلام وغرره ، وان لا يكن اخترع ، فما أتقن ما اتبع ! !

ومنهـا :

نأوا بصموت الحجل عـاطرة الشذا   مبتلـة الأعطـاف معسولـة اللـمى
ألا نـظـرة مـنهـا فتـنقـع غـلـة   على كبدى ما أشبـه الشوق بالظمـا

وله من قصيدة :

وانى من الورق السواجع بالضحى ولكننى من بينها لم أطوق

وهذا كقول ابن حمديس الصقلى ، وهو أبرع وأجمع وأصنع ، الا أن أبا بكر قبله على ما أراد ، ونقص منه فما أخل به ولا كاد :

جناحي مبلول وجبدي مطوق وروضي مطلول فما لى لا أشدو

وله من قصيدة أيضا :

أتى به الدهر فردا فى فضائله وفى الفرائد ما يربي على الجمل
بياض عرضي تحامى الذم جانبه ليس السواد بأبهى منه فى المقل

والبيت الأول منها كقول بعض أهل عصرنا :

وقد تقتضى هذه المفردات معان تقصر عنها الجمل

وله من قصيدة :

عندى حشاشة نفس فى سبيل ردى ان شئتها اليوم لم أمطل بها لغد
وكيف أقوى على السلوان عنك وقد ربيت حبك حتى شب فى خلدى
خذها وهات ولا تمزج فتفسدها الماء فى النار أصل غير مطرد

وهذا كلام بديع ، ونظم سنيع .

وقال :

جرب ولا تغترر بمحمدة قد يقتل [النور] وهو نفاح

وقال :

ولقد وصفت لعاذلى من حسنه طرفا فود بأنه لم يعذل
وعصيته فيما مضى من عهدنا وأنا الذى أعصيه فى المستقبل

وله من قصيدة :

اذا ما غراب الليل مد جناحه علي وغطاني بريش قوادمي
تقلبت فى طي الجناح لعلنى أرى الصبح يبدو من خلال القوادم
الى الله أشكوها نوى أجنبية لها من أبيها الدهر شيمة ظالم
سلا كل مشتاق برؤية الفه وكان على الشوق ضربة لازم
اذا جاش صدر الارض بي كنت منجدا وان لم يجش بي كنت بين التهائم

أكل بنى الآداب مثلى ضائع ... فأجعل ظلمى أسوة فى المظالم
أم الظلم محمول على لأننى ... طلبت العلا من قبل حل التمائم
لعمر أبيك الخير ما آمل الغنى ... للين لبوس واحتفال مطاعم
ولكنما أملته لصنيعة ... أسر بها نفس الصديق الملائم
ستبكى قوافى الشعر ملء جفونها ... على عربي ضاع بين أعاجم
ولا ذنب لى عند الزمان علمته ... سوى أننى للشعر آخر ناظم
توهمته عمرو بن هند وخلتنى ... شقيا أتاه من وفود البراجم

ومنها :

اليك ترامت بي قلوص كنبعة ... معطفة فى دفها والحيازم
لعوب اذا رقص السراب استفزها ... ببيض الأداحى فى النقا المتراكم
تبارى الصبا فى سيرها فكأنها ... جبان تولى فى غبار الهزائم
وما راعها الا الزمام تظنه ... اذا ما تدلى حية فى المخاطم

وهذا كقول المعرى :

يحاذرن من وقع الأزمة لا اهتدى ... مخبرها أن الازمة أصلال

وهذا كقول بعض أهل العصر :

تخشى الزمام فتثنى جيدها فرقا ... كأنه بين ثنى حية ذكر

ومن قصيدة أبى بكر :

كأنى من البيداء أطوى صحيفة ... قد اختلفت فيها خطوط المناسم
لنفسك أكرمنى ولا لمعاشر ... اذا انتقدوا كانوا زيوف الدراهم
وميزك بي ميز الكمى بسيفه ... وان أدركته مهنة فى الصوارم
أحبك للعليا غصبتك بعضها ... وكل كريم مولع بالأكارم
وان كان منك الود فيئا أخذته ... غلولا وحظى وافر فى المغانم
وان تصطنعنى تصطنع حفيظة ... شديدا على الأعداء صعب الشكائم
له كلمات كالقلائد فى الطلى ... ولكنها فى أوجه كالمياسم
يشق عليها ترك مدحك ضلة ... لمدح أناس فى عداد البهائم
يصولون منى بالمهند ماضيا ... وأمسك منهم بالحبال الرمائم

ومنها فى المدح :

حمدت السرى عند الصباح بماجد ... هو الماء يعطى ريه كل حائم
وحسبك من قاضى الجماعة أنه ... أمان لمذعور ومال لعادم

به ثبت الاسلام فى مستقره — وشل فريق الكفر شل النعائم
اذا مشقت يمناه فى بطن مهرق — تحجب نوار الربى فى الكمائم
ولاحت سطور كالشباب حكين لى — سلاسل أصداغ الخدود النواعم
ومن لى بتقبيل الحروف فانها — ثغور الدمى الا ابيضاض المباسم
أقل أيادى كتبه رد عسكر — وتأليف أشتات وسل سخائم
ورثت العلا من تغلب ابنة وائل — تلادا لها من عهدها المتقادم
وأنى يجاريكم الى المجد حاسد — جهول بأسرار العلا غير عالم
وهذا بجير وهو خير لداته — سوى شسع نعل منكم لم يقاوم
ويا عجبا يعزى الى الجود حاتم — وما هو منه فى اللهى واللهازم
بل المثل المضروب فى الجود للذى — يعود على أبناء كعب وحاتم

وله من أخرى فى الوزير أبي الحسين بن سراج :

تشف وراء فطنته المعانى — شفيف الراح من خلف الزجاج
وما طلب الكلام الحر الا — أتى بين انفراد وازدواج
أقام العلم دهرا ليس يبدو — لها منه سوى نتف خداج
وكان الناس فى ظلمات جهل — فما جليت بغير بنى سراج

وقال من قصيدة :

وبنات أعوج قد برمن بصحبتى — مما قطعن من اليباب المقفر
بيداء كالمحروم فى أحواله — لا ذا أنيل وهذه لم تعمر

أراه كأن له فى هذا بعض المام ، بقول أبي تمام :

واذا تأملت البلاد وجدتها — تثري كما تثري الرجال وتعدم

والى هذا أشار بعض أهل العصر بقوله :

حظ من الدين والدنيا أصبت به — كل يرزا حتى هذه البقع

ولأبى بكر من قصيدة :

من لم يعانق غزالا فى مغازلة — ما بين ممتنع طورا ومنفعل
فما قضى من لبانات الصبا وطرا — ولا تنزه فى روض من الجذل
وعاذلين رأوا أني على خطأ — كما رأيت بأن القوم فى خطل
هل أنكروا غير تهيامى بغانية — سكرى من الدل أو ألحاظها النجل
ما زال يحجبها الغيران مذ نشأت — لو غيرها حجب الغيران لم أبل

فى كلـــة سيـراء تتقـى نظـري ... يا أيها الناس حتى الظلم فى الكلل
من لى به حيث لا نخشى مراقبـة ... ولا نبيت من الـواشى على وجـل
فى ليلـة لا يـلى المريخ مـدتهـا ... ولا نـقيم بهـا الا عـلى زحـل
أما الريـاض فقد أمهرتها قدحـا ... من المـدام نكـاحا ليس فيـه ولى
عقيقـة فى يـدى سالت وأشربهـا ... لو شعشعت بسجايا الدهر لم تسل

وله من أخرى :

كيف صبري على الكؤوس اذا ما ... عثـر الروض فى ذيول النسيم

وهذا من المقلوب ، انما يعثر النسيم فى ذيول الروض ، فان ذهب به أبو بكر مذهب الأخطل فى قوله :

«أو بلـغت سوآتهـم هجر»

وشبهه فـأبو بكر ممن لا يتهم أدبه . ولا يعجم نبعه ولا غربه .

رجـع :

وقـال :

ورنـا نرجس الـربى بعيـون ... وجلا الورد عن محيـا وسيم
وبـدا معصم الخلـيج فخطت ... فوقـه الريح أسطراً من وشوم
سوف تدري الهموم أيـة راح ... أخذت من أرواحنـا والجسوم
بـنت دن رعت ببيـداء نفسى ... فهى تعـدو به كعـدو الظـليم
كـرمت فى حـدائق غرسوهـا ... لـكـرام فسمـيت بـالكـروم
طفت بالأيك فاستهلت دموعى ... لحمـام تبـكى فـراق حمـيم
تتغنى الثقيـل حتى كـأن قـد ... نشر الله معبـدا مـن رمـيـم
عجمـة أعـربت بوجـد دقيق ... وكـلام مـقطـع مـن كلـوم

قال ابن بسام : لو لـم يتجاوز معبد الثقيـل الى سواه ، لكـان لأبى بكر ما ادعـاه ، وقرب منه ما تكـلفه وتعاطاه ، وأسحر منـه وأولى بالحكمة وفصل الخطاب ، أبو العلاء حيث يقول ، يصف الأبل :

كأن المثـانى والمثـالث بالضحى ... تجـاوب فى غيـد رفـعن طـوال
كـأن ثقيـلا أولا تـزدهـى بـه ... ضمائـر قـوم فى الخطوب ثقـال

ولعمرى لو شبه سجع الحمام ، بخفائف الغريض وأهزاج حكم الوادى لكان أحسن عبارة وأفتق اشارة .

وأما قوله : « كلام مقطع من كلوم » فأشفى للقلوب من اعتلال النسيم ، وأحلى على الأكباد من محاورة الطرف السقيم .

وفى هذه القصيدة يقول أبو بكر :

أوضعت بي اليه وجناء حرف — أكلتها السفار أكل القضيم
تترك الريح خلفها وهى حيرى — بين ايضاعها وبين الرسيم
ظلت أطوى القفار منها بلام — طبعتها بالميم بعد الميم
فأتته والمرو قد نال منها — فهى تخطو على وظيف رثيم
وقليلا تمتعت فى الفيافى — بسنام كالعارض المركوم
فأنخنا الى فناء جواد — ماله نهبة لكل عديم
فأكلنا لهاه أكل الضوارى — وشربنا [...] شرب الهيم

أما تشبيههم الخليج بالمعصم ، فطريق لم يبق له ستر محرم الا هتك ، ولا فيه موضع قدم الا سلك ، فمن أشهره منارا ، وأبهره أنوارا ، قول ابن عمار :

روض كأن النهر فيه معصم — صاف أطل على رداء أخضرا

وقوله : « فسميت بالكروم » يشبه لفظه لفظ بيت المعرى ، وبينهما من البعد ، ما بين الدرة والحجر الصلد ، المعرى أثبت فيه قدما ، وأمس رحما ، حيث يقول :

وأنت أبوها ان غدت كرمية — وان سكنت راء فوالدها الكرم

وذكرت بقوله : « بلام ، طبعتها بالميم بعد الميم » ، قول ابن الرومى فى جهة أخرى :

يا أخا النحو والمقدم فيه — لم ترى اللام أدغمت فى الميم

وكتب خلف الأحمر الى بعض المؤدبين :

أتترك فى الحلال مشق صاد — وتأتى فى الحرام مشق ميم

وذكر الثعالبى أنه كان للقاضى علي التنوخى غلام وسيم ، اسمه نسيم ، وكان يؤثره على سائر غلمانه ، ويخصه بتقريبه واستخدامه ، فكتب اليه بعض اخوانه يداعبه :

هل على لامه مدغم — لاضطرار الشعر فى ميم نسيم

فوقع تحته : نعم ولم لا ؟ !

وقال أبو بكر من قصيدة :

واحر قلبى من خليط زائل   صبرى على آثاره سيزول
زمت له قلص يبارين الصبا   ولربما سبق الهبوب ذميل
هم فارقوك وحملوك من الأسى   ما ليس يحمل شامة وطفيل
زرعوا بقلبك حبه ، ونباته   برح الجوى ، لا اذخر وجليل
شيعتهم متوجهين وأدمعي   حذر الفراق سوافح وهمول
ونظرت فى تلك الحدوج وطيها   غزلان وجرة أهيف وكحيل

وقال من أخرى :

لا تحملنى على التسويف فى هبة   فيلتقى فرحى فيها مع الأسف
ليس اعتذارك بالأشغال أقبله   فان شغلك بي أدنى الى الشرف

وهذا كقول الأول :

ولا تعتذر بالشغل يوما فانما   تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

وقال أبو حاتم الحجاري :

انى لأعلم أن شغلك بالعلا   والمجد فاجعلنى من الأشغال

وقال أبو بكر من قصيدة :

عليك أبا عبد الاله خلعتها   لها البدر طوق والنجوم دلائل
وما هى الا الدهر فى طول عمرها   وان لم يكن فيها الضحى والأصائل

قال ابن بسام : ويا لهذا البيت ما أحسن مذهبه ، وأبدع منتواه ومنقلبه ، الا أنه أتى بالدهر مسلوب الضحى والأصائل ، فلم يزد على أن جلاه فى زي عاطل ، لا بل أبرزه فى مسوح شوهاء ثاكل ، وليت شعرى أى شىء أبقى للدهر المظلوم ، بعد ضحاه الناصعة الأديم ، وأصاله المعتلة النسيم ؟ هل بقى الا ليله الأسود الجلباب وهجيره السائل اللعاب ؟ ! ولو قال لمدوحه : « وتلك العلا فيها الضحى والأصائل » لأبرز قصيدته رفافة البرود ، شفافة العقود ، ولأفاد ممدوحه بهذه الكلمة مدحا لا يسعه المقال ، ولا تفى به القصائد الطوال .

وله من أخرى :

وما أكثر الأقوام الا ثعالب   تروغ ولا يحلى لديها بطائل
يردون ذهنى حائرا فى طباعهم   كأنهم من مشكلات المسائل
وأصغى الى أقوالهم فتريبنى   صدور لهم أقوين مثل المنازل

وقــال :

خذهــا على وجه الربيع المخصب لم يقض حق الروض من لم يشرب
همــمى سماء عــلا وهمى مــارد فــارجمه من تلك الكؤوس بكوكب
والله مــا أدرى وانــى واقــف للــراح بـيـن تـحيـر وتـعجب
أفضضت دنا أم فككت الخدر عن بكـر تجول مع المـنى فى ملـعب
أخت الزمــان تكسبت من خلقــه جهـل المراهق واحتنـاك الأشيب

وله من أخرى :

مسومة تحكى سنابكهـا الصفـا وتنقض منهـا بالضراغم عقبـان
نمتهـا الى حــر كـريم صفاتهـا فلـلـنبـع أضـلاع ولـلآس آذان

ومنهــا :

دخلت عليهــا خيمــة شرفــاتها وأعمدهــا بيض رقــاق وخرصان
فقالت : ألص قلت : بل ذو صرامة تشب عــلى أحشائه منـك نيـران
اليك شققت الليـل كالسيل يرتمى وفيك أسغت الهول والهول خطبان
فقالت: أقم عندى لك الوصل كاملا عــلى أن حظ العين منى حرمــان

ومن قولــه :

عــاطيتــه والليـل يسحب ذيلــه صهبــاء كــالمسك الذكى لنــاشق
حتى اذا مالت بــه سنة الكــرى باعدتــه شيئا ، وكــان معــانقى
زحــزحتــه عن أضلــع تشتــاقه كــى لا ينـام عـلى وساد خــافق

قال ابن حيان : ومن النادر الغريب انتماؤه فى تجيب ، وبهذه النسبة مدحته الشعراء الى آخر وقته ، منهم ابن شرف القيروانى حيث يقول :

يــا ملكــا أمست تجـيب بــه تحسد قحطــان عليـه نــزار
لــولاك لــم تشرف معــد بهــا جـل أبـو ذر فجلـت غـفـار

انتهى كلام ابن حيــان .

قال ابن بسام : وأول قصيدة ابن شرف هذه فى المظفر قوله :

زار وقــد شمر فضــل الازار جنـح ظـلام جـانح للفـرار
وروضــة الأنجم قــد صوحت والفجر قد فجر نهـر النهـار
قلت لــه : أهــلا بطـيف دنــا من نازح الدار بعيـد المـزار
كيف خطوت الشر ثــم الشرى وابنى هلال والقنا والشفـار

أصهوة الغبراء أم داحسا ركبت حتى خضت ذاك الغمار
وجئت بالخطار أم أعوج جنيبة معتدة للخطار
وهل تقلدت لدفع الردى حمائل الصمصام أم ذي الفقار
وأنت زيد الخيل أم عامر ومالك بن الريب أم ذو الخمار
فقال لا هذا ولا ذا ولا بل كنت عنهم قمرا فى سرار

ومنها :

سيرى فلم نقذفك فى مجهل ولا ضربنا بك ضرب القمار
حيث علوق العلم مطلوبة يوافق السوق كرام التجار
خذها أبا بكر غريبية سرى بها الود اليكم وطار
ليست من الشعر القصير الخطى ولا من المسروق والمستعار
قدمتها قبل قدومى كما قدمت الحجاج رمى الجمار

ومنها :

أقمت للعلم منارا وما أظن فى الدنيا لعلم منار
فما نداماك سوى أهله وكلهم بين ندامى العقار
ميزك ميزان عقول الورى وفهمك العدل لكل عيار
تبدو لك الهجنة فى لحظة وتعرف الأسنان قبل الفرار
من لفظهم تعرف ما هم وفى جحفلة العاثر يبدو العثار
فما رأتك العين تصغى الى محال عجل سامرى الخوار

وكان ابن شرف كتب بهذه القصيدة من **طليطلة** اليه . فوصله بمائة مثقال من ضرب السكة لديه .

قوله : «زار وقد شمر فضل الازار ، جنح ظلام» أشار الى أنه زار آخر الليل كما قال أبو تمام :

الدهر عندكم طريف محدث وفخاركم ما زال فيه تليدا
عطرتم نفس الزمان فأصبحت آثاركم فى الجيد منه عقودا

في ذكر ذي الوزارتين أبي محمد بن هود

كانت قد أزاحته عن حضرة أسرته سرقسطة . أسباب غاب عنى شرحها ، فتجول على رؤساء أفقنا ، واتخذ آخر أمره حضرة بطليوس وطننا ، فرحب به المتوكل فآواه ، وأجزل قراه ، وولاه مدينة الأشبونة ، ثم صرفه عنها ، وصدر

محمود السيرة منهـا ، وكـان ممن تنـدر له الأبيـات ، وتستظرف لـه بعض المقطوعات ، كقوله وقد سئل عما اكتسبه فى ولايته ، فقال :

وسـائـل لـي لـمـا ... صـدرت عـمـا ولـيت
مـا نلت ؟ قلت : ثنـاء ... يبـقى معى مـا بقـيت
وان أمت كـان بـعـدى ... مـخـلـدا لا يـمـوت
عفت الـفضول لعلـمى ... أن لـيس يعـدم قـوت
وصنت قـدرى مـنهـا ... تـجـمـلا فـغـنـيت

وهو القائل وقد خرج عن سرقسطة :

ضللتم جميعا يـال هود عن الهدى ... وضيعتـم الـرأى المـوفق أجـمعـا
وشننتـم يمـين الملك بـي فـقطعـتم ... بـأيديكم منهـا وبـالغـدر اصبعـا
وما أنـا الا الشمس غيـر غيـاهب ... دجـت فـأبت لى أن أنـير وأسطعـا
وان طلـعت تـلـك البـدور أهـلـة ... فلـم يبـق الا أن أغـيب وأطـلعـا
فـلا تقطعوا الأسباب بيـنى وبينكم ... فـأنفكـم منكـم وان كـان أجدعـا

واحترق له بيت أيام مقامه **بطليطلة** ، فقال :

تـركت محـلى جنـة فوجـدتهـا ... على حكم أيدى الحادثات جهنما
لتصطنع الأيـام مـا شئن آخـرا ... فمـا صنعت بي أولا كـان أعظما

وأنشدت له مما نقش على رئاس سيف للمتوكل ، وأخبر عنه :

لا تخش ضيمـا ولا تمس أخـا فرق ... اذا رئـاسي فى يمـنى يـديك بقـى
أصبحت أمضى من الحين المتاح فصل ... على الكمـاة وبي عند الـوغى فتـق
لـولا فتـور بألحـاظ الـظبـاء اذن ... لقـلت انى أمضي من ظبـا الحـدق

ويتطرف هذا المعنى قول ابن شرف :

لـم يبق للظلم فى أيـامهم أثـر ... الا الذى فى عيون الغيد من حور

ولابن هود فى المتوكل أيام سلطـانه بيابرة :

يـا خائف الـدهر يمم أرض يـابرة ... تأمن وتكفى الذى تخشى من الحذر
وواصف البحـر فى شتـى عجائبـه ... حـدث بـلا حـرج عنـه وعن عمـر
وكـم سمعنـا قديمـا عن مكـارمه ... حتى رأينـا فـأزرى الخبر بـالخبر

وفاة المنصور بن أبى عامر مرورا بطليطلة

● قال ابن حيان : وخرج المنصور الى الغزاة ، وقد وقع فى مرضه الذى مات منه فى صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة . واقتحم أرض جليقية من تلقاء مدينة **طليطلة** ، ومرضه يخف وقتا ويثقل وقتا . ونفذ على عمل بني غومس الى أرض قشتيلة ، بلد شانجه بن غرسية. وهو كان مطلوبه الذي ألب عليه الجماعة ، فأحل الغارات بأقطاره فقويت عليه العلة هنالك ، فاتخذ له سرير خشب ودع عليه أعضاءه ، وسوى مهاده متطاول الشكل يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه . وكان يحمل سريره على أعناق الرجال ، وسجفه منسدل عليه ، وعساكره تحف به وتطيع أمره ، وكان يحمل بين يديه شراع خفيف منصوب ينقل على الأيدي ، فاذا حركته الخلفة أنزل سريره الى جانب الشراع ليقضي ما به من حاجة ؛ وتناول وضوءه جاريتان من قوامه كان حملهما فى غزاته ، فكانتا تسيران وسط الفتيان . وما كان بين نزوله واستقلاله الا الفترة لقوة الخلفة ؛ بذلك قطع أربعة عشر يوما حتى وصل الى مدينة سالم . وكان هجر الأطباء فى علته تلك لاختلافهم فيها ، واقتصر على أوصاف كاتبه الجزيرى عبد الملك . وأيقن هنالك بالموت ، وكان يقول : ان زمامى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالا منى ؛ وددت أن أقال زلتى وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريرى . وكان تحمل سريره السودان الرقاصة للين مشيهم ، وكان يتأذى بصنان ريحهم مع ما كان حوله من الطيب . فاشتغل ذهنه يومئذ بقرطبة وهو بمدينة سالم وقد أيقن بالوفاة . فأمر ابنه عبد الملك بالنفوذ لشدها فى طائفة من ثقات غلمانه بعد أن أوصى كلهم أشتاتا وجماعة . ثم خلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده . وكلما ذهب عنه استرده مستدركا بوصيته . وعبد الملك يبكى فينكر ذلك عليه ويقول : هذا أول العجز والفشل ؛ الى أن قضى وطره مما بينه وبين عبد الملك . وأمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر الى أن ينفذ حكمه فيه . وخرج عبد الملك الى قرطبة ومعه القاضى ابن ذكوان فدخلها فى صدر شوال من العام ، فسكن الارجاف بموت والده ، وعرف الخليفة كيف تركه .

قال ابن حيان : قال لى أبى خلف بن حسين : ووجد المنصور بعض الراحة ، وأمر أن تدخل عليه جماعة فدخلت فى جملتهم ودنوت منه وهو كالخيال لا يبين كلاما ، وأكثر عمله بالاشارة كالمسلم المودع . وخرجنا فكان آخر العهد به . ومات ليلة الاثنين لثلاث بقين لرمضان من العام المورخ ، وعلينا فى العسكر عبد الرحمن ابنه فعزيناه ؛ وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته . فدفن فى قصره بمدينة سالم . ورأوا أنه اختار الله له ، اذ كانت من أطيب ما بناه رحمه الله .

فصل في ذكر الوزير أبي الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي الدارمي ، واثبات جملة من أشعاره مع ما يتشبث بها من طريف أخباره

بلغنى أنه خرج من بغداد اذ مات أبوه ، وأساء عشرته أخوه ، وسنه دون العشرين ، فلحق بالأمير محمود ، وشهد حروبه بأرض الهنود ، وله فيه غير ما قصيد . الى أن توفى فولى أكبر ولده بعده ، فبقى أبو الفضل على حاله عنده ، الى أن خرج بعض اخوته عليه ، فنهض لحربه ، فدبر وزراؤه فى طريقه الفتك به ، وشاوروا أبا الفضل فى القضية ، فأبى من تلك الدنية ، وأودع أذن الأمير ، ذلك التدبير . فخاف وزراؤه أن يفتضحوا ، وعاجلوه قبل أن يصبحوا ، وقيدوه قبل أن يقدم أخوه ، فسبقهم أبو الفضل اليه ، ونص ما فعلوه بأخيه عليه . فشكر له وفاءه لصاحبه ، وقال : الوفاء حلية الأحرار ، والغدر ثوب الأشرار . ووصل القوم بعد بأخيه ، ففك عن أغلاله ، وحبسه عند بعض عماله . وضرب أعناق الغدرة ، وقرب أبا الفضل واستوزره ، الى أن خرج عنه فى خبر طويل ولحق بشروان شاه ، وصحبه الى أن توفى أيضا وولوا أخاه ، فكاتب أبو الفضل الخليفة أبا جعفر القائم ببغداد فى الوصول اليه ، فاتفق ورود كتابه اثر وفود رسول المعز ابن باديس عليه ، فطلب الخليفة رجلا يسفر بينهما ، فأرشد الى أبى الفضل ، فوجه عنه وورد ، فجهزه وخرج مستترا من بلد الى بلد حتى وصل حلب ، فاشتهر خبره وطلب ، فمدح معز الدولة بقصيدته التى أولها : « عهود الصبا من بعد عهدك آمل » فأمر له بثياب سرية ، وحمله على فرس عربية . ثم انفصل عنه واجتاز بمعرة النعمان ، وبها المعرى أحمد بن سليمان ، فوصل اليه ، وأنشده قصيدته اللامية ، فقبله المعرى بين عينيه ، وقال له : بأبى أنت من ناظم ! ما أراك الا الرسول الى المغرب . فوصل مصر ووزيرها يومئذ صدقة بن يوسف بن علي الملقب بالفلاحي ، فقصد مجلس قاضي القضاة بها ، وأثبت عقدا على رجل مشهور ، كان يومئذ ببلاد المغرب بشهادات زور ، ولما ثبت ذلك من الطومار ، خرج من مصر فى زي التجار ، يؤم بلاد افريقية ، فوقع على خبره صاحب الاسكندرية ، وطلبه فأعجزه . وبلغ طرابلس المغرب أول عمل المعز ، فأفشى أمره ، وفضح سره ، فأمر المعز باشخاصه . فلما وصل سعى به عنده وأراد قتله ، فقال له : تأن في ، واستقص على ، فان صدقت والا قتلت . فمشى أبو الفضل بالقيروان مرقبا عليه ، الى أن ورد كتاب القائم بصدقه ، فاعتذر اليه ، ورفع منزلته وأكرمه ، وبسط يده فى مطالبيه وحكمه . فحملهم أبو الفضل الى منزله ، وأحسن اليهم ، وخلع عليهم . فعجب المعز من كرمه ، وقلده تدبير حشمه . وكان ورود أبى الفضل بلد القيروان سنة تسع وثلاثين . حكى ذلك أبو على بن رشيق وقال : انه أول من أدخل كتاب اليتيمة للثعالبى عندهم ، وشهد حصار القيروان معهم . فلما كان عام ستة

وأربعين صرف المعز خطبته الى صاحب مصر ، ونبذ العباسية . فخرج أبو الفضل الى سوسة ، فتطاول عليه أهلها ، فخرج عنهم بعد أن أوقع الفتنة بينهم ، وتركهم فرقتين : قيسية ويمنية ، وأوقع فى نفوسهم أن الحرب قائمة بين هاتين القبيلتين الى يوم القيامة . فاقتتل الفريقان الى أن تغلب عليهم تميم بن المعز . وتردد أبو الفضل هنالك عدة سنين ، وشهد الحروب مع بلقين . ثم انتبذ من تلك الناحية ، وركب البحر فنزل بدانية ، فبعث اليه أميرها ابن مجاهد بلحم وأرباع دقيق أول نزوله ، فصرفها فى وجه رسوله ، وتعجل الارتحال عنه الى بلنسية فلقى برا . واستجلبه المأمون ابن ذي النون فحسن **بطليطلة** مثواه وأجزل قراه ، وتوسع له ولعبيده فى البر ، وأجرى له ستين مثقالا فى الشهر . وكان دخوله **طليطلة** يوم الجمعة لثلاث بقين لجمادى الأولى سنة أربع وخمسين ، وتوفى بها رحمه الله منتصف شوال سنة خمس وخمسين .

ومن غريب وفاء المأمون له – زعموا – أنه استمرت جرايته على حاشيته ، وتجافى عن ميراثه وجعله وصية له اذ لم يوص لفجأة وفاته . ورثاه الحكم أبو محمد بن خليفة بشعر يقول فيه :

سقى الله قبرا حل فيه أبو الفضل   سحابا يسح المزن وبلا على وبل
وكيف يسقى المزن قبرا يحله   وفى طيه بحر المكارم والفضل
وبدر تمام من تميم نجاره   ملوك لهم قام الملوك على رجل

ومنها :

وما الدهر الا آكل من نفوسنا   ونحن لديه فى الحقيقة كالأكل

وهذا كقول المعري :

وما الأرض الا مثلنا الرزق تبتغى   وتأكل من هذا الأنام وتشرب

وقد كرر المعرى هذا المعنى فى مواضع :

فشم صارما واركز قناة فللردى   يد هي أدرى بالطعان وأدرب
أفض لهامات وأرمى بأسهم   وأطعن فى قلب الخميس وأضرب

جملة من أخبار بنى ذي النون وذكر أولية أمرهم

قال ابن بسام : ونتلو هذا الفصل بنبذ لها بهذا الموضع موقع ، من أخبار **طليطلة** البائسة ، وشرح الحال التى أبادت مصانعها ، وطيرت واقعها ، وما آل اليه أمر المملكة القابضة للأنام ، المبنية على هدم دعائم الاسلام ، المجموعة من افتراق

الجماعة ، المغلوب عليها أئمة السمع والطاعة . ونذكر طرفا من حديث مآل أميرها المترف المسرف ، الملقب – كان – من الألقاب السلطانية بالقادر بالله ، جهلا منه بحقيقته ، وتهاونا بالله وخليقته . خطة ذاده المقدار عن مستقرها ، ودعوى دفع الليل والنهار فى صدرها . ونأتى أولا بفضل جودة ابن حيان فى ذكر جده اسماعيل المتلقب – كان – بالظافر ، رئيس الخلاف ، ورأس الانحراف ، وجمهور الجور والاسراف .

قال ابن حيان : وكانت أولية نباهة بنى ذي النون من جدهم ذي النون ، فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد اعتل له خصى فى طريق قفوله من الثغر فتركه عنده بحصن أقليش يمرضه ، فلما أفاق لحق بالحضرة مع الخصى ، فأخذ له توقيفا بتقديمه على حصنه . ثم تداول تلك الخطة ولده الى أيام الحكم . فلما اضطلع بالدولة ابن أبى عامر ، تعلق به المضراس بن ذي النون واسماعيل ابنه معه ، فلما انقرضت الدولة العامرية لحق بالثغر وجمع اليه بنى عمه ، وخطب من سليمان ولاية أقليش فولاه اياه ، ثم تهيأت له قلعة كونكه ، وكانت بيد واضح العامرى ، فلما مات ضبطها اسماعيل منتظرا بزعمه من يجتمع عليه الناس ، وتحت ذيله من غلول واضح كثير ، حين لم يترك الا أطفالا وأمهم حرته ، ألقت بنفسها اليه ، معتنقة بأمانه ، فحصل لاسماعيل البلد . وسطا على مجاوريه من قواد الثغور ، فاستقامت له الأمور . وثنى له الوزارة سليمان وسماه ناصر الدولة . فاستقل ذلك كله ، وآثر الفرقة ، واقتطع جانبه ، فكان أول الثوار لمفارقة الجماعة ، وفرطهم فى نقض الطاعة . ثم اتفقت له أمور اتسع بها عمله ، وكثرت جبايته وجمعه . وكان من البخل بالمال ، والكلف بالامساك ، والتقتير فى الانفاق ، بمنزلة لم يكن عليها أحد من ملوك عصره . لم يرغب فى صنيعة ، ولا سارع الى حسنة ، ولا جاد بمعروف ، فما أعملت اليه مطية ، ولا حملت أحداً نحوه ناقة ، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر ، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر ، ولا استخرج من يده درهم فى حق ولا باطل ، ولا حظى أحد منه بطائل . وكان مع ذلك سعيد الجد ، تنقاد اليه دنياه ، وتصحبه سعادته فينال صعاب الأمور بأهون سعيه . وهو كان فرط الملوك فى ايثار الفرقة ؛ فاقتدى به من بعده ، وأموا فى الخلاف نهجه . فصار جرثومة النفاق ، وأول من استن سنة العصيان والشقاق ، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن . فتبارك من أملى له ، ولم يرض له عقوبة الدنيا مثوبة .

فقد كان أصحابه حفظوا عنه كلمات فى سبيل ذكر السلف الصالح زيادة الى مساوئه . وذلك أنه نوظر فى شأن التأمير لبني أمية فقال : والله لو نازعني سلطاني هذا الصديق لقاتلته ولما سلمت له ، فكيف أسلم سلطانى لمن يدعى اليه من بنى أمية ، ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان خيط باطل ، الذين لم يسبق لهم صحبة ، ولا أدخلهم السلف فى شورى الامامة ؟ .

قال ابن حيان : ومن أشهر حكاياته فى ذلك ، ما أخبر عنه أبو العباس السكرى الاسكندرانى – رجل ممتع الحديث طيب المجالسة – وحضر مجلس ابن حمود بمالقة ، فسأله اسماعيل بن ذي النون عن مجلسه معه ، فأثنى عليه ، فقال أتثني على أدعياء ؟ فعل الله بهم وصنع ، فبهت الاسكندرانى وقال : معذرة اليك أيدك الله ، فانى جهلت رأيك فى هذا الرجل مع أنى ألزمت نفسى ألا أذم ذا سلطان البتة، وأنت غير منازع فى أئمتك المروانية ، وهم أهل ذلك منك ، أقاديم الملوك ، وذوو العدل والسياسة . [ومضى] الاسكندرانى فى اطرائهم ظنا أنه يسره ، اذ كان يقول بدعوتهم فى ذلك الوقت . فقطع عليه ابن ذي النون بأسوأ من قطعه على الهاشميين ، وأنحى على ذم بنى أمية فلم يبق ، ووصل كلامه بأن قال : توارثوا هذه الامارة مخرقة وضعها قريش لاستعمال الناس ، والناس لأب وأم ، والفخار باطل، أحقهم بالملك من استقل به. والله ما أولى غير نفسى، ولا أقوم الا بسلطانى ، ولو نازعنيه فلان وفلان – وذكر السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم – لضربتهم دونه بسيفى ما استمسك بيدى . فقام عنه الاسكندرانى مبهوتا وأفشاه فى غير أرضه . وأخباره فى مثل هذا كثيرة .

انتهى كلام ابن حيان .

فقلت أنا : وليت اسماعيل هذا بقي ووقي ، على فظاظة جانبه ، واختلاف مذاهبه ، وطول اعراضه عن عواقبه ، فلقد كانت عليه وقته قليل رقبة ، وعنده بعض أهبة ، لقرب عهده بأيام الجماعة ، واستشعاره عودة السمع والطاعة ، ولوفور من كان قبله يومئذ من مشيخة ذوي الهيئات ، وزعماء سائر الطبقات . ولقد أساء من جاء بعده ، ذهابا فى الكبر ، وتهاونا بالأمر ، وقعودا عن النصر . واستظهارا بأحزاب الكفر ، سلمه باطل وبطالة ، وحربه غواية وجهالة ، فى المشركين نجومه وديمه ، ولهم مواثيقه وذممه ، وفى المسلمين همومه وهممه ، وعندهم بوائقه ونقمه .

بلغني أنه لما مات الظافر اسماعيل ، كان حملة دولته ورؤوس جملته ، الحاج ابن محقور وابن لبون وابن سعيد بن الفرج . وكان آكد ما عهده الى ابنه يحيى المتلقب بعده بالمأمون الاقتداء بهديهم ، والانتهاء الى رأيهم ، قال بعضهم : فدخلنا عليه لأيام يسيرة من مهلك أبيه ، وهو [فى] ايوان كبير قد ملأه بنقر الفضة حتى لا فضل فيه عن مجلسه ، فأمرنا بالدنو ، فبعد لأي ما خلصنا اليه ، لكثرة ما كان من ذلك بين يديه ، وقد امتلأت صدورنا عجبا ، وتقيدت ألحاظنا فما تجد متقلبا ، لهذا الاتفاق كيف وقع ، ولهذا السحت من أين جمع . فأخذ يفيل رأي أبيه فى اختزانه ، ويعرض بجمود كان فى بنانه ، ونحن نقول : لعله قد أنف لضياع ثغوره ، وتشعث أموره ، وانتشار الشرك بازائه وظهوره . وكأنه فهم ما نحير ، وعلم الى أين نشير ، فأظلم ما بيننا وبينه ، وازور ازورارة أنكرنا بها أثره وعينه،

[وقال :] من حق مثل هذا أن يصرف فى مثل ضروب الحلية الرائقة ، وأنواع الآنية المؤانقة . وأى معنى فى كونها نقر ؟ ما أعجب هذا وما أنكر ! هذه بالحجارة أشبه منها بآلات الامارة . فقال له ابن محقور ، وكان أشدهم جرأة ، وأثقلهم وطأة ، لعزة ركنه ، وادلاله بفضل سنه : ان هذه - أيدك الله - اذا كانت نقرا بقيت ذخيرة زمان ، وعدة لحدث ان كان ، ولا تحول آلات الا بعد نفقة ، وتحيف من كل طبقة ، ثم لا تزال نصب عين من يرد من رسول ، وينتاب من ابن سبيل ، وينمى خبرها الى الطاغية فرذلند فتدعو السياسة الى أن يخص منها بقسم ، ويضرب له فى أنفسها بسهم . فزوى عنهم وجهه ، ولم يأمنوا نجهه ، وثقلوا بعد عليه ، ويئسوا من شىء من الفلاح يجرى على يديه . وخالفهم الى ما أراد ، فأبدى فيه وأعاد ، وآلت حاله الى ما قال الشيخ : ما لقص ولا زاد .

ذكر الخبر عن بعض ما تناهى اليه المأمون من تشييد البنيان بقصور طليطلة

● قال ابن بسام : ثم أخذ المأمون فى بناء مجلسه الكبير المكرم بناء باء باثمه ، وخلا سريعا من اسمه ، لم يخلده فى عقب ، ولا قضى من لذته به كبير أرب . وكان الذى تولى له رصف بدائعه ، واحكام مصانعه ، رجل من مهرة الفعلة ، أكثر خلق الله صلفا ، وأشدهم تتايعا وسرفا . وكان المأمون لعدم نظيره، يحتمل من اعتدائه وتغريره ، وتهاونه بجميع أموره ، ما لا مزيد عليه ، ولا انتهاء لأحد اليه . واتفق له مع ذلك الصانع أن وعده بتمام مجلسه المشيد قبل اطلال العيد ، فرشح ابن ذي النون للجلوس فى صدره ، والاستظهار على زينة عيده بالفراغ من أمره . وتقدم الى من كان بحضرته من الشعراء ، على قلتهم ببابه ، ونفارهم عن جنابه ، لقلة نائله ، وتفاهة طائله ، فى وصف مجلسه ذلك وتقريظ مبانيه ، والثناء على مخترعه وبانيه ، ثم ان ذلك الصانع استمر على ديدنه من الخلاف ، وعمل على شاكلته من التهاون والاخلاف . واتفق أثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فرذلند على بلاد المظفر بن الأفطس ؛ وطئتها وطأة محت رسومها ، واستباحت حريمها ، واجتاحت حديثها وقديمها ، وأنست ما كان قبلها من جب الذروة ، وانصداع المروة ، وأيأست من البقاء ، وآذنت بشمول البلاء . فأخبرت عن وزيره أبى المطرف بن مثنى أنه كان يومئذ بمنزلة بين الوجوم والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، اذ وردت رسل المأمون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فوجده قد استشاط حنقا ، حتى كاد يتميز شققا . فظن أن ذلك الضجر ، لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانهتاك الحرم . فطفق ابن مثنى يبسطه ويقبضه ، تارة

يسليه وتارة يحرضه ، وطورا يقول له : فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول : قد آن لك أن تنكر على الطاغية هذا الافتيات . فلما فهم منحى ابن مثنى منه ، أعرض عنه ، وقال له : ألا ترى هذا الضالع الفاعلي الصانع – يعني عريف بنيانه – صبرت له وأغضيت، وفعلت به كيت وكيت، فما زاد الا تنغيصا للذتي، واستخفافا بامرتي ، وتصغيرا لشأني ، واجتراء على سلطاني . وهبت ريحه العقيم ، تقعد فى غير شىء وتقيم ، فسقط فى يد ابن مثنى وانكسر انكسارة تبينها ابن ذي النون فيه . ولم يجد بدأ من أن قال له : هون عليك ، والكل طوع يديك ، وناهيك ، وأنا أكفيك ؛ وخرج ومثل بين يدى ذلك الصانع يعده ويمنيه ، ويداوره ويداريه ، والصانع مقبل على شأنه ، ما أمره بالجلوس ، ولا زاده على التجهم والعبوس ، فبعد لأي ما ضرب له مثل العامة وهو قولهم : ما أفرس الجالس . ثم قال : وبالحرى والله أن يتم الى عيد آخر ، فليجهد جهده ، وليأت بكل ما عنده . فرجع ابن مثنى الى ابن ذي النون وهون عليه الشأن ، وخفف لديه ما كان وخرج لا يدرى من أي الثلاثة يعجب : أمن اغترار [ابن] ذي النون وجهله ، أم افضاء الضرورة بنفسه الى خدمة مثله ، أم من جرأة ذلك الصانع القصير اليسد ، النزر العدد ، على ذل [ابن] ذي النون وذله .

قال ابن بسام : فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه . الهادم – كان – للدين والدنيا شانه ، مربطا للأفراس ، وملعبا للأعلاج الأرجاس . من رجال الطاغية أذفونس بن فرذلند ، بدد الله شيعته .

ذكر الخبر عن مآل حفيده المتلقب بالقادر
مع (ما) يتشبث به من خبر نادر

قد ذكرت فى القسم الثانى من هذا المجموع ملك جده المأمون بقرطبة ، ويعود بنا القول الى ما بدأت به من ذكر حفيده المتخذ له ذلك الصنيع المعدود على الأيام ذنبه . الباقى فى صفحة الاسلام ندبه . وقد ذكرت أيضا فى القسم الثالث منه مهلك حفيده ببلنسية ، وأوضحت صبحه ، واستوفيت شرحه . وأجرد ها هنا القول فى أخذ طليطلة من يديه ، ودوران الدائرة السوء بها على المسلمين وعليه ، وما تعلق بأذيال ذلك من غريبة ، وانخرط فى سلكه من أعجوبة .

كان يحيى حفيد ابن ذي النون ركين المجلس ، ثرى المغرس ، حلو الحوار ، لين التصرف بين الايراد والاصدار ، مليح شبا الخط هذه كانت فضائله فقط .

لم يكن له ولسلفه قبله باع فى الطلب ، ولا حظ فى الأدب ، وكان - زعموا - آية فى قرب غوره . وسكون فوره ، والحور بعد كوره ، امعة امرة ، أجبن من قبرة : ان حزم لم يعزم ، وان سدى لم يلحم ، الى ما كان يغرضه من غرض ، ويلزمه أكثر مدته من مرض ، من ذرب لازم - زعموا - كان لمعدته . واستحرار حاسم لمرته ، وقد كان جده المأمون قسم الحضرة قسمين ، وأدار سياستها على رجلين ، فجعل تدبير الأجناد ، والنظر فى طبقات القواد ، الى سائر الشئون السلطانية ، والأعمال الديوانية الى ابن الفرج ، وبقية الاصدار والايراد ، والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد ، والرأى والمشورة ، والصغيرة والكبيرة ، الى الفقيه أبى بكر بن الحديدى ، رجل كان له قدم واقدام ، وعنده نقض وابرام . وكان قد عهد لحفيده هذا المرشح لأمره متى ورث سلطانه ، وتبوأ مكانه ، أن يشد على ابن الحديدى كلتا يديه ، ولا يفتات بأمر من الأمور عليه . وأخذ الموثق الغليظ على ابن الحديدى ليبلغن كل مبلغ فى شد أزره ، وتثبيت أمره علما باستقلاله ، واستنامة الى يمن مناقبه وحلاله ، وحفظا لما كان عنده من يده فى اقامة أوده ، وممالأته على أهل بلده . وقد كان أكثرهم فيما سلف نفروا عنه ، وهموا بالاستبدال منه ، فنكث أبو بكر هذا قوى مكرهم ، وخاطب المأمون يومئذ الى بلنسية بجلية أمرهم ، خوفا من الفتنة ، وتفاديا من المحنة ، فانكدر المأمون من حينه الى **طليطلة** وقد ضاق ذراعا ، وكادت نفسه تذهب شعاعا . وأدار الحيلة على مشيخة **طليطلة** فى خبر طويل حتى سجن عامتهم بمطابق حصن [وبذة] . أخرى قلاعه المنيعة ، ولم يزالوا بها حتى شاب الشباب ، وبليت الأحقاب ، وتلك اليد كان المأمون يراعى لابن الحديدى ، فوضع فى حياته زمامه بيده ، واستخلفه بعد وفاته على بلده وولده .

مقتل الفقيه أبى بكر بن الحديدى

فلما هلك المأمون بقرطبة ونعي **بطليطلة** وماج بعضها فى بعضها ، وانطبقت سماؤها على أرضها ، احتوشت الى حفيده ، اللابس لبروده ، جملة ممن كان يتعلق بسببه ، وينسب الى وطء عقبه . وطفقوا يغرونه بأبى بكر ، جماع أمره ، ومظنة تأييده ونصره ، لما كانوا يدبرون من التقلب عليه ، ويتوهمون من ضعفه على ما فى يديه . وخوفوه غوائل ختله ، وزعموا أن سلطانه لا يتم الا بعد الفراغ من قتله ، وقد كان أثيره أبو سعيد بن الفرج ينهاه عن اخفار الذمام ، ويخوفه سوء عواقب الأيام . فركب هواه ، وخالف ناصحه وعصاه ، وجرد قطعة من جنده ، وأمرها باستقبال تابوت جده فى طريقهم من قرطبة ، وأنهى اليهم سراً قتل ابن الحديدى المستقل بحمله ، الناظم لأشتات فله . وقال لهم : اذا التقيتموه فكونوا حوله ، وعظموا قوله ، فاذا أمكنتكم غرته ، وبدت لكم ثغرته ، فاقتلوه كيف أمكن ، وعلى ما ظهر وبطن ، ونما الخبر الى ابن الحديدى فكفر بطاغوتهم ،

ونفض يديه من تابوتهم ، ونكب الى بعض ضياعه ، في لمـة من شيعته وأتباعه ، فاضطرمت الصدور ، وبطل ذلك التدبير ، ثم وافى البلد ليلة وقـد استوحش من أنسه ، وأوجس خيفة في نفسه ، وأصبح في المدينة خائفـا يترقب ، ونادما يتتبع ويتعقب ، بعض يديه ، ويحسب كـل صيحة عليه ، وطفق أصحاب ابن ذي النون بزعمه يقولون : قـد حذرك ، وتيقن خبرك ، ولا يصلح لك أبـدا ، ولا يرد عن مكروهك يدا . ومشت بينهما الرسل ، وأعملت في اجتماعهما الحيل ، فركب اليه ذات يوم ، وقد أخذ حذره ، وحشد عرفه ونكره ، واستبطن من كان تبعه يومئذ من الدهماء ، وتعلق بركابه لمشهد أمره من الغوغاء . فملأوا أفنية القصر أسرع من المـاء الى الصبب ، وأهول من النـار في الحطب . فحين ارتفعت الأصوات ، وغصت بهم العرصات ، ارتاع ابن ذي النون ، فـأمر ابن الحديدى بالخروج ، فخرج والدولة متعلقة بأذياله ، وطبقات أعيانها عن يمينه وشماله ، والعامة بين يديه ومن خلفه ، يتمسحون بـآثاره ، ويرفلون في غباره ، وهو يشكر صنيعهم ، ويعم بالثنـاء جميعهم ، وكان عندما أذكى عيونه ، وحشر شياطينه ، قد أوقـع تهمته على شيخين من شيوخ الخدمة يدعيان مؤملا وابن صروم ، فأغرى العامة باستئصالهما ، وتحبب اليهم بنهبة أموالهما ، فكـانا عنوان الفتنة ، وباكورة المحنـة .

وقد حدثت أن ابنه أشار عليه يومئذ بالفراغ من شيعة ابن ذي النون ففيل رأيه، واستقصر سعيه ، وبود طليطلة البائسة لو أنه فعل ، ولو أمضاها ما اختلف بها اثنان ، ولا انتطح فيها عنزان .

وزين هذا الحزب المعلن بشره ، من شيعة ابن ذي النون المغلوب عـلى أمره ، لصاحبهم اللجاج في غدره ، والتمادى على غلواء مكره ، وأرته أن ذلك من سعيها لا يستوى على سوقه ، ولا يخلو بسواء طريقه ، الا [باطلاق] تلك الطائفة المغربة بمطبق وبذة ، المحترقة أفلاذ أكبادهم ، بنيران دمهم وأحقادهم : داء دفين ، وشر مضمون ، وسولوا له أنه اذا فك أغلالهم ، ووصل بحبل الحياة حبـالهم ، غسل جوانحهم ، وتـألف نصائحهم ، وشاركهم في ذوات صدورهم ، واعتد عليهم منة نشورهم ، والبعثة من قبورهم ، فأثـار منهم مدى وشفارا ، [أعد] بهم لخراب ملكه أعوانـا وأنصارا . فأدخلهم البلـد سرا من بعض مداخله الخفية ، وقـد سترهم باللثم ، وأوهم أنهم بعض الحرم ، حتى وصلوا اليه ، ومثلوا بين يديه ، وذلك اليوم يوم الجمعة لعشر خلت لمحرم سنة ثمان وستين .

وكان الذى مالأ ابن ذي النون على ذلك ، وسهل له – زعموا – تلك المناهج الخبيثة والمسالك ، الفقيه ابن المشاط متولى القضاء كان يومئذ بقونكة ، وكان أبو بكر بن الحديدى [يألفه] ويسكن اليه قديما ، فاستدرجه بـالأمان . واستفزه الى

مصرعه يومئذ بمزورات الأيمان ، حتى جرعه رداه ، وأسلمه الى عداه ، ودخل ابن الحديدى يومئذ القصر ، والمقدار يزعجه ، والخائن الغدار ابن المشاط يستدرجه ، فلما أفضى الى مجلس ابن ذي النون رأى وجوها قد أمنها مما تخوفها ، وأنكرها من طول ما عرفها ، فأيقن بالشر لا خلاص ، ولات حين مناص ، ثم وطن لمحنته ، واتكأ فضل منته ، فجاذبهم أطراف الخصام ، وطلع عليهم من ثنايا النقض والابرام ، فقام ابن ذي النون من موضعه وابن الحديدى متعلق بأذياله ، مستجير به من أقتاله ، فشغبوا عليه وشغلوه ، وأحاطوا به حتى قتلوه ، فقضى الأمر ، وانقضى العجز والصدر ، ولما أحست العامة بقتله ، وهمت بسلاحها من أجله ، ثار أولئك المخرجون فى وجوههم ، أطلال فى أسمال ، فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق ، وذهب ممن كان هنالك من العامة بفريق ، بين صديق لهم يسر ، وعدو يفر ، وتشاغلوا بنهب دور بنى الحديدى حين عجزوا عن نصرته، وعلموا أن لا سبيل الى كرته ، ولم يكن الا ك « لا » حتى أصبحت حبلا رثا ، وهباء منبثا .

وظن ابن ذي النون [أنه] قد راع أحشاء الأيام بفتكة براضية ، وهتك أستار الخطوب عن حيلة عمرية ، ولعمرى لقد راغ ولكن آمن سربه ، ولقد هتك ولكن حجاب قلبه ، أخلى وجهه لشرار أغمار ، لم تكن لهم أحلام تحجرهم ، ولا حلوم توقرهم ، أذبة شهوات ، وفراش ضلالات ، أغضى الزمان لهم هنية فظنوا أنهم قد أعجزوه وانتهزوه ، فوجدهم مغترين ليس لهم سلاح الا مقاتلهم ، ولا بهم حويل الا تدابرهم وتخاذلهم ، ونفث على نفسه من أولئك المخرجين شرار زناد ، وأسرار عداوات وأحقاد ، أحلاس السجون والأهوال ، وبقايا القيود والأغلال ، فلم يزد بموت ابن الحديدى وحياتهم على أن كان الشر سببا فأصبح أسبابا والناس حزبا فتفرقوا أحزابا ، وانتبذ ابن عبد العزيز لتلك الوهلة ببلنسية من جماعته ، وخلع يده من طاعته ، الا هدنة على دخن ، يتطارد له بصيدها ، وينشده عن كيدها :

أحبك فى البتول وفى أبيها ولكنى أحبك من بعيد

وفغر الطاغية أذفونش بن فرذلند فمه على ثغوره المثغورة ، فجعل لوقته يطويها طي السجل للكتاب ، وينهض فيها نهضة الشيب فى الشباب ، وابن ذي النون يلقمه أفلاذ كبده ، ويرجمه بسبده ولبده ، وأذفونش لعنه الله لا يقنع منه بصيد العنقاء ، ولا ببيض الأنوق ، بل يكلفه احضار الأبلق العقوق ، ويسومه درك الشمس ، ويطلبه برد أمس . فلما أكل الانفاق ثبج ماله ، وأخذ الخناق بكظم احتياله ، وأحس العدو المشاق بذلك من حاله ، سما الى معاقله المنيعة ، ودرى

أملاكه الرفيعة ، عدد الأنام ، ودروب الاسلام ، فما راهنه منها عليه غلق ، وما رام أخذه من يديه لم يدركه حتى مزق .

فرار حفيد ابن ذي النون من طليطلة ودخول المتوكل

● وانجزت الحال بينه وبين أولئك الشيوخ المخرجين من المطبق بمقدار ما رقعوا خروقهم ، وجمعوا فريقهم ؛ فلما استوثق أمرهم ، وثاب اليهم شرهم ، دلفوا لحزبه الذنوني البسيس ، تحت احدى ليالى جديس ؛ أرغت عليهم سقب السماء ، وتمخضت لهم بالداهية الدهياء ، ورؤوسهم بأيدي الولدان لعبا ، وأتى ابن ذي النون صريخهم تلك الليلة فصادف منه رأيا مغلوبا ، وقلبا منخوبا ، طار به الذعر غفر ودونه من عبيده أسد الشرى ، والأسوار شامخة الذرى ، كأنما ناجته القتال أضغاث حلمه ، أو رأى وجوه الأقتال فى وجوه حرمه ، تجفل الظليم ، لا يحفل بالعار المقيم ، ولا يصيخ الى الصديق الحميم . حدثت أن زوجه بنت المظفر ابن أبى عامر ، طريد جده – كان – من بلنسية ، وابنته منها تبعتاه يومئذ راجلتين نيفا على فرسخين ، حتى أدركتا بمركوب ، وقد أخذ الجهد منهما بأوفر نصيب . واجتمع مشيخة **طليطلة** بفناء القصر ، مرتبكين بين اللجاج والذعر ، عامتهم تتطاول بزعمها اليه ، وخاصتهم تتحيل المثول بين يديه ، وهم يظنونه بحيث يرى ويسمع ، ويتوهمون أنه سيفعل ويصنع . فوجوده قد أذعن للدنية ، وخرج من بعض تلك المخارج الخفية ، ومشى القهقرى ، قبل عير وما جرى ، فاستأمدت كلابهم لأكل لحم ليس له ناصر ، وهزج ذبابهم أثناء روض ليس [له] وارد ولا صادر . ولقوا يومئذ فى سؤر الطاغية أذفونس من تلك الجواهر المكنونة ، والذخائر المصونة .

وتلاحق بابن ذي النون بقية سربه المنفر ، وفل عسكره المدبر ، بحصن من حصونه . وأقام أهل طليطلة بعده أياما ولا كالسائمة المهملة نام راعيها ، وأكبثت مراعيها ، يتهادون لحما بين قديد ومعجل ، ويرتمون بشحم كهداب الدمقس المفتل ، فى هياط ومياط ، ولجب واختلاط ، ليس عليهم أمير ، ولا فيهم الى الصواب مشير . وتشاوروا فى أى ملوك الطوائف يحكمونه فيهم ، ويلقون اليه بأيديهم ، فطار طائرهم ، واخلتفت بواطنهم وظواهرهم ، واشرأب من كان يليهم منهم لملكة لم يحكموا اليها أسبابا ، وغنيمة لم يوجفوا عليها خيلا ولا ركابا .

وكان عندهم يومئذ أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوسى أحد عفاريت الضلال ، وأكلة الأموال ، من رجل أجرأ خلق الله على دم وهو أجبن من صافر ، وأجسرهم على ركوب ثبج محرم وهو أضعف من لحظ فاتر ، نبهت تلك الفتنة على

قدره ، ورفع عدم الرجال صوته بذكره ، فهبت ريحه شمالا وصبا ، واتخذ سبيله فى البر والبحر عجبا ، فعرض عليهم بصاحبه المتوكل عمر بن المظفر بن الأفطس ، وأعرب لهم عن لين مكسره ، وضيق مسافة نظره ، واشتغاله باللذات عن أكثره ، فقالوا : برد كبرد ، ما أشبه سعدا بسعد ! فأتاه سفيرهم ، وخف اليه عيرهم ونفيرهم ، فجاءهم ينظر من خفاء ، ويمشي على استحياء ، كودنا ساموه خطة سباق ، وحبينة أقاموها على ساق ، فدخل **طليطلة** عقب سنة اثنتين وسبعين ، وأقام عندهم نحوا من عشرة أشهر ، أضل من يد فى رحم ، وأذل من لحم على وضم .

[و] قد كان ابن ذي النون حين انفلت من يد المقتنص ، انفلات الحمامة من القفص ، تهيأ له دخول كونكة فى خبر طويل ، فثاب اليه حسه ، ورجعت قليلا نفسه ، وراسل الطاغية أذفونش ، وهو بحيث ينتهز الفرسة ، ويسمع القصة . فذكره ابن ذي النون سالف عهده ، وشهد عنده أنعم جده ، فبالزناد الذنونية — زعموا — وريت ناره ، ومن التلاع المأمونية تدفق تياره ، أيام كان اسم هذا الطاغية مخمولا ، وصعبه ذلولا ، بتغلب أخويه شانجه وغرسية عليه ، وأخذهما طرفى سلكه من يديه ، فآواه المأمون ابن ذي النون ونصره ، واستقل بسلطان طاغوته حتى أظهره ، وعند الله جزاء موفور ، واليه منقلب ومصير . فلبى دعواه، وسمع شكواه ، وأظهر الارتماض لما عزه وعراه . وأقبل معه الى **طليطلة** يرد ماء بماء ، ويسر حسوا فى ارتغاء ، يورد وردا اليه صدره ، ويحلب حلبا له أكثره ، والمتوكل بها طليح جفان ، طريح أكواب ودنان ، مكبا على قمش ما نحته المحنة ، وتجافت عن انتهابه الفتنة ، من فرش فخم ، وسرادق ضخم ، وآنية وكتب ، وصعد من آلة الملك وصبب ، حتى اجتمع عنده من خبث زبرتها ، وغثاء غمرتها ، مع ما أذابوا له صدر مقدمه من شحم سنامها ، وأفاضوا من بردها وسلامها ، جملة علمته الجلوس فى الصدر ، وأرته الفرق بين الخل والخمر ، وأهل **طليطلة** الممتحنون ، فى غمرتهم ساهون ، وعلى أعقابهم ينكصون ، يخوضون ويلعبون ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين .

خروج المتوكل من طليطلة ، ورجوع ابن ذي النون اليها

● فلما تمكن المتوكل من الري والشبع ، تذكر عواقب الطمع ، ورأى أنه ان زاد على ملء بطنه ، كان كالسراج المنغمس فى دهنه ، فكايدهم بفراره ، وأجلى مبادرا الى بطليوس دار قراره ينشد :

ان الله يرجعني من الغزو ولا أرى وان قل مالي طالبا ما ورائيا

ومن غريب تأويل الأحلام . أن رجلا رأى المتوكل قبل دخوله **طليطلة** بأعوام . **كأنه يأكل** فيها طعاما فيه سلق مع رجل يسمى يوسف ، ففسرها الأديب أبو عمر فتح المعروف بابن برلوصه ، وقال : ان المتوكل سيدخلها على يد رجل يسمى يوسف ، وينالان من مالها وذخائرها ، لكنهما يسلقان بالألسنة فيها : ويفسح الحديث عنهما ، فخرجت الرؤيا كما فسر .

ولما دخلها وحصل اليه منها ما حصل فر وتركهم كالسفينة خانتها الريح ، والجسد بان عنه الروح ، بين ناب الطاغية أذفونش وظفره ، يقدح لهم نار الفتنة عن حجره ، ويريهم الموت فى أهول صوره ، مقسما لا يبرح العرضة حتى يفى لابن ذي النون بضمانه ، ويكافئه على سالف احسانه . وكان عاقده ابن ذي النون أنه اذا صرح قذاها ، وأماط أذاها ، واقتضى دينها ، خلى بينه وبينها ، هذا [ما] أضمر ، فأما الذى أظهر ، فانه وعده أداء جملة من المال ، لا تفي به مدة الاقبال ، ولا ارخاء الحال ، راهنه بها أبناء الأمجاد ، وبقايا معاقله الأفراد ، وألقى أهل **طليطلة** بأيدى الصغار ، على حين أيقنوا بالبوار ، وضاقت عليهم أنشوطة الحصار ، فجاء ابن ذي النون يقدمه أذفونش ، وهو يظهر من التزام بره ، واعزاز نصره ، ما بهر العقول ، وكثر القال والقيل . حتى زعموا أنه رفع صوته يدعو اليه ، وترجل يمشى بين يديه ، وصار أعجب من تورط فى حبائل كيده ، وجعل الضرغام بازا لصيده ، وكم رام أهل **طليطلة** قتل ابن ذي النون فى أثناء تلك الوشلات مرارا ، ولكنه بلغ مداه ، وكره الله لقاءه فأبقاه ، وكانت لله فيه مشيئة أمضاها ، وقضية أنظر به أناها ، لذلك ما خبأته صروف الأيام ، وسلم من الحمام الى الحمام ، فلما كان يوم النحر سنة أربع وسبعين ، نهدوا له فى عددهم وعديدهم، وزحفوا اليه بحدهم وحديدهم ، فتجاولوا عامة يومهم فى شوارعها ، يترامون بدوامغ الحتوف وقوارعها ؛ فأجلت الحرب عنهم قد شرقوا بغصتها ، وخلوا بينه وبين عرصتها ، وتساقطوا على أذفونش يشكون ابن ذي النون اليه ويستصرخونه عليه ، فرماهم بحجر ، ولبس لهم جلدة نمر ، فتفرقوا بكل سبيل ، وطاروا على كل صعب وذلول ، حتى مات ابن مغيث كبيرهم الذى علمهم السحر ، وطاغوتهم الذى شرع لهم الكفر ، بشيمتور من أرض قشتيلة بين الدنان والصلبان ، فسار والى الله ايابه ، وعليه حسابه ، ورجع بنوه أخيرا فانتزوا بمدينة مجريط ، وانحشر اليهم ذؤبان الوقائع ، وأذبة المطامع ، فكانت بين ابن ذي النون وبينهم أيام عدتهم له عدا ، وساقتهم اليه وردا ، حتى باد جمهورهم ، وتلاحقت أعجازهم وصدورهم ، وبلغ ابن ذي النون من هدم ربوعهم ، وصلبهم على جذوعهم ، ما يبرد صدر الموتور ، ويضحك سن الموت المبير .

بقية الحديث عن شؤون ابن ذي النون بطليطلة واسلامها لظهيره الطاغية أذفونش ، وما انطوى فى ذلك من خبر ، والتف به من قبيح أثـر

● قال ابن بسام : وأخـذ ابن ذي النون أهل **طليطلـة** لحين استقراره فيها بفك تلك المعـاقل ، وأداء ما كان ضمن لأذفونش من الأموال الجلائل ، فضرب مدبرهم بمقبلهم ، وولى آخرهم كبر أولهم ، حتى طمع فقيرهم فى غنيهم ، واجترأ ضعيفهم على قويهم ، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله ، ويلتفت وانما هو بين أهله ، وانكر أذفونش على **طليطلة** ينتسف مرافقها ، ويقعد لجالية أهلها ثناياها ومضايقها ، يأسر ويقتل ، ويحرق ويمثل ، وسما السعر ، وتفاقم الأمر ، وأنكرت الموارد والمصادر ، وبلغت القلوب الحناجر .

وكان من غريب ما اتفق وعجيب ما انتظم من ذلك واتسق ، أن البر كان على زعمهم يمكث عندهم أكـثر من خمسين سنة لا يؤثر فيه طول القدم ، ولا يخاف عليه آفـة العدم ، ولم يرفع مدة الفتنة من البيـادر – على تعذر بذره ، وضيق الحيلة عن محاولة شيء من أمره – الا وقد بدا البلى عليه ، وأسرعت الآفة اليه ، أمر من الله لم يكن له مرد ، ولا منه بد ، ولمـا شمل البلاء ، وفدحت البـأسـاء ، وأتى على أكثر أهل **طليطلة** القتل والجلاء ، وقضى الطاغية أذفونش – قصمه الله – قضاءه من استباحة الحريم ، واستئصال الراحل والمقيم ، واتلاف الموجود والمعدوم ، أسرى تحت الليل ، فى قطعة غير وافرة من الخيل ، فنزل المنية المصورة التى كان المأمون يحشد اليها كل حسن ، ويباهى بها جنة عدن ، ويقلب الحوير فى حيد بنيانها ، والاشادة بشانها ، ظهرا لبطن ، فاتخذ عروشها مرابط لأفراسه ، وايواناتها ملاعب لأراذلته وأرجاسه ، وهجم الشتاء فمنعه من ميرة تأتيه ، أو مدد يوافيه ، فأقام نيفا على شهرين لا يسيغ الشراب ، ولا يملك المجيء ولا الذهاب ليس له شوكة الا ظل لوائه ، ولا مدد الا ضعف من كان بازائه ، ولولا اهتبـال ملوك الطوائف باقامة مرافقه ، واصغاؤهم الى هدر شقاشقه ، لطـار شعاعا ، وذهب ضياعا ، وطفق أهـل **طليطلة** يستصرخون من حولهم ، ويعملون فى ذلك فعلهم وقولهم ، فيعكفون على طلل بائد ، ويضربون فى حديد بارد ، فلما نأى الشتاء بجانبه ، وخلى بين كل ذاهب ومذاهبه ، سال بأهل **طليطلة** سيل لا يقوم له سهل ولا وعر ، وطلـع عليهم ليل لا يلـوح لهم فيه صبح ولا فجر ، واضطر من أخطـأته الحوادث ، وتخطته تلك الخطوب الكوارث ، – من أشدها ضيق الحصار ، وكلب البوار ، وابطاء المرافق والأنصار – الى مداخلة الطاغية أذفونش ، فشرعوا فى ذلك غير مظهرين للاستسلام ، ولا متـبرئين من الصبر على ضنك ذلك المقـام ، طمعا فى أن يغروه ولو باغلاء سوم ، ويخدعوه على أذماء نفوسهم ولو ببياض يوم،

اشارة الغريق الى الساحل ، واستراحة المحتضر الى الطبيب الجاهل ، فأبى أذفونش الا عرصة الدار ، وأم الأوطار ، ولجاجا بين التمادى والاستمرار ، لعلمه أين ينتهى طلقهم ، وتقديره لما عسى أن يفي به رمقهم فخرج من أعيانهم جملة الى مضرب أذفونش فى بعض تلك الأيام ، وقد ضاق المجال ، وتلمظت الآجال، وأقبلت الحتوف تختال ، فقام الحجاب دونه ، وقالوا : هو نائم فكيف توقظونه ؟ فعدلوا الى مضرب ششنند ، شره العتيد ، وشيطانه المريد ، وهامانه الذى أوقد له على الطين ، وعلمه الدفع بالشك فى صدر اليقين ، أحد أعلاج ابن عباد ـ كان ـ من رجل متوقد جمرة الذكاء ، بعيد المذهب بين الجرأة والنكراء ، سفر بين المعتضد والطاغية فرذلند ، فعقد وحل ، ونهض بما حمل من ذلك واستقل ، ثم خاف المعتضد على نفسه ، فنزع به عرق اللوم ، الى المقر المذموم . واستقرت قدمه بجليقية ، فاضطلع بالدروب والثغور ، وغلب على سائر السياسة والتدبير . وصار بعد قصارى ملوك الطوائف بالجزيرة نظرة من اهتباله ، وأدنى خطرة من باله . فأدخل على أذفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه ، ثائر الرأس ، خبيث النفس ، وجعلوا ينظرون اليه وهو يضغث ثغامة رأسه ، فما نسوا دفر أطماره ، ودرن أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لا يشكون أن الشر فيه ، وقال لهم : الى متى تتخادعون ، وبأى شىء تطمعون ؟ قالوا : بنا بغية . [ولنا] فى فلان وفلان أمنية ، وسموا له بعض ملوك الطوائف ، فصفق بيديه ، وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : أين رسل ابن عباد ؟ فجىء بهم يرتفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بألسنة السمع والطاعة . فقال لهم : مذ كم تحومون علي ، وترومون الوصول الي ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة ميرة ، وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . ثم ما زاد على أن ركل ذلك برجليه ، وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل أعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، وأهل **طليطلة** يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم ، فخرج مشيختها من عنده وقد سقط فى أيديهم . وطمع كل شىء فيهم ، وخلوا بينه وبين البلد ، لثلاثة أيام من ذلك المشهد . ودخل **طليطلة** على حكمه ، وأثبت فى عرصتها قدم ظلمه ، حكم من الله سبق به القدر ، فلم يكن منه وزر .

وخرج ابن ذي النون خائبا مما تمناه ، شرقا بعقبى ما جناه ، والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم تطلع نجما الا كدرته عليه حتفا مبيدا ، ولم تنشىء عارضا الا مطرته عذابا فيه شديدا . واستقر بمحلة أذفونش مخفور الذمة ، مذال الحرمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمه ستر ولا حجاب . حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال وبيده اصطرلاب يرصد فيه أى وقت

يرحل ، وعلى أى شىء يعـول ، وأى سبيل يتمثـل ، وقد أطاف بــه النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله .

وعتا الطـاغية أذفونش — قصمه الله — لحين استقراره **بطليطلة** واستكبر ، وأخل بملوك الطوائف فى الجزيرة وقصر ، وأخذ يتجنى ويتعتب . وطفق يتشوف الى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبب ، ورأى أنهم قد وقفوا دون مداه، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه .

وولى ششنند المذكور تدبير **طليطلة** ، فهون عليهم الرزية ، وحبب اليهم اعطاء الدنية ، بما أراهم من سهولة مرامه ، وبسط فيهم من عدل أحكامه ، حتى استمال قلوب أعلامهـا ، وحبب التنصر الى عامة طغـامها ، وفجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم ، وتنصر سفهائهم ، ما ضاقت عنه صدور الأيام ، واضطربت له قواعد الاسلام . وقد كان من رأى ششنند الابقــاء على أهل **طليطلة** ، وقال لأذفونش : لست تجد بمن تعمرها ، ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذي النون يدبرها ، فأبى أذفونش الا لحاحا فى سفهه ، وانحطاطا فى حبـل شرهه . فلما تهيأ له ملكهـا ، وانتثر فى يديه سلكها ، قال له ششنند اخفض جناحك لأهلها ، واستجلب جاليتها بما تمد من ظلهـا ، ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغنى عنهم ، ولا تجـد عمالا أطوع منهم ، فانك ان أبيت الا الالحاح عليهم ، والتسرع بالمكروه اليهم ، نفرتهم عن ذراك ، وأحوجتهم الى مداخلة سواك . فكــان من صنع الله أن اتهـم أذفونش يومئذ منحاه ، وخالفه الى ركوب هواه ، وشرع لوقته فى تغيـير المسجد الجامع بها ، خاتمة النوائب ، ونكبة الشاهد والغائب . فقال له ششنند : انك ان فعلت أوغرت الصدور ، وأبطلت التدبير ، وسكنت من نشط ، وقبضت من انبسط، فشمخ أذفونش — لعنه الله — بأنفه ، وثنى من عطفه ، وأصغى الى طنانة جنونه وسخفه ، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم [...] لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربعمائة . وحدثنى من شهد طواغيته تبتدره ، فى يوم أعمى البصائر والأبصار منظره ،وليس فيه الا الشيخ الأستاذ المغامى آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه ، وقد أطاف به مردة عفاريته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا له عجل ، أشار هو الى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليـا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد .

وقد حدثت أن شيعة أذفونش — لعنه الله وبددها — أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج ، وزينوا له زى من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين ايـاها من أعلاج ، فقــال : لا ، حتى أطأ ذروة الملك ، وآخذ قرطبتهم واسطة السلك ، وكــان أعد لمسجدها الجامع — حمى الله ساحته من الخطوب الروائع — ناقوسا تـأنق فى

ابداعه ، وتجاوز الحد فى استنباطه واختراعه ، فالحمد لله موهن أيده ، ومبطل كيده ، وجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل جزاء المحسنين ، بما بل من رماق ، ونفس من خناق ، ووصل هذه الجزيرة من حبل ، وتجشم الى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها من حزن وسهل ، حتى [ثل] عروش المشركين ، وظهر أمر الله وهم كارهون ، والحمد لله رب العالمين .

فصل فى ذكر الوزير الحكيم أبى محمد المصرى

● شيخ الفتيان ، وآبدة الزمان ، وخاتمة أصحاب السلطان ، وكان رحل الى مصر واسمه خامل ، وسماؤه عاطل ، فلم ينشب أن طرأ على الأندلس وقد نشأ خلقا جديدا ، وأجرى الى النباهة طلقا بعيدا ، فتهادته الدول ، وانتهت اليه التفصيلات والجمل ، وكلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد ، واياه قصد ، فجرى مع كل أحد ، وتمول فى كل بلد ، وتلون فى العلوم تلون الزمان ، وتلاعب بالملوك بأفقنا تلاعب الرياح بالأغصان ، حتى ظفر به المأمون بن ذي النون ، فشد عليه يد الضنين ، فوجد كنفا سهلا ، وسلطانا غفلا ، فسر وساء ، وارتسم فى أى الدواوين شاء ، وكان بالطب أكلف ، وعليه أوقف ، فتعلق بسببه ، حتى اشتهر به ، ولم يكن من النفوذ فيه حسبما استذاع عنه الخبر ، خلا أنه كان – زعموا – بصيرا بطب النظر ، وكان مع ما يحمله من هذا الفن حسن البيان مليح المجلس ، حاضر الجواب كثير النادر ، راوية للشعر والمثل السائر ، نسابة للمفاخر ، عارفا بالمثالب والمناقب ، وقفت له على شعر مجموع ، عاطل أكثره من حلى البديع ، وكان بالجملة روضة أدب ممتعا للمجلس ، وهيهات أن يأتى الدهر بمثله. وقد وصفه ابن حيان ، فى فصل قد أثبته فى أول هذا القسم من الديوان .

فلما انصرفت الدولة الذنونية ، تحيز أبو محمد الى اشبيلية ، فأنس المعتمد بمكانه ، وجعل له حظا من سلطانه ، ولم يزل فى من يتردد عليه ويغشاه ، حتى أشجاه من الخلع – حسبما وصفناه – ما أشجاه ، وبقى أبو محمد على حاله ، مشتملا بفضل جده واقباله ، غير مستريب بدهره ، ولا منكر لشىء من أمره ، ممتعا بآلاته ، مقبلا على لذاته ، الى أن توفى سنة ست وتسعين منتصف رجب الفرد.

وعلى ذكره ، فقد أجريت طرفا من نظمه ونثره ، منبها على مكانه ، ومشهدا على ما وصفت من شانه .

فصل له من رقعة خاطب بها المعتمد بن عباد ، وقد خرج عنه الى مالقة ، قبل القبض عليه ، واستفتحها بهذين البيتين :

وحلت وفى القلب جمر الغضا ... وهجرى لكم دون شك صواب
كما تهجر النفس حر الطعـام ... اذا [مـا] تساقط فيه الذبـاب

وهذا المعنى مشهور ، قد اندرج منه فى تضاعيف هذا التصنيف كثـير ، مثل قول بعضهم :

وتجتنب الليـوث ورود حوض ... اذا كـان الكـلاب يلغن فيـه
كما سقط الذبـاب على طعـام ... فتـتركـه ونـفسك تشتـهيـه

كتبت وقلبى متقـلب على جمر الغضا ، أحـر من الرمضا ، وصلت فقطعت ، وسامحت فقوبحت ، وارتفع علي البـاطل فما سومحت ، حميت بقرطبـة أهلك وبنيك ، وحفدتك وذويك ، أصبتهم فى منزل عالى الحيطان ، وثيق الأركان ، فى شهر كانون ، دون كن ولا كـانون ، ولا ما يدفـع عنهم ريب المنون ، أكف الرزايـا تصافحهم ، وجنوب المنايا تضاجعهم ، لا يمنعهم من القر شعـار ، ولا يحميهم منه دثار ، فأنفذت الفرش وآلاتهـا ، وما يتعلق بجهاتها ، وافتقدت بالطرف ، وتـاحفت بالتحف ، وصنـتهم صون الـدر فى الحقاق ، والسواد فى الأحداق ، والأطواق فى الأعناق ، ومن عندك يعلم هذا ولا ينكره ، ويشكره ولا يكفره ، وما كانت لك علي نعمة فأرعاها ، ولا سطوة فأخشاها ، وانما فعلت ذلك بالجوهرية التى ركبها الله فى نفسى ، والطبع الذى جبل عليه حسى :

ولكن أشخاص المعـالى خفية ... على كـل عين ليس تبصر باللب

فهل سبق لأحد مثل هذا الوفاء ، أو كان له شكـل هذا الولاء ، فان قيـل ان السموأل أتى بمثله وشكله ، فليس الخبر كما ظن ، ولا الأمر كما احتسب .

ومن شعره فى أوصاف شتى

قـال :

ريـم اذا رمت أن أحظى بمـوعـده ... أما ترى الـدر بالمرجان قـد جـارا
وان تـلطـفت لاستـنزال سورتـه ... ودمعه فوق روض الـورد قد حـارا
اذا تـذكـرت أيـامـا لنـا سلـفت ... خطت يد الشوق فى الأحشاء أسطارا
قـال الـوشاة ودمع العين منحـدر ... أصار قلبى لخيـل الهجر مضمـارا
يا مجرى الـدمع من عينيه فى ذهب ... أقـام لي بـلسان الخلـف أعـذارا
الـنـار يحـرقهـا قلـبى بـزفرتـه ... من العـجيب فـؤاد يحـرق النـارا

وقـال :

يـا نـاظرا قـد سـل من نـاظري ... الى سـواد القـلب والخـاطـر

طيفك لما نام عن زورتي زادك [زاد] الكلف الساهر
ظلك أضحى لي بلا مرية مؤثراً في خدك الناضر
ما أرفق الله بأهل الهوى اذ صير الجور على الحائر

وقد تقدم مثل هذا المعنى لعبد الجليل حيث يقول :

دعوت دعاء مظلوم عليه فعلق من عذاريه الذنوبا

وقال :

الحب داء دواؤه القبل والرسل بين الأحبة المقل
يا حفظ الله ليلة سلفت حيت ببدر سماؤه الكلل
بتنا وراح العفاف تلحفنا برد وفاء والشمل مشتمل
اثنان من شدة التعانق قد صارا كفرد بالروح يتصل
لو أن جود السماء أمطرنا لم يصب الأرض تحتنا بلل
حتى اذا غرة الصباح بدت وجفنه بالعبير مكتحل
فارقنى وهو خائف وجل نشوان من حمرة الصبا ثمل
عيناى منه قريرة أبداً والنار بين الضلوع تشتعل

وقال :

قالوا الصديق شقيق النفس قلت لهم ان الصديق مع العنقاء قد طارا
اسم لعمري بلا جسم ولا نفس الا كلاما بزور القول قد سارا
فما ترى غير من يسقيك من يده أرياً وفى قلبه قد أضمر النارا
فنادم الكتب ما عمرت ان لها عندى وعيشك أسرارا وأخبارا

ومن قصيد له فى ابن حماد بلقين أوله :

الرأى يسبق وقع الصارم الذكر والعزم يفصل بين الخبر والخبر
والناس قد جمعوا فى أصل خلقتهم لكنهم فرقوا فى اللب والنظر
كالنور أوله نار وبينهما من التفاضل ما يخفى على البشر
كما تهدى ابن حماد وقد طلعت طلائع السعد تحدوها يد القدر
والناس قد رجموا الأقوال من حذر وقال بعضهم هذا من الغرر
حتى اذا أظلم الخطب المهم لهم جلوته بصباح البيض والسمر
ليس الجسوم لها صبر ولا جلد وانما الصبر بالأرواح والفكر
لا تلق دهرك الا راكبا خطراً فانما تبلغ العلياء بالخطر

بيته الثانى ، من متداولات المعانى ، ومنها قول الأول :

الناس أخياف وشتى فى الشيم وكلهم يجمعهم بيت الأدم

وأخذه التهامى فقال :

الناس متفقون فى ايرادهم ... وتفاضل الأقوام فى الاصدار

وقوله : «ليس الجسوم لها صبر» ... البيت ، هو شبيه بقول الآخر :

فالعبد أصبر جسماً ... والحر أصبر قلبا

وقال من أخرى [يمدحه] ويذم بني رياح :

أبا المنصور ما للدهر عين ... سواك فوارها فهو الصلاح
ولا تتعرضن الى رياح ... فأعدى ما على العين الرياح
اذا حلفت رياح فاتهمها ... ورأس الحنث ما حلفت رياح
قبيلة لها فى اللؤم بأس ... وعند المكرمات لها جماح
سبال اللؤم لا كانت سبال ... وجوه الذل والخد الوقاح
أناس فى مفارقهم قرون ... ولكن بالفقاح هو النطاح
ولا تتزوجن لهم ببنت ... فللسودان عندهم مراح
بأرجلهن يستغفرن دأبا ... فأرجلهن فى الدعوات راح

وذكرت بمعنى هذا البيت الأخير منها خبراً أورده بعض الرواة عن شاعر أنشد زبيدة بنت جعفر شعرا قال فيه :

أزبيدة ابنة جعفر ... طوبى لزائرك المثاب
تعطين من رجليك ما ... تعطى الأكف من الرغاب

فجعل عبيدها يقرعون رأسه فقالت : دعوه فانه أراد خيراً فأخطأ ، وهو أحب الينا ممن أراد شراً فأصاب ، سمع قولهم : شمالك أندى من يمين فلان فظن [ان هذا مثل ذلك] .

وله من أخرى يستأذن فى الجواز الى الأندلس :

فيا أثلات الجزع من مربع الحمى ... فؤادي على تلك الرسوم ينوح
فعل أبى المنصور يدنى بسعده ... ركابى منها انه لنزوح

ومنها :

فسر انما العلياء شخص مصور ... وأنت له دون البرية روح
أتيت بأي أعجزت كل عالم ... كأنك من بعد المسيح مسيح
ولو جيت للانصاف ما جيت مادحا ... لأنك من تجر السماح صريح
ومن أصبحت [فيه] المكارم جوهراً ... بلا عرض فالمدح فيه قبيح
ولكن رأيت الشعر يثبت ذكره ... فلا غرو أن يهدى اليك مديح

وله من أخرى فى باديس بن حبوس :

رسخت أصول علاكم تحت الثرى ولكم على خط المجرة دار
تبدو شموس الدجن من أطواقكم وتفيض من ثني البنان بحار
ان المكارم صورة معلومة أنتم لها الأسماع والأبصار
ذلت لكم قمم الخلائق مثلما ذلت لشعرى فيكم الأشعار
فمتى مدحت ولا مدحت سواكم فمديحكم [فى] مدحه اضمار

وهذا من قول أبى نواس :

وان جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك انسانا فأنت الذى نعي

وأخذه المتنبي فقال :

وظنونى مدحتهم قديما وأنت بما مدحتهم مرادي

والمصرى أيضا القائل ، من قصيدة كأخواتها طويلة دون طائل ، أولها :

دعي لومى فما أنا بالمليم ولا من هجر سلمى بالسليم

يقول فيها :

وان شئت اختبار الناس جهراً ولم تك بالتجارب بالعليم
فجرب من تشا منهم عيانا وقد أصبحت فى بردي عديم
فان لم [تلف] ذلك مستحيلا وترعى منه فى مرعى وخيم
فقل انـي دعـى فى نزار وانـي ضد لقمان الحكيم
رأينا معشراً لبسوا ثيابا مجددة على عرض رميم
لهم دور مشيدة [ ] وأفعال محيلات الرسوم

ومن المدح :

وما يحتاج يوم الحرب جيشا فان عداه كالزرع الحطيم
وان أبقى لهم فرعون سحرا ففى يده عصا موسى الكليم

وقد تقدم الى هذا المعنى أبو نواس بقوله . ونذكر خبرا يتعلق بذيله : كان أبو نواس قوى البديهة ، ويرتجل كل ما يقول ولا يرويه ، فقال له الخصيب يوما وهو يمازحه بالمسجد الجامع ، أنت فى الشعر غير مدافع ولا منازع ، ولكنك لا تخطب ، فقام من فوره يقول مرتجلا :

منحتكم يا أهل [مصر] نصيحتى ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية ... أكول لحيات القلوب شروب
فان يك باقى سحر فرعون فيكم ... فان عصا موسى بكف خصيب

ثم التفت اليه وقال : والله لا يأتى بمثلها خطيب مصقع ، فاعتذر اليه وأقسم أنه ما قال ذلك الا مازحاً .

وقول المصرى : «معشراً لبسوا ثياباً» ... البيت مع الذى بعده ، ألم فيه بقول منصور الفقيه :

لبس الثياب وتشييد القصور وفى ... تلك الثياب علتها أنفس خربه
لأضربن رجائي ألف مقرعة ... فيكم وأصلب آمالى على خشبه

وقال المصرى فى ابن مجاهد من قصيدة ، يرثي مهراً أخذ له ، وحكى أن الذئب أكله :

وقد أقمت لدهرى وهو يظلمني ... حتى وصلت علياً سيد العرب
وان يكن ليس منهم فى أرومته ... فانه منهم فى المجد والحسب
يا من اليه شكوناه فقال لنا ... شكوى القتيل [الى] الخطية السلب

ومنها :

يا ويح قلبى من دهر تعمدنى ... بالنائبات فلاذت بي يد النوب
حتى بمهر هضيم الكشح ذي هيف ... كأن أجزاءه جاب على نسب
حلو الصهيل له فى صوته فتن ... كأنه حين يشدو بالثقيل ربب
لولا تشكله فى حين خلقته ... بالخيل أضحى مع العقبان فى نصب
يا يوسف الخيل يا مقتول اخوته ... قلبى لفقدك بين الحرب والحرب
ان كان يعقوب لم يقنع بكذبهم ... اني لأقنع منهم بالدم الكذب

ومنها :

وما التناسب .... ان لم تكن أنفس القربى ذوي نسب

وهذا من قول القائل :

.... اذا لم يرافقها انتساب قلوب

وقال من أخرى :

.... نفحة الخد جائل
لئن كنت من در القلائد عاطلا ... فان الظباء المشبهيك عواطل

.... وكل رسول قد بعثت مماطل
سقاني وخد الفجر يلطمه الضحى شمولا لها من وجنتيه شمائل
.... بهارا فأجدى ما علينا الرسائل
عليك زكاة من جمال وغرة وأنت بمفروض الزكاة تماطل

ومنها :

فصاح وشاح هز .... اليك ولكن لم تجبه الخلاخل
رعى الله دهرا قد نعمنا بطيبه لياليه من شمس الكؤوس أصائل
لدى روضة غناء غنت قيانها وجاوبت الألحان منها البلابل
ونرجسها [در] على التبر جامد وقهوتها تبر على الدر سائل
وان سأل الأقوام عن عرض منزلى فانى ما بين السماكين نازل
وأنى قد قلدت سيف مآثر له من علي المكرمات حمائل

الى أبيات غير هذه من قصيدة طويلة اهتدم فيها أبو محمد قصيدتى أبى الطيب والمعرى اللتين فى وزنها ورويها ، وقوله : «عليك زكاة من جمال» ... البيت ، من قول المعرى أيضا :

لغيرى زكاة من جمال فان تكن زكاة جمال فاذكرى ابن سبيل

وعلى [ذكر] هذه الزكاة فما أملح ملح البسني فى تلك الفقهيات حيث يقول :

أقول لشادن فى الحسن فد يصيد بلحظه لحظ الكمي
ملكت الحسن أجمع من نظام فأد زكاة منظرك البهى
وذلك أن تجود لمستهام برشف من مقلك الشهي
فقال أبو حنيفة لي امام ويفتي لا زكاة على الصبي

وقال الحصرى الكفيف فى مثله :

وظبي غرير هز أعطافه اللين وسمته ريحان المحب الرياحين
أقول له والحب يفتي برخصة عليك زكاة [ما] ونحن مساكين
فقال ولم يعلم زكاة أردتها وكيف أؤديها ولم يحن الحين
فقلت زكاة الحسن أعنى فقال لا أؤديك فالعشاق [ليس] لهم دين

جملة من مقطوعات المصرى فى فنون مختلفة

فى صفة قصر طليطلة :

قصر يقصر عن مـداه الفرقد   عذبت مصادره وطـاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم   فعليه ألـوية السعادة تعقـد
وكـأنما المـأمون فى أرجائـه   بـدر تمـام قـابلتـه أسعـد
وكـأنما الأقـداح فى راحـاته   در جمـاد ذاب فيه العسجـد

وله فى صفة البركة والقبة عليها :

شمسيـة الأنسـاب بـدريـة   يحـار فى تشبيههـا الخـاطر
كـأنما المـأمون بـدر الدجى   وهى عليـه الفلـك الـدائـر

وله فى صفة عود :

يـا حبذا العود فكـم من فتى   بـاح لـه الـيم بأسراريـه
غنت عليه الطير رطبـا وقـد   غـنت بـه لمـا قسا جـاريـه
فهو على أخلاقهـا قـد جرى   وهى عـلى أخـلاقه جـاريـه

وبيته الثالث كقول ابن قاضى ميلة :

جاءت بعـود ينـاغيها ويسعدها   فانظر بدائع ما خصت به الشجر
غنت على عوده الأطيـار مفصحة   غضـا فـلمـا ذوي بـه الـبشر
فـلا يـزال عليـه أو بـه طـرب   يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

وقال المصرى من جملة أبيات خاطب بهـا صاحب المدينة يشفع للفقيه البـر الطليطلى :

يـا ماجـدا أصبح من رفـعـة   منـزلـه تحت نجـوم الفلـك
هذا الفقيـه البـر مـا ذنبـه   لقـد غـدا قـبـرة فى الشرك
أيـؤخذ المسكـين مـع فتيـة   قـد عقدوا الأمر لحـل التكك
وقارعوا بالبيض بيض الخصى   وطاعنوا الأشراج [فى] المعترك

وهذا مثـل ما أنشدنيه لنفسه أبو بكر الخولانى المنجم ، مما خاطب به بعض الحكام يشفع للقلمندر ، وقد أخذ فى مثل ذلك سكرانا :

ان درء الـحـدود بـالشبهـات   لحـديث رواه [كـل] الـثـقـات
مـا أراه الا تـنـاول تـفـا   حـا فنـمت عليـه فى الطرقـات

نفحـات التفـاح والـراح والأتـــرج للـمـرء جـد مشتـبـهـات
فبـتلـك الشمائـل المخجـلات الـــروض غـب الغمـائم الهاطلات
وبحلـم اليـه مـذ كـنت تعـزى وبـصبـر تـعـزى لـه وأنـــاة
اعـف عنـه وأعفـه من ثمـانيـــن تـدمي أعطـافـه المائسات
وأقـــل ذنـبـه وعـثـرتـه فهـــو بمـرآه مـن ذوي الـهيئـات

وقــال :

وشادن طـالـبتـه قبـلـة فأظهر الاعـراض والصـدا
وأرسل الـدر على عسجـد من سبـج فـانتظما عقـدا
فقلت اذ أبصرتـه بـاكيـأ نرجسة العـين سقت وردا

وهذا كقول [الآخر] :

كأن تلك الدموع قطر نـدى تسقط من نرجس عـلى ورد

وقال فى صباه فى طريق بلاد المشرق وقافلا من الحجاز :

ألا يـا هند قـد قضيت حجـى فهـات شرابك العطر العجيبا
فقـد ذهبت ذنوبى فى الليـالى فقومى الآن نقتـرف الذنوبـا
خلطنا مـاء زمزم فى حشانـا بمـاء الكـرم فامتزجا قريبـا
وطـاف بهـا غـزال كسروي طبيب النفس يـدعوه طبيبـا
أطـاعتـه الجسوم فساعدتـه كذاك يكـون من ملك القلوبـا
بـدا غصنـا وأطلـع بدر تـم وأضمـر فى مـآزره الكثيبـا
نـراه فى تـواصلـه بـعيـدا ونلـقى وعـده أبـدا قريبـا

وقــال :

أي هـلال أطـل فـيـنـا مطلعـه الطوق والجيـوب
كحيـل طـرف ثقيـل ردف مبسمه اللـؤلـؤ الـرطيب
يقودنـا كيف شاء طوعـا لأن أعـوانـه الـقـلـوب

وله فى بعض اخوانه وقد عذر غلام كان يهواه :

يـا ذا الـذى عذر خـل لـه أتحت عيش العز معنى الهوان
لـم ينـبت الشعر على خـده بـل دب فى أعضائه عقربـان
رفقـا عـلى نـفسك لا تفنهـا فجـوهر الأنفس شىء يصان
وسقـه مــن مـزة عـتـقـت لتقتضى الحب بـلا ترجمـان

وله فى غلام وسيم رمدت عيناه :

قال خلى وجفوني لا تغطي مقلتيها
سقم عيني أراه بعث السقم اليها
أم ترى توريد خدي نقض الورد عليها
قلت لا أدري ولكن أنا من قتلى يديها

وقال :

رمدت عيني فجاءوا دون رأيى بطبيب
وطبيب العين أعمى فى مداواة القلوب
رمدي من فقد خلى فاكحلوني بالحبيب

قال ابن السيد فى وصف مجلس المأمون بن ذي النون :

يا منظرا ان نظرت بهجته أذكرني حسن جنة الخلد
تربة مسك ، وجو عنبرة ، وغيم ند ، وطش ما ورد
والماء كاللازورد قد نظمت فيه اللآلى فواغر الأسد
كأنما جاثل الحباب به يلعب فى جانبيه بالنرد
تراه يزهو اذا يحل به الـ مأمون زهو الفتاة بالعقد
تخاله ان بدا به قمرا تما بدا فى مطالع السعد
كأنما ألبست حدائقه ما حاز من شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها بوابل من يمينه رغد
لا زال فى رفعة مضاعفة متمم الرفد واري الزند

وقال الفتح بن خاقان فى وصف هذا المجلس بعينه ، فى الكتاب الذى أفرده لترجمة ابن السيد ، ما صورته : فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس الناعورة بطليطلة فى المنية المتناهية البهاء والاشراق ، المباهية لزوراء العراق ، التى ينفح شذاها العطر ، ويكاد من الغضارة يمطر ، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه ، وحكم العقار فى جوده ونداه ، والمجلس يشرق كالشمس فى الحمل ، ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل ، والزهر عبق ، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب يئن كناقة اثر حوار ، الى آخر ما سبق .

وقال ابن ظافر فى وصف هذا المجلس حاذيا حذو الفتح ، ما صورته : حضر الأستاذ أبو محمد ابن السيد عند المأمون ابن ذي النون فى بعض منتزهاته ، فى

وقت طاب نعيمه ، وسترت بالسعود نجومه ، والروض قد أجاد وشيه راقمه ، والماء قد جرت بين الأعشاب أراقمه ، وثم بركة مملوة ، كأنها مرآة مجلوة ، قد اتخذت سباع الصفر بشاطئها غابا ، ومجت بها من سائغ الماء لعايا ، فكأنها آساد عين ، أدلعت ألسنة من لجين ، وهى لا تزال تقذف الماء ولا تفتر ، وتنظم لآلى الحباب بعدما تنتثر ، فأمره بوصف ذلك الموضع ، الذى تخد اليه ركائب القلوب وتوضع ، فقال بديها «يا منظراً ... الخ» .

● ومنهم الوزير أبو الفضل محمد بن عبد الواحد بن عبد العزيز بن الحارث ابن أسد بن الليث بن سليمان بن الأسود بن سفيان التميمي ، الدارمى ، البغدادي سمع من أبى طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص وغيره ، وخرج من بغداد رسولا عن أمير المؤمنين القائم بأمر الله العباسى رضى الله تعالى عنه الى صاحب افريقية المعز بن باديس ، واجتمع مع أبى العلاء المعري بالمعرة ، وأنشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب ، فقبل عينيه ، وقال له : لله أنت من ناظم ؛ وخرج من افريقية من أجل فتنة العرب ، وخيم عند المأمون ابن ذي النون **بطليطلة** ، وله فيه أمداح كثيرة ، ومن فرائد شعره قوله :

يا ليل ألا انجليت عن فلق ... طلت ولا صبر لى على الأرق
جفا لحاظي التغميض فيك فما ... تطبق أجفانها على الحدق
كأننى صورة ممثلة ... ناظرها الدهر غير منطبق

وقال :

يزرع ورداً ناضراً ناظري ... فى وجنة كالقمر الطالع
أمنع أن أقطف أزهاره ... فى سنة المتبوع والتابع
فلم منعتم شفتى قطفها ... والحكم أن الزرع للزارع

هكذا نسبها له غير واحد كابن سعيد وابن كتيلة ، وبعضهم ينسبها للقاضى عبد الوهاب .

قلت : وقد أجاب عنها بعض المغاربة بقوله :

سلمت أن الحكم ما قلتم ... وهو الذى نص عن الشارع
فكيف تبغى شفة قطفه ... وغيرها المدعو بالزارع

ورده شيخ شيوخ شيوخنا الامام الحافظ أبو عبد الله التنسى ثم التلمسانى بقوله :

فى ذا الـذى قد قلـتم مبـحث   اذ فيـه ايهـام عـلى السامـع
سلـمتـم الحكـم لـه مطلقـا   وغيـر ذا نـص عن الشـارع

يعنى أنه يلزم على قول المجيب أن يباح له النظر مطلقا ، والشرع خلافه .

وأجاب بعض الحنفية بقوله :

لأن أهـل الحـب فى حـكمنـا   عبـيدنـا فى شرعنـا الـواسع
والعبـد لا ملـك لـه عنـدنـا   فـحـقـه للـسـيـد المـانـع

وهو جواب حسن لا بأس به .

ورأيت جوابا لبعض المغاربة على غير روية ، وهو :

قـل لأبى الفضل الوزير الذى   بـاهـى بـه مغـربنـا الشرق
غرست ظلمـا وأردت الجـنى   ومـا لـعـرق ظـالـم حـق

قلت : وهذا مما يعين أن الأبيات لأبى الفضل الدارمى المذكور فى الذخيرة ، لا للقاضى عبد الوهاب ، والله تعالى أعلم .

ومن شعر الوزير المذكور قوله :

بين كـريمـين منـزل واسـع   والـود حـال تقـرب الشاسع
والبـيت ان ضاق عن ثمـانية   مـتسع بـالـوداد للتـاسـع

وولد رحمه الله تعالى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة ، وهو من بيت علم وأدب ، قال الحميدي :أخبرنى بذلك أبو عمر رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث ، وتوفى **بطليطلة** سنة أربع وخمسين وأربعمائة ، وقال ابن حيان : توفى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، فى كنف المأمون يحيى بن ذي النون ، وذكر أنه كان يهتم بالكذب ، فالله تعالى أعلم بحقيقة الأمر .

وقال ابن ظافر فى كتابه «بدائع البدائه» ما نصه : حضر أبو الفضل الدارمى البغدادى مجلس المعز بن باديس ، وبالمجلس ساق وسيم قـد مسك عذاره ورد خديه ، وعجزت الراح أن تفعل فى الندامى فعل عينيه ، فأمره المعز بوصفه ، فقال بـديها :

ومعـذر نـقش الجمـال بمسكـه   خـدأ له بـدم القلـوب مضرجـا
لمـا تيـقن أن سيـف جفـونـه   من نرجس جعـل العذار بنفسجا

وقوله فى جارية تبخرت بالند :

ومحطوطة المتنين مهضومة الحشا　　منعمة الأرداف تدمى من اللمس
اذا ما دخان الند من جيبها علا　　على وجهها أبصرت غيما على شمس

وقوله :

لأغررن بمهجتى فى حبه　　غررا يطيل مع الخطوب خطابى
ولئن تعزز ان عندى ذلة　　تستعطف الأعداء للأحباب

● [قصور بني ذي النون]

وتذكرت بما وصفه من مجلس الناصر ما حكاه غير واحد عن القصر العظيم الذى شاده ملك طليطلة المأمون ابن ذي النون بها ، وذلك أنه أتقنه الى الغاية ، وأنفق عليه أموالا طائلة ، وصنع فى وسطه بحيرة ، وصنع فى وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض ، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولا يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب ، وبينما هو فيها مع جواريه ذات ليلة اذ سمع منشداً ينشد :

أتبنى بناء الخالدين ، وانما　　بقاؤك فيها لو علمت قليل
لقد كان فى ظل الأراك كفاية　　لمن كل يوم يقتضيه رحيل

فنغص عليه حاله ، وقال : انا لله وانا اليه راجعون ، أظن أن الأجل قد قرب ، فلم يلبث بعدها غير شهر وتوفى ، ولم يجلس فى تلك القبة بعدها ، وذلك سنة ٤٦٧ تجاوز الله تعالى عنه ، هكذا حكاه بعض مؤرخى المغرب .

وقد ذكر فى غير هذا الموضع من هذا الكتاب حكاية هذه القبة بلفظ ابن بدرون شارح العبدونية فليراجع .

وتذكرت هنا قول أبى محمد المصرى فى صفة قصر **طليطلة** :

قصر يقصر عن مداه الفرقد　　عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم　　فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون فى أرجائه　　بدر تمام قابلته أسعد
وكأنما الأقداح فى راحاته　　در جماد ذاب فيه العسجد

وله فى صفة البركة والقبة عليها :

شمسية الأنساب بدرية   يحار فى تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدر الدجى   وهى عليه الفلك الدائر

● [بين دون بطره وأبى الوليد ابن الأحمر]

وبعد مدة ألب ملوك النصارى سنة تسع عشرة وسبعمائة على غرناطة ، وجاءها الطاغية دون بطره فى جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا ، وكان من خبر هذه الوقعة أن الافرنج حشدوا وجمعوا وذهب سلطانهم دون بطره الى طليطلة ، ودخل على مرجعهم الذى يقال له البابا ، وسجد له ، وتضرع ، وطلب منه استئصال ما بقى من المسلمين بالاندلس ، وأكد عزمه ، فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها ، وعزموا على الاستنجاد بالمرينى أبى سعيد صاحب فاس ، وأنفذوا اليه رسلا ، فلم ينجح ذلك الدواء ، فرجعوا الى أعظم الأدوية وهو اللجأ الى الله تعالى ، وأخلصوا النيات ، وأقبل الافرنج فى جموع لا تحصى ، فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزم أمم النصرانية ، وقتل طاغيتهم دون بطره ومن معه ، وكان نصرا عزيزا ويوما مشهودا .

وكان السلطان اذ ذاك بالاندلس الغالب بالله أبو الوليد اسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد فرج بن نصر المعروف بابن الأحمر رغب أن يحصن البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء ، فانتدب السلطان ابن الأحمر لردهم ، وجهز الأساطيل والرجال ، فلما رأوا ذلك طلبوا الى **طليطلة** ، وعزموا على استئصال بلاد المسلمين وتأهبوا لذلك غاية الأهبة ، ووصلت الأثقال والمجانيق وآلات الحصار والأقوات فى المراكب ، ووصل العدو الى غرناطة ، وامتلأت الأرض بهم ، فتقدم السلطان الى شيخ الغزاة الشيخ العالم أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء المريني بالخروج الى لقائهم بأنجاد المسلمين وشجعانهم ، فخرج اليهم يوم الخميس الموفى عشرين لربيع الأول .

ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على ضيعة من المسلمين ، فخرجت اليهم جماعة من فرسان الاندلس الرماة ، فقطعوهم عن الجيش ، وفرت تلك السرية أمامهم الى جهة سلطانهم ، فتبعهم المسلمون الى الصبح ، فاستأصلوهم ، وكان هذا أول النصر .

ولما كان يوم الأحد ركب الشيخ أبو سعيد لقتال العدو فى خمسة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من اقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة ، فركبوا وحملوا بجملتهم عليهم ، فانهزم الفرنج أقبح هزيمة ،

وأخذتهم السيوف ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاث أيام ، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال ، وأخذ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة منها من الذهب – فيما قيل – ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطارا، ومن السبي سبعة آلاف نفس حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين الى الديار المصرية ، وكان من جملة الأسرى امرأة الطاغية وأولاده ، فبذلت فى نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصنا فيما حكى بعض المؤرخين ، فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدة القتلى فى هذه الغزوة على خمسين ألفا ، ويقال : انه هلك منهم بالوادي مثل هذا العدد ، لعدم معرفتهم بالطريق ، وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون ، وقتل الملوك الخمسة والعشرون جميعهم ، واستمر البيع فى الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر ، ووردت البشائر بهذا النصر العظيم الى سائر البلاد .

ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارسا ، وقيل عشرة أنفس ، وقيل : كان عسكر الاسلام نحو ألف وخمسمائة فارس ، والرجالة نحوا من أربعة آلاف راجل ، وقيل دون ذلك .

وكانت الغنيمة تفوت الوصف ، وسلخ الطاغية دون بطره وحشي جلده قطنا ، وعلق على باب غرناطة ، وبقى معلقا سنوات ؛ وطلبت النصارى الهدنة ، فعقدت لهم بعد أن ملكوا جبل الفتح الذى كان من أعمال سلطان فاس والمغرب ، وهو جبل طارق ، ولم يزل بأيديهم الى أن ارتجعه أمير المسلمين أبو الحسن المريني صاحب فاس والمغرب ، بعد أن أنفق عليه الأموال ، وصرف اليه الجنود والحشود ، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصه ، وضيقوا به ، الى أن استرجعوه ليد المسلمين ، واهتم ببنائه وتحصينه ، وأنفق عليه أحمال مال فى بنائه وحصنه وسوره وأبراجه وجامعه ودوره ومخازنه ، ولما كاد يتم ذلك نازله العدوا برا وبحرا ، فصبر المسلمون ، وخيب الله سعي الكافرين ، فأراد السلطان المذكور أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدو فى منازلته، ولا يجد سبيلا للتضييق عند محاصرته ، ورأى الناس ذلك من المحال ، فأنفق الأموال ، وأنصف العمال ، فأحاط بمجموعه احاطة الهالة بالهلال ، وكان بقاء هذا الجبل بيد العدو نيفا وعشرين سنة ، وحاصره السلطان أبو الحسن ستة أشهر ، وزاد فى تحصينه ابنه السلطان أبو عنان ، ولما أجاز السلطان أبو الحسن المذكور الى الاندلس ، واجتمع عليه ابن الأحمر ، وقاتلهم الطاغية ، هزمهم فى وقعة طريف ، واستولى على الجزيرة الخضراء ، حتى قيض الله من بنى الأحمر الغنى بالله محمداً الذى كان لسان الدين ابن الخطيب وزيره ، فاسترجعها وجملة بلاد كجيان وغيرها .

[حريز بن عكاشة]

● ومن غريب ما يحكى من قوة أهل الاندلس وشجاعتهم : أن الأمير حريز بن عكاشة من ذرية عكاشة بن محصن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بساحة أذفونش ملك ملوك الروم ، فبدأهم بخراب ضياعها وقطع الشجر ، فكتب اليه حريز : ليس من أخلاق القدير، الفساد والتدمير ، فان قدرت على البلاد أفسدت ملكك ، ولو كان الملك فى عشرة أمثال عددي لم ينزل لى بساحة ، ولا تمكن منها براحة ، فلما وصلته الرسالة عف ، وأمر بالكف ، وبعث الملك يرغبه فى الاجتماع به ، فاسترهنه فى نفسه عدة من ملوك الروم ، فأجاب الى ما ارتهن ، ولما صاروا بالمدينة البيضاء – وهى قلعة رباح غربي **طليطلة** – خرج حريز لابسا لأمة حربه، يرمق الروم منه شخصا أوتى بسطة فى الجسم والبسالة يتعجبون من آلات حربه ، ويتحدثون بشجاعة قلبه . ولما وصل فسطاط الملك تلقته الملوك بالرحب والسعة ، ولما أراد النزول عن فرسه ركز رمحه ، فأبصر الملك منه هيئة تشهد له بما عنه حدث ، وهيبة يجزع للقائها الشجاع ويكترث ، فدعاه الى البراز عظيم أبطالهم ، فقال له الملك : يا حريز أريد أن أنظر الى مبارزتك هذا البطل ، فقال له حريز : المبارز لا يبارز الا أكفاءه ، وان لى بينة على صدق قولى أن ليس لى فيهم كفء ، هذا رمحي قد ركزته ، فمن ركب واقتلعه بارزته ، كان واحدا أو عشرة ، فركب عظيمهم فلم يهز الرمح من مكانه حين رامه ، ثم فعل ذلك مرارا ، فقال له الملك : أرني يا حريز كيف تقلعه ، فركب وأشار بيده واقتعله ، فعجب القوم ، ووصله الملك وأكرمه ، انتهى .

وكان حريز هذا شاعرا ، ولما اجتاز به كاتب ابن ذي النون الوزير أبو المطرف ابن المثنى كتب اليه :

يا فريداً دون ثان   وهلالا فى العيان
عدم الراح فصارت   مثل دهن البيلسان

فجاوبه حريز ، وهو يومئذ أمير قلعته :

يا فريداً لا يجارى   بين أبناء الزمان
جاء من شعرك روض   جاده صوب البيان
فبعثناها سلافا   كسجاياك الحسان

وكان لحريز كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد ، فأمره أن يكتب الى المأمون بن ذي النون فى شأن حصن دخله النصارى ، فكتب : وقد بلغنى أن الحصن الفلاني دخله النصارى ان شاء الله تعالى ، فهذه الواقعة التى ذكرها

الله تعالى فى القرآن ، بل هى الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان ، فانا لله على هذه المصيبة التى هدت قواعد المسلمين ، وأبقت فى قلوبهم حسرة الى يوم الدين . فلما وصل الكتاب للمأمون ضحك حتى وقع للأرض ، وكتب لابن عكاشة جوابه ، وفيه : وقد عهدناك منتقيا لأمورك ، نقادا لصغيرك وكبيرك ، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجلف ، وأسندت اليه الكتب عنك دون أن تطلع عليه ، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ، ورائد عقله خطابه ، وما أدري من أى شىء يتعجب منه ، هل من تعليقه ان شاء الله تعالى بالماضى ؟ أم من حسن تفسيره للقرآن ووضعه مواضعه ؟ أم من تورعه عن تأويله الا بتوقيف من سماع عن امام ؟ أم من تهوينه لما طرأ على من يخاطبه ؟ أم من علمه بشأن هذا الحصن الذى لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد عن عظمه وهوله شيئا ؟ ولو أن حقيرا يخفى عن علم الله تعالى لخفى عنه هذا الحصن ، ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى ، منقطع عن بلاد الاسلام ، خارج عن سلك النظام ، لا يعبره الا لص فاجر ، أو قاطع طريق غير متظاهر ، حراسه لا يتجاوزون الخمسين ، ولا يرون خبز البر عندهم الا فى بعض السنين ، باعه أحدهم بعشرين دينارا ، ولعمرى انه لم يغبن فى بيعه ولا ربح أرباب ابتياعه ، وأراح من الشين بنسبته والنظر فى خداعه ، فليت شعرى ما الذى عظمه فى عين هذا الجاهل ، حتى خطب فى أمره بما لم يخطب به فى حرب وائل .

فلما وقف حريز على الكتاب كتب لابن ذي النون جوابا منه : وان المذكور ممن له حرمة قديمة ، تغنيه عن أن يمت بسواها ، وخدمة محمود أولاها وأخراها ، ولسنا ممن اتسعت مملكته ، وعظمت حضرته ، فنحتاج الى انتقاء الكتاب ، والتحفظ فى الخطاب ، وانما نحن أحلاس ثغور ، وكتاب كتائب لا سطور ، وان كان الكاتب المذكور لا يحسن فيما يلقيه على القلم ، فانه يحسن كيف يصنع فى مواطن الكرم ، وله الوفاء الذى تحدث به فلان وفلان ، بل سارت بشأنه فى أقصى البلاد الركبان ، وليس ذلك يقدح عندنا فيه ، بل زاده لكونه دالا على صحة الباطن والسذاجة فى الاكرام والتنويه ، انتهى .

ولهذا الكاتب شعر يسقط فيه سقوط الأغبياء ، وقد يتنبه فيه تنبه الأذكياء ، فمنه قوله من قصيدة يمدح حريزا المذكور مطلعها :

يذكرني بهم العنبر　　　وظلم ثناياهم سكر

الى أن قال :

ولولا معاليك يا ذا الندى　　　لما كان فى الارض من يشعر
فلا تنكرن زحاما على　　　ذراك وفى كفك الكوثر

ومشى فى موكبه وهم فى سفر ، وكان فى فصل المطـر والطين ، فجعـل فرسه فى ذنب فرس ابن عكاشة ، فلما أثارت يدا فرسه طينا جاء فى عنق أميره ، ففطن لذلك الأمير ، فقال له : يـا أبا محمد ، تقدم ، فقال : معـاذ الله أن أسيء الأدب بالتقدم على أميري ، فقال : فان كان كذلك فتأخر مع الخيل ، فقال : مثلى لا يزال عن ركابك فى مثل هذه المواضع ، فقال له : فقد والله أهلكتنى بما ترمى يدا فرسك علي من الطين ، فقال : أعز الله الامير ، يعذرني ، فوالله ما علمت أن يد فرسى تصل الى عنقك ، فضحك ابن عكاشة حتى كاد يسقط عن مركوبه .

● وقال القاضى الأديب ، والفيلسوف الأريب ، أبو الوليد الوقشى قاضى طليطلـة :

بـرح بـي أن علـوم الـورى — قسمان ما ان فيهما من مزيـد
حقيقـة يعجـز تـحصيـلهـا — وبـاطـل تحصيلـه لا يـفيـد

[وفود أردون على المستنصر]

● وفى آخر صفر من سنة احدى وخمسين أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله مولييه محمدا وزيادا ابني أفلح الناصري بكتيبة من الحشم لتلقي غالب الناصرى صاحب مدينة سالم المورد للطاغية أردون بن أذفونش الخبيث فى الدولة المتملك على طوائف من أمم الجلالقة والمنازع لابن عمه الملك قبلـه شانجه بن رذمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طـالب اذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه فى التأهب له ، فاحتال فى تأميل المستنصر بالله والارتماء عليه ، وخرج قبـل أمان يعقد لـه أو ذمـة تعصمه فى عشرين رجـلا من وجوه أصحابه ، تكنفهم غالب الناصرى الذى خرجوا اليه ، فجاء به نحو مولاه الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفي فى جيش عظيم كامل التعبية، وتقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها ، فلما انتهى أردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله فأشير الى ما يوازي موضعه من داخل القصر فى الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه . وأمر المستنصر بانزال أردون فى دار الناعورة ، وقد كان تقدم فى فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغـاية ، وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه ، فأقـام بها الخميس والجمعة ، فلما كان يوم السبت تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد اقامة الترتيب وتعبية

الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الاخوة وبنوهم والوزراء ونظراؤهم صفا فى المجلس فيهم القاضى منذر بن سعيد والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طملس بالملك أردون وأصحابه وعالى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض وبليوال من جنسه وفى لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالاندلس يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن خيزران قاضى النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران **طليطلة** وغيرهما ، فدخل بين صفي الترتيب يقلب الطرف فى نظم الصفوف، ويجيل الفكر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها ورائق حليتها ، فراعهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رؤوسهم غاضين من أجفانهم قد سكرت أبصارهم حتى وصلوا الى باب الأقباء أول باب قصر الزهراء ، فترجل جميع من كان خرج الى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه على دوابهم ، حتى انتهوا الى باب السدة ، فأمر القوامس بالترجل هنالك والمشى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طملس ، فأنزل فى برطل البهو الأوسط من الأبهاء القبلية التى بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضة ، وفى هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجه بن رذمير الوافد على الناصر لدين الله - رحمه الله تعالى - فقعد أردون على الكرسى ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الاذن لأردون الملك من المستنصر بالله بالدخول عليه ، فتقدم يمشي وأصحابه يتبعونه الى أن وصل الى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقى الذى فيه المستنصر بالله وقف وكشف رأسه وخلع برنسه ، وبقى حاسرا اعظاما لما بان له من الدنو الى السرير ، واستنهض فمضى بين الصفين المرتبين فى ساحة السطح ، الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو ، فلما قابل السرير خرا ساجدا سويعة ، ثم استوى قائما ، ثم نهض خطوات ، وعاد الى السجود ، ووالى ذلك مرارا الى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى الى يده فناوله اياها وكر راكعا مقهقرا على عقبه الى وساد ديباج مثقل بالذهب ، جعل له هناك ، ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ، فجلس عليه ، والبهر قد علاه ، وأنهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممتثلين فى تكرير الخنوع وناولهم الخليفة يده فقبلوها وانصرفوا مقهقرين فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد ابن خيزران قاضى النصارى بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم، فأطرق الحكم عن تكليم الملك أردون اثر قعوده أمامه وقتاً كيما يفرخ روعه ، فلما رأى أن قد خفض عليه افتتح تكليمه فقال : ليسرك اقبالك ويغبطك تأميلك ، فلدينا لك من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته ، فلما ترجم له كلامه اياه تطلق وجه أردون ، وانحط عن مرتبته ، فقبل البساط ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين

مولاى ، المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم فى نفسه ورجاله ، فحيث وضعنى من فضله وعوضني من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ، ونصيحة خالصة ، فقال له الخليفة : أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينالك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ما يغبطك ، وتتعرف به فضل جنوحك الينا ، واستظلالك بظل سلطاننا ، فعاد أردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة ، وابتهل داعيا ، وقال : ان شانجه ابن عمي تقدم الى الخليفة الماضى مستجيرا به منى ، فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من أعاظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيته ، وأنكرت سيرته ، واختارتنى لمكانه من غير سعى منى علم الله ذلك ، ولا دعاء اليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطراً مضطهداً ، فتطول عليه — رحمه الله — بأن صرفه الى ملكه ، وقوي سلطانه ، وأعز نصره ، ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت اليه ، وقصر فى أداء المفروض عليه وحقه وحق مولاى أمير المؤمنين من بعده ، وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطانى وموضع أحكامى ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تحويه من رعيتى ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة ، فقال الخليفة : قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شأنه ، ويترادف من احساننا اليك أضعاف ما كان من أبينا — رضى الله تعالى عنه — الى ندك ، وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا ينقصك مما أنلناك ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ، ونشد أواخي ملكك ونملك جميع من انحاش اليك من أمتك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد الى يدك ، وسيترادف عليك من افضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل .

فكرر أردون الخضوع ، وأسهب فى الشكر ، وقام للانصراف مقهقرا لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكنفه الفتيان ، فأخرجوه الى المجلس الغربى فى السطح ، وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه من فخامة الخليفة وبهاء العزة ، فلما أن دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه انحط ساجدا اعظاما له ، ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذى بجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هنالك على وساد مثقل بالذهب ، وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام اليه ، وخنع له ، وأومأ الى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانحنى اليه فعانقه ، وجلس معه ، فغبطه ، ووعده من انجاز عدات الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصبت عليه الخلع الى أمر له بها الخليفة ، وكانت دراعه منسوجة بالذهب ، وبرنسا مثلها له لوزة مفرغة من خالص التبر مرصعة بالجوهر والياقوت ملأت عين العلج تجلة ، فخر ساجدا

وأعلن بالـدعاء ، ثم دعا الحاجب أصحابـه رجلا رجلا فخلـع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمـل جميع ذلك بحسب ما يصلح لهم ، وخر جميعهم خـانعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه فى أول البهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب عليه سرج حلى ولجام حلي مفرغ ، وانصرف مع ابن طملس الى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثلـه من الآلة والفرش والمـاعون ، واستقر أصحابه فيما لا كفـاء له من سعة التضييف وارغاد المعاش .

[بـنو ذي النون بطليطلة]

ومن أعظم ملوك الطوائف بنـو ذي النون ملوك **طليطلـة** من الثغر الجوفى ، وكـانت لهم دولة كبيرة ، وبلغوا فى البـذخ والترف الى الغاية ، ولهم الاعذار المشهور الذى يقال له «الاعذار الذنوني» وبه يضرب المثل عند أهل المغرب ، وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهـل المشرق ، والمـأمون من بني ذي النون هو صاحب ذلك ، وهو الذى عظـم بين ملوك الطوائف سلطانه ، وكـان بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة ، وغلب على قرطبة ، وملكها من يـد ابن عباد المعتمد ، وقتل ابنه أبا عمرو وغلب أيضا على بلنسية وأخذها من يد بني أبي عامر .

وفى أيـام حفيد المـأمون – وهو القادر بن ذي النون – كـان الطاغية ابن أذفونش قـد استفحل أمره ، لـمـا خلا الجو من مكان الدولة الخلافية ، وخف ما كان على كـاهله من أصر العرب ، فـاكتسح البسائط ، وضايق ابن ذي النون ، حتى أخذ من يـده **طليطلة** ، فخرج له عنها سنة ثمـان وسبعين وأربعمائة كما سبق ، وشرط عليه أن يظاهره على أهل بلنسية ، فقبـل شرطه ، وتسلمها [ابن] الفونش ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

[بنـو هود بسرقسطة]

ومن ملـوك الطوائف بالانـدلس بنو هود ملوك سرقسطة وما اليهـا ، ومن أشهرهم المقتـدر بالله ، وابنه يوسف المؤتمن ، وكان المؤتمن قـائما على العلوم الرياضية ، وله فيها تآليف ، ومنها كتاب الاستكمال والمنـاظر ؛ وولى بعده ابنه المستعين أحمد سنة أخذ **طليطلة** ، وعلى يده كانت وقعة وشقة – زحف سنة تسع وثمانين فى آلاف لا تحصى من المسلمين ليدافع الطاغية عن وشقة ، وكان محاصرا لها ، فلقيـه الطاغية وهزمه ، وهلك من المسلمين نحـو عشرة آلاف ، وهلك هو شهيدا سنة ثلاث وخمسمائة ، بظاهر سرقسطة فى زحف الطاغية اليها ، وولى ابنه

عبد الملك عماد الدولة ، وأخرجه الطاغية من سرقسطة سنة ثني عشرة ، وتولى ابنه سيف الدولة ، وبالغ فى النكاية بالطاغية ، ثم اتفق معه ، وانتقل بحشمه الى **طليطلة** ، فكان فيها حمامه .

ومن شعر المقتدر بن هود قوله رحمه الله فى مبانيه :

قصر السرور ومجلس الذهب　　بكما بلغت نهاية الأرب
لو لم يحز ملكى خلافكما　　كانت لدى كفاية الطلب

● [غزوة الأرك]

وولى الأمر بعد عبد المؤمن ابنه يوسف ، وأجاز الى الاندلس ، وكانت له مواقف فى جهاد العدو ، وولى بعده ابنه يعقوب المنصور الطائر الصيت ، وكانت له فى النصارى بالاندلس نكاية كبيرة ، ومن أعظمها غزوة الأرك التى تضاهى وقعة الزلاقة أو تزيد ، والأرك : موضع بنواحى بطليوس ، وكانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة ، وغنم فيها المسلمون ما عظم قدره ، وكان عدة من قتل من الفرنج – فيما قيل – مائة ألف وستة وأربعين ألفا ، وعدة الأسارى ثلاثين ألفا ، وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة ، والخيل ثمانين ألفا ، والبغال مائة ألف ، والحمير أربعمائة ألف ، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا ابل لهم ، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى ، وبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والفرس بخمسة دراهم ، والحمار بدرهم ، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفنش ملك النصارى الى **طليطلة** فى أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسا ولا دابة ، حتى يأخذ بالثأر ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعد ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه الى **طليطلة** وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها .

● ذكر ابن حيان والرازى والحجاري أن أكتبيان – ثاني قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدنيا وصفح نهر رومية بالصفر ، فأرخت الروم من ذلك العهد ، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة – أمر ببناء المدن العظيمة بالاندلس ، فبنيت فى مدته قرطبة واشبيلية وماردة وسرقسطة ، وانفرد الحجارى بأن أكتبيان المذكور وجه أربعة من أعيان ملوكه للأندلس فبنى كل واحد منهم مدينة فى الجهة التى ولاه عليها ، وسماها باسمه ، وأن هذه الأسماء الأربعة كانت أسماء لأولئك الملوك ، وغير الحجارى جعل أسماء هذه المدن مشتقة مما تقتضيه أوضاعها كما مر ؛ وذكروا أنه قد تداولت على قرطبة ولاة الروم الأخيرة

الذين هم بنو عيصو بن اسحاق بن ابراهيم ، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، الى أن انتزعها من أيديهم القوط من ولد يافث المتغلبون على الاندلس ، الى أن أخذها منهم المسلمون ، ولم تكن فى الجاهلية سريرا لسلطنة الاندلس ، بل كرسيا لخاص مملكتها ، وسعدت فى الاسلام ، فصارت سريرا للسلطنة العظمى الشاملة ، وقطبا للخلافة المروانية ، وصارت اشبيلية **وطليطلة** تبعا لها ، بعدما كان الأمر بالعكس .

● ومنهم أبو عبد الله الأنصارى ، وهو محمد بن ابراهيم بن موسى بن عبد السلام ، ويعرف بابن شق الليل ، من أهل **طليطلة** ، سمع بمصر أبا الفرج الصوفى وأبا القاسم الطحان الحافظ وأبا محمد ابن النحاس وأبا القاسم ابن ميسرة وأبا الحسن ابن بشر وغيرهم ، وسمع **بطليطلة** من جماعة ، وحدث عن جماعة من المحدثين كثيرة .

قال ابن بشكوال : وكان فقيها عالما ، واماما متكلما ، حافظا للفقه ، والحديث، قائما بهما متقنا لهما ، الا أن المعرفة بالحديث وأسماء رجاله والبصر بمعانيه وعلله كان أغلب عليه ، وكان مليح الخط ، جيد الضبط ، من أهل الرواية والدراية والمشاركة فى العلوم ، وكان أديبا شاعرا مجيدا لغويا دينا فاضلا ، كثير التصانيف والكلام على علم الحديث ، حلو الكلام فى تآليفه ، وله عناية بأصول الديانات واظهار الكرامات ، توفى بطلبيرة يوم الجمعة منتصف شعبان سنة ٤٥٥ ، رحمه الله تعالى .

● ومنهم محمد بن حزم بن بكر ، التنوخي ، من أهل **طليطلة** ، وسكن قرطبة ، يعرف بابن المديني ، سمع من أحمد بن خالد وغيره ، وصحبه محمد بن مسرة الجبلى قديما ، واختص بمرافقته فى طريق الحج ، ولازمه بعد انصرافه ، وكان من أهل الورع والانقباض ، وحكى عن ابن مسرة أنه كان فى سكناه المدينة يتتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم ابراهيم سرية النبي صلى الله عليه وسلم ، فقصد اليها فاذا دويرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها وطولها واحد قد شق فى وسطها بحائط ، وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى الى ذلك الفرش على خارج لطيف ، وفى أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبي صلى الله عليه وسلم فى الصيف ، قال : فرأيت أبا عبد الله بعدما صلى فى البيتين والسقيفة وفى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره ، فكشفته بعد انصرافى وهو ساكن فى الجبل عن ذلك ، فقال : هذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحالة فى العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان ، انتهى .

● ومن الراحلين من الاندلس الى المشرق يوسف بن يحيى بن يوسف الأزدى ، المعروف بالمغـــامى . من أهل قرطبـــة ، وأصله من **طليطلة** ، وهو من ذرية أبى هريرة رضى الله تعالى عنه .

سمع من يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان ، وروى عن عبد الملك بن حبـيب مصنفاته ، وارتحل الى مصر ، وسمع من يوسف بن يزيد القراطيسي ، وعاد الى الاندلس ، وكان فقيها ، نبيلا ، فصيحا [بصيراً] بالعربية ، ثم بعد عوده من مصر أقام بقرطبة أعواما ، ثم عاد الى مصر ، وأقام بها ، وسمع النـــاس منه ، وعظم أمره بالبلاد المشرقية ، ثم انه عاد الى المغرب فتوفى بالقيروان سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وبين بمصر «الواضحة» لابن حبيب ، وصنف شيئا فى الرد على الشافعية فى عشرة أجزاء ، وألف كتاب «فضائل مالك» رضى الله تعالى عنه .

والذى يرتضى أن من قلد اماما من المجتهدين لا ينبغى له أن يغض من قــدر غيره ، وان كان ولا بد من الانتصار لمذهبه وتقوية حجته فليكن ذلك بحسن أدب مع الأئمة ، رضى الله تعــالى عنهم ، فانهم على هدى من ربهم ، وقــد ضل بعض الناس فحمله التعصب لمذهبه على التصريح بما لا يجوز فى حق العلماء الذين هم نجوم الملة ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وقد حكى أبو عبد الله الوادى آشى – حسبما رأيته بخطه – أن القــاضى عبد الوهاب ابن نصر البغــدادى المالكى ألف كتابا لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب فى مائة جزء ، وسماه «النصرة لمذهب امام دار الهجرة» ، فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر ، فغرقه فى النيل ، فقضى الله تعالى أن السلطان فــرج بن برقوق سافر الى الشام ومعه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد ، فلم يستطع شيئـــا ، وهزم الى مصر ، وتفــرقت العساكر ، وأخذ القضاة والعلمـــاء أسارى ومن جملتهم ذلك القــاضى ، فبقى فى أسر تيمورلنك الى أن ارتحــل عن الشام ، فأخذه معه أسيرا الى أن وصل الى الفرات ، فغرق فيه ، أعنى القاضى ، فرأى بعض النـــاس أن ذلك بسبب تغريقه الكتـــاب المذكور ، والجزاء من جنس العمل ، والله تعالى أعلم .

[أشعـــار للحجـــام]

● وقال أبو تمام غالب بن رباح الحجام فى دولاب طار منه لوح فوقف :

وذات شـــدو ومـــا لهـــم حلـــم ... كلمحـــة العيـــن ثـــم أجراهـــا
وطـــار لـــوح بهـــا فـــأوقفهـــا ... كـــل فتـــى بـــالضمير حياهـــا

وكان المذكور ربي فى قلعة رباح غربى **طليطلة** ، ولا يعلم له أب ، وتعلم الحجامة فأتقنها ، ثم تعلق بالأدب حتى صار آية ، وهو القائل فى ثريا الجامع :

تحكى الثريا الثريا فى تألقها ‍ ‍ ‍ ‍ وقد عراها نسيم فهى تتقد
كأنها لذوي الايمان أفئدة ‍ ‍ ‍ ‍ من التخشع جوف الليل ترتعد

وقال :

زرت الحبيب ولا شيء أحاذره ‍ ‍ ‍ ‍ فى ليلة قد لوت بالغمض أشفارا
فى ليلة خلت من حسن كواكبها ‍ ‍ ‍ ‍ دراهما وحسبت البدر دينارا

وقال فى الثريا أيضا :

انظر الى سرج فى الليل مشرقة ‍ ‍ ‍ ‍ من الزجاج تراها وهى تلتهب
كأنها ألسن الحيات قد برزت ‍ ‍ ‍ ‍ عند الهجير فما تنفك تضطرب

وقال :

ترى النسر والقتلى على عدد الحصى ‍ ‍ ‍ ‍ وقد مزقت أحشاءها والترائبا
مضرجة مما أكلن كأنها ‍ ‍ ‍ ‍ عجائز بالحنا خضبن ذوائبا

وقال ، وقد أبدع غاية الابداع ، وأتى بما يحير الألباب ، وان كان أبو نواس فاتح هذا الباب :

وكأس ترى كسرى بها فى قرارة ‍ ‍ ‍ ‍ غريقا ولكن فى خليج من الخمر
وما صورته فارس عبثا به ‍ ‍ ‍ ‍ ولكنهم جاءوا بأخفى من السحر
أشاروا بما كانوا له فى حياته ‍ ‍ ‍ ‍ فنومى اليه بالسجود وما ندرى

وما أحلى قوله :

الأقحوان رمى عليك ظلامة ‍ ‍ ‍ ‍ لما عنفت عليه بالمسواك
لا يحمل النور الأنيق تمسه ‍ ‍ ‍ ‍ كف بعود بشامة وأراك
وجلاؤه المخلوق فيه قد كفى ‍ ‍ ‍ ‍ من أن يراع عراره بسواك

وقوله :

صغار الناس أكثرهم فسادا ‍ ‍ ‍ ‍ وليس لهم لصالحة نهوض
ألم تر فى سباع الطير سرا ‍ ‍ ‍ ‍ تسالمنا ، ويأكلنا البعوض

وقد بلغ غاية الاحسان فى قوله :

فما للملك ليس يرى مكانى　　وقد كحلت لواحظه بنورى
كذا المسواك مطرحا مهانا　　وقد أبقى جلاء فى الثغور

ومن حسناته قوله :

لى صاحب لا كان من صاحب　　فانه فى كبدى جرحه
يحكى اذا ابصر لي زلة　　ذبابة تضرب فى قرحه

ولقيه أبو حاتم الحجارى على فرس فى غاية الضعف والرذالة قد أهلكها الوجى ، وكانا فى جماعتين ، فقال له : يا أبا تمام ، أنشدنى قولك :

وتحتى ريح تسبق الريح ان جرت　　وما خلت أن الريح ذات قوائم
لها فى المدى سبق الى كل غاية　　كأن لها سبقا يفوق عزائمى
وهمة نفسى نزهتها عن الوجى　　فيا عجبا حتى العلا فى البهائم

فلما أنشده اياها رد رأسه أبو حاتم الى الجماعتين وقال : ناشدتكم الله أيجوز لحجام على فرس مثل هذه الرمكة الهزيلة العرجاء ، أن يقول مثل هذا ؟ فضحك جميع من حضر ، وأقبل أبو تمام فى غيظه يسبه .

ومن شعر الحجام المذكور قوله :

لا يفخر السيف والأقلام فى يده　　قد صار قطع سيوف الهند للقصب
فان يكن أصلها لم يقو قوتها　　«فان فى الخمر معنى ليس فى العنب»

وقال :

ثقلت على الأعداء الا أنها　　خفت على السباب والابهام
أخذت من الليل البهيم سواده　　وبدت تنمق أوجه الأيام

وقال :

نظر الحسود فازدرى لى هيئة　　والفضل مني لا يزال مبينا
قبحت صفاتى من تغير وده　　صدأ المراة يقبح التحسينا

وقال :

تصبر وان أبدى العدو مذمة　　فمهما رمى ترجع اليه سهامه
كما يفعل النحل الملم بلسعه　　يريد به ضرا وفيه حمامه

وقال :

وبادر الشعر لم يؤلم به ولقد　　أضر منه جميع الناس واعتزلا
كأنه الصل لا تؤذيه ريقته　　حتى اذا مجها فى غيره قتلا

رسائل :

● وكتب أبو محمد عبد الله بن عذرة الى بعض أصحابه من الأسر فى **طليطلة** :

لو كنت حيث تجيبني ... لأذاب قلبك ما أقول
يكفيك مني أنني ... لا أستقل من الكبول
واذا أردت رسالة ... لكم فما ألفي رسول
هذا وكم بتنا وفي ... أيماننا كأس الشمول
والعود يخفق والدخا ... ن العنبري به يجول
حال الزمان ولم يزل ... مذ كنت أعهده يحول

● وأما ابراهيم بن الفخار اليهودى فكان قد تمكن عند الأذفونش ملك **طليطلة** النصرانى ، وصيره سفرا بينه وبين ملوك المغرب ، وكان عارفا بالمنطق والشعر ، قال ابن سعيد : أنشدنى لنفسه يخاطب أديبا مسلما كان يعرفه قبل أن تعلو رتبته ويسفر بين الملوك ، ولم يزده على ما كان يعامله به من الاذلال ، فضاق ذرع ابن الفخار وكتب اليه :

أيا جاعلا أمرين شبهين ما له ... من العقل احساس به يتفقد
جعلت الغنى والفقر والذل والعلا ... سواء فما تنفك تشقى وتجهد
وهل يستوى فى الأرض نجد وتلعة ... فتطلب تسهيلا وسيرك مصعد
وما كنت ذا ميز لمن كنت طالبا ... بما كنت فى حال الفراغ تعود
وقد حال ما بينى وبينك شاغل ... فلا تطلبنى بالذى كنت تعهد
فان كنت تأبى غير اقدام جاهل ... فانك لا تنفك تلحى وتطرد
ألا فأت فى أبوابه كل مسلك ... ولا تك محلا حيثما قمت تقعد

قال ابن سعيد : وأنشدنى لنفسه :

ولما دجا ليل العذار بخده ... تيقنت أن الليل أخفى وأستر
وأصبح عذالى يقولون صاحب ... فأخلو به جهراً ولا أتستر

وقال يمدح الأذفونش لعنهما الله تعالى :

حضرة الاذفونش لا برحت ... غادة أيامها عرس
فاخلع النعلين تكرمة ... فى ثراها انها قدس

قال : وأدخلونى الى بستان الخليفة المستنصر ، فوجدته فى غاية الحسن كأنه الجنة ، ورأيت على بابه بوابا فى غاية القبح ، فلما سألنى الوزير عن حال فرجتى

قلت : رأيت الجنة الا أنى سمعت أن الجنة يكون على بابها رضوان ، وهذه على بابها مالك ، فضحك وأخبر الخليفة بما جرى ، فقال له : قل له انا قصدنا ذلك ، فلو كان رضوان عليها بوابا لخشينا أن يرده عنها ، ويقول لـه : ليس هذا موضعك ، ولما كان هناك مالك أدخله فيها ، وهو لا يدرى ما وراءه ، ويخيل أنها جهنم ، قال : فلما أعلمنى الوزير بذلك قلت له : «الله أعلم حيث يجعل رسالته» (الأنعام : ١٢٤) .

• [فى رثـاء طليطلـة]

ومن ذلك قول بعضهم يندب **طليطلة** أعادها الله تعالى للاسلام :

لثكلك كيف تبتسم الثغور ... سرورا بعدما سبيت ثغور
أما وأبى مصاب هد منه ... ثبير الدين فاتصل الثبور
لقد قصمت ظهور حين قالوا ... أمير الكافرين له ظهور
ترى فى الدهر مسرورا بعيش ... مضى عنا لطيته السرور
أليس بها أبى النفس شهم ... يدير على الدوائر اذ تدور
لقد خضعت رقاب كن غلبا ... وزال عتوها ومضى النفور
وهان على عزيز القوم ذل ... وسامح فى الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الكفر منها ... حماها ، ان ذا نبأ كبير
فليس مثالها ايوان كسرى ... ولا منها الخورنق والسدير
محصنة محسنة بعيد ... تناولها ومطلبها عسير
ألم تك معقلا للدين صعبا ... فذلله كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعا ... فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار ايمان وعلم ... معالمها التى طمست تنير
فعادت دار كفر مصطفاة ... قد اضطربت بأهليها الأمور
مساجدها كنائس ، أى قلب ... على هذا يقر ولا يطير ؟
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا ... يكرر ما تكررت الدهور
وينشر كل حسن ليس يطوى ... الى يوم يكون به النشور
أديلت قاصرات الطرف وكانت ... مصونات مساكنها القصور
وأدركها فتور فى انتظار ... لسرب فى لواحظه فتور
وكان بنا وبالقينات أولى ... لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بحالتهن عين ... وكيف يصح مغلوب قرير
لئن غبنا عن الاخوان انا ... بأحزان وأشجان حضور
نذور كان للأيام فيهم ... بمهلكهم فقد وفت النذور

فان قلنا العقوبة أدركتهم   وجاءهم من الله النكير
فانا مثلهم وأشد منهم   نجور وكيف يسلم من يجور
أنأمن أن يحل بنا انتقام   وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ولا اضطرار   اليه فيسهل الأمر العسير
ولكن جرأة فى عقر دار   كذلك يفعل الكلب العقور
يزول الستر عن قوم اذا ما   على العصيان أرخيت الستور
يطول علي ليلي ، رب خطب   يطول لهوله الليل القصير
خذوا ثأر الديانة وانصروها   فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلوا كل عضب   تهاب مضاربا منه النحور
وموتوا كلكم فالموت أولى   بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصبرا بعد سبي وامتحان   يلام عليهما القلب الصبور
فأم الثكل مذكار ولود   وأم الصقر مقلات نزور
نخور اذا دهينا بالرزايا   وليس بمعجب بقر يخور
ونجبن ليس نزأر ، لو شجعنا   ولم نجبن لكان لنا زئير
لقد ساءت بنا الأخبار حتى   أمات المخبرين بها الخبير
أتتنا الكتب فيها كل شر   وبشرنا بأنحسنا البشير
وقيل تجمعوا لفراق شمل   طليطلة تملكها الكفور
فقل فى خطة فيها صغار   يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صم السميع فلم يعول   على نبأ كما عمى البصير
تجاذبنا الأعادى باصطناع   فينجذب المخول والفقير
فباق فى الديانة تحت خزي   تثبطه الشويهة والبعير
وآخر مارق هانت عليه   مصائب دينه فله السعير
كفى حزنا بأن الناس قالوا   الى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها   وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا   نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء   فلا قر هناك ولا حرور
ويؤكل من فواكهها طري   ويشرب من جداولها نمير
يؤدى مغرم فى كل شهر   ويؤخذ كل صائفة عشور
فهم أحمى لحوزتنا وأولى   بنا وهم الموالى والعشير
لقد ذهب اليقين فلا يقين   وغر القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكن   غرور بالمعيشة ما غرور
رضوا بالرق يا لله ماذا   رآه وما أشار به مشير
مضى الاسلام فابك دما عليه   فما ينفى الجوى الدمع الغزير

ونح واندب رفاقا فى فلاة ... حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح الى سلم وحارب ... عسى أن يجبر العظم الكسير
أنعمى عن مراشدنا جميعا ... وما ان منهم الا بصير
ونلقى واحداً ويفر جمع ... كما عن قانص فرت حمير
ولو أنا ثبتنا كان خيراً ... ولكن ما لنا كرم وخير
اذا ما لم يكن صبر جميل ... فليس بنافع عدد كثير
ألا رجل له رأى أصيل ... به مما نحاذر نستجير
يكر اذا السيوف تناولته ... وأين بنا اذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطار حتى ... يقول الرمح ما هذا الخطير
عظيم أن يكون الناس طراً ... بأندلس قتيل أو أسير
أذكر بالقراع الليث حرصا ... على أن يقرع البيض الذكور
يبادر خرقها قبل اتساع ... لخطب منه تنخسف البدور
يوسع للذى يلقاه صدراً ... فقد ضاقت بما تلقى صدور
تنغصت الحياة فلا حياة ... وودع جيرة اذ لا مجير
فليل فيه هم مستكن ... ويوم فيه شر مستطير
ونرجو أن يتيح الله نصراً ... عليهم ، انه نعم النصير

● وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا فى زمان ملوك الطوائف ، وجاء مصليا خلفه منهم ابن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب **طليطلة** ، قالوا : وقد أحسن فى ابتدائه فى الموشحة التى طارت له حيث يقول :

العود قد ترنم ... بأبدع تلحين ... وشقت المذانب ... رياض البساتين

وفى انتهائه **حيث يقول** :

تخطر ولم تسلم ... عساك المأمون ... مروع الكتائب ... يحيى بن ذي النون

● أخبرنى ابن القطان أنه ساير الأمير يحيى بن أبى بكر الى **طليطلة** فى جيوش فاضت سيلا ، وخاضت المطايا قتامها ليلا ، وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء ، ولم يحتو على شبهه حواء ، جمال محيا ، وكمال عليا ، وحسن شيم ، وبعد همم ، أغنى العفاة ، وأحيا الرفات ، وألغى الأجواد ، وأنسى كعب ابن مامة وابن أبى داود ، فلما شارف طليطلة وكشفها ، واشتف بلالتها وارتشفها ، وضرب بكنفها مضاربه ، وأجال بساحتها زنجه وأعاربه ، سقط أحد ألويته عن يد حامله ، وانكسر عند عامله ، فطائفة تفاءلت ، وطائفة تطيرت ، وفرقة ابتهجت ، وأخرى تغيرت ، **فقال** :

لـم ينكسر عود اللـواء لطيرة ‏ ‏ يخشى عليك بهـا وأن تـتـأولا
لـكـن تـحقـق أنـه يـنـدق فى ‏ ‏ نحر العـدا ولدى الوغى فتعجلا

● وحكى الامام ابن بشكوال عن الشيخ أبى بكر بن سعادة أنه دخل مدينة **طليطلة** مع أخيه على الشيخ الأستاذ أبى بكر المخزومي ، قال : فسألنا : من أين ؟ فقلنا : من قرطبة ، فقال : متى عهدكما بها ؟ فقلنا : الآن وصلنا منها ، فقال : اقربا الى أشم نسيم قرطبة ، فقربنا منه ، فشم رأسى وقلبه ، وقال لى : اكتب :

أقـرطبـة الغـراء هـل لى أوبـة ‏ ‏ اليك ؟ وهـل يدنو لنـا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمـامة ‏ ‏ وقعقع فى ساحات دوحاتك الـرعد
لياليك أسحار ، وأرضك روضة ، ‏ ‏ وتربـك فى استنشاقها عنبـر ورد

● [**طليطلـة** – ٤٧٨]

ولنرجع الى ما كنا بصدده من أخذ النصارى قواعد الاندلس فنقول : قد قدمنا أوائـل هذا الباب أن **طليطلة** أعادها الله تعالى من أول ما أخذ الكفـار من المدن العظام بالاندلس ، قـال ابن بسام : لمـا توالت على أهل **طليطلة** الفتن المظلمة ، والحوادث المصطلمة ، وترادف عليهم البلاء والجلاء ، واستباح الفرنج لعنهم الله تعالى أموالهم وأرواحهم ، كان من أعجب ما جرى من النوادر الدالة على الخذلان أن الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغير ، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها ، فلما كانت السنة التى استولى عليها العدو فيها لم ترفع الغلة من الأندر حتى أسرع فيها الفساد ، فعلم النـاس أن ذلك بمشيئة الله تعالى لأمر أراده ، من شمول البلوى ، وعموم الضراء ، فاستولى العدو على **طليطلة** ، وأنزل من بها على حكمه ، وخرج ابن ذي النون منهـا على أقبح صورة ، وأفظع سيرة ، ورآه النـاس وبيده اصطرلاب يأخـذ به وقتا يرحـل فيه ، فتعجب منه المسلمون ، وضحك عليه الكافرون ، وبسط الكافر العدل على أهل المدينة ، وحبب التنصر الى عامة طغامها ، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يطـاق حمله ، وشرع فى تغيير الجامع كنيسة فى ربيع الاول سنة ست وتسعين وأربعمائة .

ومما جرى فى ذلك اليوم أن الشيخ الاستاذ المغامى رحمه الله تعالى صار الى الجامع ، وصلى فيه ، وأمر مريداً له بالقراءة ، ووافاه الفرنج لعنهم الله تعالى وتكاثروا لتغيير القبلة ، فما جسر أحد منهم على ازعاج الشيخ ولا معارضته ، وعصمه الله تعالى منهم ، الى أن أكمل القراءة وسجد سجدة ، ورفع رأسه ، وبكى على الجـامع بكـاء شديدا ، وخرج ولـم يعرض أحد لـه بمكروه . وقيـل لملك النصارى : ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك فى هذا الملك ، فقال : حتى نأخذ قرطبتهم ، وأعد لذلك ناقوسا تأنق فيه وفيما رصع به من الجواهر ، فأكذبه الله

وأزعجه ، وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين ، فما قصر فيما أثـر من اذلال المشركين ، وارغام الكافرين ، واستدراك أمور المسلمين ؛ انتهى ملخصا ، وقد مر مطولا .

● [وقعـة بطرنـة – ٤٥٦]

وكانت قبلهـا وقعة بطرنة سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن الفرنج – خذلهم الله تعالى – انتدبت منهم قطعة كثيفـة ، ونزلت على بلنسية فى السنة المذكورة ، وأهلها جاهلون بالحرب ، مغترون بأمر الطعن والضرب ، مقبلون على اللذات من الأكل والشرب ، وأظهر الفرنج الندم على منـازلتها ، والضعف عن مقاومة من فيها ، وخدعوهم بذلك فانخدعوا ، وأطمعوهم فطمعوا ، وكمنوا فى عدة أماكن جماعة من الفرسان ، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم ، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبى عامر ، فاستدرجهم العدو – لعنهم الله تعـالى – ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر ، وما نجا منهم الا من حصنه أجله ، وخلص الامير نفسه ، ومما حفظ عنه أنه أنشد لمـا أعياه الأمر .

خليلى ليس الرأي فى صدر واحد   أشيرا علي اليوم ما تريـان

وفى أهل بلنسية يقول بعض الشعراء حين خرجوا فى ثياب الزينة والترفه :

لبسوا الحـديد الى الوغى ولبستـم   حـلـل الحـرير علـيكـم ألـوانـا
مـا كـان أقبحهـم وأحسنكـم بهـا   لـو لـم يكـن ببطـرنـة مـا كـان

قال ابن بسام : وهكذا جرى لأهل **طليطلة** ، فان العدو – خذله الله تعالى – استظهر عليهم ، وقتل جماهيرهم ، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لمـا خرجوا اليهم فى ثياب الترفه ألف غفارة خارجاً عما سواها .

● [بـربشتـر]

وقال ابن حيان : وكان تغلب العدو – خذله الله تعالى – على بربشتر قصبة بلد برطانية ، وهى تقرب من سرقسطة ، سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وذلك أن جيش الأردمليس نازلهـا وحاصرهـا ، وقصر يوسف بن سليمـان بن هود فى حمايتها ، ووكل أهلها الى نفوسهم ، فأقام العدو عليها أربعين يوما ، ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته ، واتصل ذلك بالعدو ، فشدد القتال عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى فى خمسة آلاف مدرع ، فدهش النـاس ، وتحصنوا بالمدينة الداخلة ، وجرت بينهم حروب شديدة قتـل فيها خمسمائة افرنجى ، ثم

اتفق أن القناة التى كان الماء يجرى فيها من النهر الى المدينة تحت الارض فى سرب موزون انهارت وفسدت ، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويئس من بها من الحياة ، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال ، فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر ، وقتل الجميع الا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى فى نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى ، حتى ان الذى خص بعض مقدمي العدو لحصنه – وهو قائد خيل رومة – نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارا ، ومن أوقار الأمتعة والحلى السوأى من القائهم يومئذ بأيديهم اليه – أمور قبيحة الصور ، مؤذنات الصدور بأعجاز الغير :

أمور لو تدبرها حكيم　　　اذاً لنهى وهيب ما استطاعا

● [استرجاع بربشتر]

ثم قال ابن حيان : فلما كان عقب جمادي الاول سنة ٤٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين اليها ، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ، والمتهم على أهلها ، لانحرافهم الى أخيه ، صمد لها مع امداد لحليفه عباد ، وسعى لاصمات سوء المقالة عنه ، وقد كتب الله تعالى عليه منها ما لا يمحوه الا عفوه ، فتأهب لقصد بربشتر فى جموع من المسلمين ، فجالدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان ، وأعز الله سبحانه أهل الحفيظة والشجعان ، وحمى الوطيس بينهم الى أن نصر الله تعالى أولياءه ، وخذل أعداءه ، وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة ، فاقتحمها المسلمون عليهم ، وملكوهم أجمعين ، الا من فر من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة ، فأجيل السيف فى الكافرين ، واستؤصلوا أجمعين ، الا من استرق من أصاغرهم ، وفدي من أعاظمهم ، وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم ، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارىء ، وأصيب على منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين فى نصر الدين ، نحو الخمسين ، كتب الله تعالى شهادتهم . وقتل فيه من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل ، فغسلها المسلمون من رجس الشرك ، وجلوها من صدا الافك ، انتهى .

وليت **طليطلة** البائسة استرجعت كهذه ، ومع هذا فقد غلب العدو بعد على الكل ، والله سبحانه المرجو فى الادالة .

● [بلنسية والقنبيطور]

ولما صار أمر بلنسية الى الفقيه القاضى أبى أحمد ابن جحاف قاضيها صيرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فحصره بها القادر بن ذي النون الذى مكن

الأذفونش من طليطلة ، فهجم عليه القاضى فى لمة من المرابطين ، وقتله ، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان ، ورجعت عنه طائفة الملثمين الذين كان يعتد بهم ، وجعل يستصرخ الى أمير المسلمين فيبطىء عليه ، وفى أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة ردريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية ، فدخلها ، وعاهده القاضى ابن جحاف ، واشترط عليه احضار ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون ، فأقسم أنها ليست عنده ، فاشترط عليه أنه ان وجدها عنده قتله ، فاتفق أنه وجدها عنده ، فأحرقه بالنار ، وعاث فى بلنسية ، وفيها يقول ابن خفاجة حينئذ :

عاثت بساحتك الظبا يا دار ... ومحا محاسنك البلى والنار
فاذا تردد فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الاقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار

وكان استيلاء القنبيطور – لعنه الله تعالى – عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

● [الاستيلاء على طليطلة]

ومن أول ما استرد الافرنج من مدن الاندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥ ، وفى ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ويروى صدر البيت الثالث هكذا :

من جاور الشر لا يأمن بوائقة ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وتروى الأبيات هكذا :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها الا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه ، وأرى ... سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقال آخر :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما ... فى العرف عارية الا مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات

وقـــال بعض المؤرخين : أخذ الأذفونش **طليطلة** من صاحبها القـــادر بالله بن المـــأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لهـــا فى منتصف محرم سنة ٤٧٨ ، انتهى . وفيه بعض مخالفة لمـــا قبله فى وقت أخذها ، وسيأتى قريبا بعض ما يؤيده .

قال : وهى مدينة حصينة قديمة أزلية من بناء العمالقة ، على ضفة النهر الكبير، ولها قصبة حصينة فى غاية المنعة ، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعاً ، وهى تصعد الماء الى أعلى القنطرة ، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة ، **وطليطلة** هذه دار مملكة الروم ، وبهـــا كان البيت المغلق الذى كانوا يتحامون فتحه حتى فتحه لذريق فوجد فيه صورة العرب ؛ انتهى .

وقد تقدم شىء من هذا فيما مر من هذا الكتاب .

وقد حكى ابن بدرون فى شرح العبدونية أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب **طليطلة** بنى بها قصراً تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالا كثـــيراً ، وصنع فيه بحيرة ، وبنى فى وسطها قبة ، وسيق المـــاء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان المـــاء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، فكانت القبة فى غلالة من ماء سكب لا يفتر ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل ، فبينما هو فيها اذ سمع منشداً يـــنشد :

أتبـــني بنـــاء الخالـــدين ، وانمـــا	بقـــاؤك فيهـــا ، لـــو علمت ، قليـــل
لقـــد كـــان فى ظـــل الأراك كفـــاية	لمـــن كـــل يـــوم يعتـــريـــه رحيـــل

فلم يلبث بعد هذا الا يسيراً حتى قضى نحبه ، انتهى .

وقال ابن خلكان : ان **طليطلة** أخذت يوم الثلاثاء مستهل صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد ؛ انتهى .

وقال ابن علقمة : ان **طليطلة** أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨ ، وكانت وقعة الزلاقة فى السنة بعدها ، انتهى .

[وقعة الزلاقة نقلا عن الروض المعطار وغيره]

ورأيت أن أذكر هنا وقعة الزلاقة التى نشأت عن أخذ **طليطلة** وما يتبع ذلك من كـــلام صاحب «الروض المعطـــار» وغيره فنقول : انه لمـــا ملك يوسف بن تاشفين اللمتونى المغرب ، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة ، وأطاعته البربر مـــع

شكيمتها الشديدة ، وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة ، تاقت نفسه الى العبور لجزيرة الاندلس ، فهم بذلك ، وأخذ فى انشاء المراكب والسفن ليعبر فيها ، فلما علم بذلك ملوك الاندلس كرهوا الـمامه بجزيرتهم ، وأعدوا له العدة والعدد ، وصعبت عليهم مدافعتـه ، وكرهوا أن يكـونوا بين عدوين الفرنج من شمالهـم والمسلمين من جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم ، وتغير نتهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين ، اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفـاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب ، وانتقال الأمر اليه فى أسرع وقت ، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربـات السيوف التى تقـد الفارس ، والطعنات التى تنظم الكلى ، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب فى قلوب المنتدبين لقتاله ، وكان ملوك الاندلس يفيئون الى ظله ، ويحذرونه خوفاً على ملكهم ، مهما عبر اليهم وعاين بلادهم ، فلمـا رأوا ما دلهم على عبـوره اليهم وعلموا ذلك ، راسل بعضهم بعضاً يستنجدون آراءهم فى أمره ، وكان مفزعهم فى ذلك الى المعتمد ابن عبـاد ، لأنه أشجع القوم ، وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفـاقهم على مكاتبته لمـا تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الاعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، فكتب عنهم كاتب من أهل الاندلس كتاباً ، وهو : أما بعد فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم، ولم تنسب الى عجز ، وان أجبنا داعيك نسبنا الى عقل ، ولم ننسب الى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فانك بالمحل الذى لا يجب أن تسبق فيه الى مكرمة ، وان فى استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت ، والسلام . فلما وصله الكتاب مع تحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربى ، لكنه ذكي الطبع ، يجيد فهم المقاصد ، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ، فقال له : أيها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهـل دعوتك ، وتحت طـاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم فى منزلة الأعادى ، فانهم مسلمون وذوو بيوتات ، فلا تغير بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم اعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب ، فقال يوسف بن تاشفين لكـاتبه : فما ترى أنت ؟ فقـال : أيها الملك اعلم أن تـاج الملك وبهجته شاهده الذى لا يرد ، فانه خليق بما حصل فى يده من الملك والمـال أن يعفو اذا استعفى ، وأن يهب اذا استوهب ، وكلما وهب جليلا جزيلا كان لقدره أعظم ، فاذا عظم قدره تأصل ملكه ، واذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته ، واذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ، ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير اهلاك لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد ملك البلاد ؛ فلما ألقى الكاتب

هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته ، فقال للكـاتب : أجب القوم ، واكتب بما يجب فى ذلك ، واقرأ علي كتـابك ، فكتب الكـاتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف بن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم عليكم ، وانكم مما فى أيـديكم من الملك فى أوسع ابـاحة ، مخصوصين منا بأكرم ايثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم ، والله ولى التوفيق لنا ولكم ، والسلام . فلمـا فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه ، فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط التى لا توجد الا ببلاده ، وأنفذ ذلك اليهم ، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به ، وعظموه ، وسروا بولايته ، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم ، وأزمعوا ان رأوا من الفرنج مـا يريبهم أنهم يرسلون الى يوسف ابن تاشفين ليعبر اليهم ، أو يمدهم باعانة منه .

وكان ملك الافرنج الأذفونش لمـا وقعت الفتنة بالاندلس وثار الخلاف ، وكان كل من حاز بلدأ وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف ، فطمع فيهـم الأذفونش بسبب ذلك ، وأخذ كثـيرا من ثغورهم ، فقوى شأنــه ، وعظم سلطــانه ، وكثرت عساكره ، وأخــذ **طليطلة** من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين ، وكان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فزاد لعنه الله تعالى بملكه **طليطلة** قوة الى قوته ، وأخذ يجوس خلال الديار ، ويستفتح المعاقل والحصون .

قال ابن الأثير فى «الكامل» : وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الاندلس ومتملك أكـثر بلادها ، مثـل قرطبة واشبيلية ، وكان – مع ذلك – يؤدى الضريبـة الى الأذفونش كـل سنة ، فلما تملك الأذفونش **طليطلة** أرسل اليـه المعتمد الضريبة المعتادة ، فلم يقبلها منه ، وأرسل اليه يهدده ويتوعده بالمسير الى قرطبة ليفتحها ، الا أن يسلم اليه جميع الحصون المنيعة ، ويبقى السهل للمسلمين ، وكان الرسول فى جمع كثـير نحو خمسمائة فارس ، فأنـزله المعتمد ، وفرق أصحابه على قواد عسكره ، ثم أمر قواده أن يقتل كل منهم من عنده من الكفرة ، وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه ، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر ، فعادوا الى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان متوجها الى قرطبة ليحاصرها ، فرجع الى **طليطلة** ليجمع آلات الحصار ، ويكثر العدد والعدة ، انتهى .

وقال الفقيه أبو عبد الله [محمد] بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري فى كتابه «الروض المعطار فى ذكر المدن والأقطار» ما ملخصه : انه لمـا اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية حتى تأخر الوقت الذى كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها اليه بعد ذلك ، استشاط الطاغية غضبا وتشطط ، وطلب بعض الحصون

زيـادة على الضريبة ، وأمعن فى التجني ، وسأل فى دخـول امرأته القمجيطة الى جامع قرطبة لتلد فيه ، اذ كانت حاملا ، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكـان كنيسة كانت فى الجانب الغربي منه معظمة عندهم عمـل عليها المسلمون الجامع الأعظم ، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمـدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة – وهى التى أنشأ بناءها الناصر لدين الله ، وأمعن فى بنائها ، وأغرب فى حسنها ، وجلب اليها الرخام الملون والمرمر الصافى والحوض المشهور من البلاد والأقطار ، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة الحمل ، وأنفق فيها الأموال العظيمة ، واشتغل بها ، وكان يباشر الصناع بنفسه ، حتى تخلف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات ، وحضر فى الرابعة ، وكـان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد منذر بن سعيد البلوطي ، فعرض به فى الخطبة ، ووبخه على رؤوس المـلأ ، وقصته فى ذلك مشهورة ، وبنـاء الزهراء أيضا من أغرب مباني الاسلام ، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان .

ولنرجع الى الأذفونش فان الأطبـاء والقسوس لمـا أشاروا أن تكون المـرأة المذكورة ساكنة بالزهراء ، وتتردد الى الجامع المذكور حتى تكون ولادتهـا بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور ، وكان السفير فى ذلك يهودياً كان وزير الأذفونش ، فامتنع ابن عباد من ذلك ، فراجعه ، فـأباه وأيأسه من ذلك ، فراجعه اليهودي فى ذلك ، وأغلظ له فى القول ، وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد ، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودى، فأنزل دمـاغه فى حلقه ، وأمر به فصلب منكوساً بقـرطبة ، واستفتى لمـا سكن غضبه الفقهاء عن حكم مـا فعله باليهودى ، فبـادره الفقيه محمد بن الطلاع بالرخصة فى ذلك لتعدي الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل ، اذ ليس له ذلك ، وقـال للفقهاء : انما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى الله أن يجعل فى عزيمته للمسلمين فرجا .

وبلـغ الأذفونش ما صنعه ابن عبـاد ، فأقسم بآلهته ليغـزونه باشبيلية ، ويحاصره فى قصره ، فجرد جيشين جعل على أحدهما كلباً من مساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الاندلس ويغير على تلك التخوم والجهات ، ثم يمر على لبلة الى اشبيلية ، وجعل موعده ايـاه طريانة للاجتماع معه ، ثم زحف الأذفونش بنفسه فى جيش آخر عرمرم ، فسلك طريقـاً غير الطريق التى سلكها الآخر ، وكلاهما عاث فى البلاد وخرب ودمر ، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قبالة قصر ابن عباد ، وفى أيام مقامه هنالك كتب الى ابن عباد زارياً عليه : كثر بطول مقـامي فى مجلسي الذبـان ، واشتد علي الحر ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى ، وأطرد بها الذباب عن وجهي ، فوقع له ابن عباد بخط يده فى ظهر الرقعة : قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك واعجابك ، وسأنظر لك فى

مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك ، ان شاء الله تعـالى . فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد ، وقرئت عليه ، وعلم مقتضاها ، أطرق اطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا فى الاندلس توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين ، والاستظهار به على العدو ، فاستبشر الناس ، وفرحوا بذلك ، وفتحت لهم أبواب الآمـال . وأما ملوك الاندلس فلما تحققوا عزم ابن عبـاد وانفراده برأيه فى ذلك ، اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ، ومنهم من كلمه مواجهة ، وحذروه عاقبة ذلك ، وقالوا له : الملك عقيم ، والسيفان لا يجتمعان فى غمد واحد ، فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلا : رعي الجمال خير من رعي الخنازير ، ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله فى الصحراء خير من كونه ممزقاً للأذفونش أسيرا له يرعى خنازيره فى قشتالة . وقال لعذاله ولوامه : يا قوم اني من أمري على حالتين : حالة يقين ، وحالة شك ، ولا بد لى من احداهما ، أما حالة الشك فاني ان استندت الى ابن تاشفين أو الى الأذفونش ففى الممكن أن يفي لى ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة شك ، وأما حالة اليقين فاني ان استندت الى ابن تاشفين فأنا أرضى الله ، وان استندت الى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فـلأي شيء أدع ما يرضى الله وآتي ما يسخطه ؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه .

ولـمـا عزم أمر صاحب بطليوس المتـوكل عمر بن محمد وعبد الله بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة أن يبعث اليه كـل منهما قاضى حضرته ، ففعـلا ، واستحضر قاضى الجماعة بقرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان أعقـل أهل زمانه ، فلـمـا اجتمع عنده القضاة باشبيليـة أضاف اليهم وزيره أبا بكر ابن زيدون ، وعرفهم أربعتهم أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين ، وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه فى الجهاد ، وأسند الى وزيره ما لا بد منه فى تلك السفارة من ابـرام العقود السلطانية ، وكـان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الاندلس مستعطفين ، مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والاسلام ، مستنجدين بفقهـاء حضرته ووزراء دولته ، فيسمع اليهم ، ويصغى لقولهم ، وترق نفسه لهم .

فما عبرت رسل ابن عبـاد البحر الا ورسل يوسف بالمرصاد ، ولـمـا انتهت الرسل الى ابن تاشفين أقبـل عليهم ، وأكرم مثواهم ، واتصل ذلك بابن عباد ، فوجه من اشبيلية أسطولا نحو صاحب سبتـة ، فانتظمت فى سلك يوسف ، ثـم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ، ثم انصرفت الى مرسلها ، ثم عبر يوسف البحر عبورا سهلا ، حتى أتى الجزيرة الخضراء ، ففتحوا له ، وخرج اليه أهلها بمـا عندهم من الأقوات والضيافات ، وأقاموا له سوقا جلبوا اليه ما عندهم من سائر

المرافق ، وأذنوا للغزاة فى دخول البلد والتصرف فيه ، فامتلأت المساجد والرحبات بالمطوعين ، وتواصوا بهم خيرا ، هذا مساق صاحب «الروض المعطار» .

وأما ابن الأثير فانه لما ذكر وقعة الزلاقة ذكر ما تقدم من فعل المعتمد بالارسال وقتلهم ، وتخوف أكابر الاندلس من الاذفونش ، وأنه اجتمع منهم رؤساء ، وساروا الى القاضى عبيد الله بن محمد [بن أدهم] وقالوا له : ألا تنظر الى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية ، بعد أن كانوا يأخذونها ، وقالوا : قد غلب على البلاد الفرنج ، ولم يبق الا القليل ، وان طال هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولا ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال : وما هو ؟ قالوا : نكتب الى عرب افريقية، ونبذل لهم اذا وصلوا الينا شطر أموالنا ، ونخرج معهم مجاهدين فى سبيل الله ، فقال لهم : انا نخشى ان وصلوا الينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بافريقية ، ويتركوا الافرنج ويبدأوا بنا ، والمرابطون أصلح منهم ، وأقرب الينا ، فقالوا له : فكاتب أمير المسلمين ، واسأله العبور الينا أو اعانتنا بما تيسر من الجند ، فبينما هم فى ذلك يتراضون اذ قدم عليهم المعتمد ابن عباد قرطبة ، فعرض عليه القاضى ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد : أنت رسولى اليه فى ذلك ، فامتنع ، وانما أراد أن يبرىء نفسه من ذلك ، فألح عليه المعتمد فسار الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فوجده بسبتة ، وأبلغه الرسالة وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، ففى الحال أمر بعبور العساكر الى الاندلس ، وأرسل الى مراكش فى طلب من بقى من العساكر، فأقبلت اليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر ، واجتمع بالمعتمد ابن عباد باشبيلية ، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضا ، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وقصده المطوعة من سائر بلاد الاندلس ، ووصلت الأخبار الى االأذفونش فجمع عساكره ، وحشد جنوده ، وسار من **طليطلة** ، وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له فى القول ، ويصف ما معه من القوة والعدد والعدد ، وبالغ فى ذلك ، فلما وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر ابن القصيرة أن يجيبه ، وكان كاتباً مفلقا ، فكتب وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل ، أحضر كتاب الأذفونش واكتب فى ظهره : «الذى يكون ستراه» وأرسله اليه ، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له ، وعلم أنه بلى برجل لا طاقة له به .

وذكر ابن خلكان أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة ، وارتفع رغاؤها الى عنان السماء ، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملا قط ولا خيلهم ، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ومن رغائها، وكان ليوسف فى عبور الجمال رأي مصيب ، فكان يحدق بها عسكره ، ويحضرها للحرب ، فكانت خيل الفرنج تجمح منها ، وقدم يوسف بين يديه كتابا للأذفونش يعرض عليه فيه

الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب ، كما هى السنة ، ومن جملة ما فى الكتاب : بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الى الاجتماع بنا ، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر الينا ، فقد عبرنا اليك ، وقد جمع الله تعالى فى هذه الساحة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك «وما دعاء الكافرين الا فى ضلال» (غافر : ٥٠) انتهى بمعناه ، وأكثره بلفظه .

ولنرجع الى كلام صاحب «الروض المعطار» فانه أقعد بتاريخ الاندلس ، اذ هو منهم ، وصاحب البيت أدرى بالذى فيه ، قال رحمه الله تعالى : فلما عبر يوسف وجميع جيوشه الى الجزيرة الخضراء انزعج الى اشبيلية على أحسن الهيئات ، جيشأ بعد جيش ، وأميرا بعد أمير ، وقبيلا بعد قبيل ، وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف ، وأمر عمال البلاد بجلب الأقوات والضيافات ، ورأى يوسف من ذلك ما سره ونشطه ، وتواردت الجيوش مع أمرائها على اشبيلية ، وخرج المعتمد الى لقاء يوسف من اشبيلية فى مائة فارس ووجوه أصحابه ، فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم ، وركضوا نحوه ، فبرز اليه يوسف وحده ، والتقيا منفردين ، وتصافحا وتعانقا ، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص ، وشكرا نعم الله تعالى ، وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرعا الى الله تعالى فى أن يجعل ذلك خالصا لوجهه ، مقربأ اليه ، وافترقا ، فعاد يوسف لمحلته ، وابن عباد الى جهته ، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف بن تاشفين ، وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو اشبيلية ، ففعل ، ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم ، ولم يبق من ملوك الطوائف بالاندلس الا من بادر أو أعان وخرج أو أخرج ، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف ، كل صقع من أصقاعه رابطوا وصابروا . وكان الأذفونش لما تحقق الحركة والحرب استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالقة والافرنجة ما لا يحصى عدده ، وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع ، وبعث الأذفونش الى ابن عباد : ان صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحور ، وأنا أكفيه العناء فيما بقى ، ولا أكلفكم تعبا ، أمضى اليكم وألقاكم فى بلادكم رفقأ بكم وتوفيرا عليكم ، وقال لخاصته وأهل مشورته : انى رأيت أنى ان مكنتهم من الدخول الى بلادى ، فناجزونى فيها وبين جدرها ، وربما كانت الدائرة علي ، يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداة واحدة ، ولكني أجعل يومهم معي فى حوز بلادهم ، فان كانت علي اكتفوا بما نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم الا بعد أهبة أخرى فيكون فى ذلك صون لبلادى ، وجبر لمكاسري ، وان كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفى بلادهم ما خفت أنا أن

يكون في وفى بلادى اذا ناجزونى فى وسطها ، ثم برز بالمختار من جنوده ، وأنجاد جموعه على باب دربه ، وترك بقية جموعه خلفه ، وقال حين نظر الى ما اختاره منهم : بهؤلاء أقاتل الجن والانس وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : المختارون أربعون ألف دارع ، ولكل واحد أتباع ، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ، ويرون أنهم أكثر من ذلك كله . واتفق الكل أن عدد المسلمين أقل من الكفرة ، ورأى الأذفونش فى نومه كأنه راكب فيل يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا ، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه أحد ، فدس يهوديا عمن يعلم تأويلها من المسلمين ، فدل على معبر ، فقصها عليه ، ونسبها لنفسه ، فقال له المعبر ، كذبت، ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبرها لك الا ان صدقتنى بصاحب الرؤيا ، فقال له : اكتم علي ، الرؤيا للأذفونش ، فقال المعبر : صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدل على بلاء عظيم ، ومصيبة فادحة فيه وفى عسكره ، وتفسيرها قوله تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل» (الفيل : ١) وأما ضربه النقيرة فتأويلها «فاذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير» (المدثر : ٨ ، ٩) . فانصرف اليهودي وذكر للأذفونش ما وافق خاطره .

ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب ، ومال بجيوشه الى الجهة الغربية من بلاد الاندلس ، وتقدم السلطان يوسف فقصده ، وتأخر ابن عباد لبعض مهماته ، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ، ورؤساء الاندلس ، وجعل ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلا مكملا البيت المشهور :

لا بد من فرج قريب	يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك	سيعود بالفتح القريب
لله سعدك أنه	نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو	ن له أخا يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج اليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ، وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش ، ولما ازدلف بعضهم الى بعض أذكى المعتمد عيونه فى محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد الأذفونش ، اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه ، حتى قيل : ان الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر أو حاجة الا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة ، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات ، وقد تقدم كتاب السلطان يوسف الى الأذفونش يدعوه الى احدى الثلاث المأمور بها شرعا ، فامتلأ الكافر غيظا ، وعتا وطغى ، وراجعه بما يدل على شقائه، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على

الموت ، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ ، وحضوهم على الصبر والثبات ، وحذروهم من الفشل والفرار ، وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وهو يوم الأربعاء ، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم ، فكع الأذفونش ، ورجع الى اعمال المكر والخديعة ، فعاد الناس الى محلاتهم ، وباتوا ليلتهم ، ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش الى ابن عباد يقول : غدا يوم الجمعة ، وهو عيدكم ، والأحد عيدنا ، فليكن لقاؤنا بينهما ، وهو يوم السبت ، فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة ، وانما قصده الفتك بنا يوم الجمعة ، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار ، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس . وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رميلة القرطبي – وكان فى محلة ابن عباد – فرحاً مسرورا يقول : انه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، تلك الليلة فى النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة فى صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب ، وانتهى ذلك الى ابن عباد ، فبعث الى يوسف يخبره بها تحقيقا لما توقعه من غدر الكافر بالله تعالى .

ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحرك الأذفونش ، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه : ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر فى الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد ، وانما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة ، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر ابن القصيرة الى السلطان يوسف يعرفه باقبال الأذفونش ، ويستحث نصرته ، فمضى ابن القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين ، فعرفه بجلية الأمر ، فقال له : قل له اني سأقرب منه ان شاء الله تعالى ، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلا مع ابن عباد .

وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد ، فلم يصله الا وقد غشيته جنود الطاغية ، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ، ومال الأذفونش عليه بجموعه ، وأحاطوا به من كل جهة ، فهاجت الحرب ، وحمى الوطيس ، واستحر القتل فى أصحاب ابن عباد ، وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد عليه وعلى من معه البلاء ، وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون ، وانكشف بعض أصحاب ابن عباد وفيهم

ابنه عبد الله ، وأثخن ابن عباد جراحات ، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغه وجرحت يمنى يديه ، وطعن فى أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر ، وهو يقاسى حياض الموت ، ويضرب يمينا وشمالا ، وتذكر فى تلك الحالة ابنا له صغيرا كان مغرما به تركه فى اشبيلية عليلا ، وكنيته أبو هاشم ، فقال :

أبا هاشم هشمتني الشفار فلله صبري لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد ابن تاشفين داود بن عائشة ، وكان بطلا شجاعا شهما ، فنفس بمجيئه عن ابن عباد ، ثم أقبل يوسف بعد ذلك ، وطبوله تصعد أصواتها الى الجو ، فلما أبصره الأذفونش وجه حملته اليه ، وقصده بمعظم جنوده ، فبادر اليهم السلطان يوسف ، وصدمهم بجمعه ، فردهم الى مركزهم ، وانتظم به شمل ابن عباد ، واستنشق ريح الظفر ، وتباشر بالنصر ، ثم صدقوا جميعا الحملة ، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم ، وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل فى الدماء ، وصبر الفريقان صبرا عظيما ، ثم تراجع ابن عباد الى يوسف ، وحمل معه حملة جاء معها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ، وصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومر هاربا منهزما وقد طعن فى احدى ركبتيه طعنة بقى يخمع بها بقية عمره .

وعلى سياق ابن خلكان أن ابن تاشفين نزل على أقل من فرسخ من عسكر العدو فى يوم الاربعاء ، وكان الموعد فى المناجزة فى يوم السبت ، فغدر الأذفونش ومكر ، فلما كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب اقبلت طلائع ابن عباد ، والروم فى أثرها ، والناس على طمأنينة ، فبادر ابن عباد للركوب ، وبث الخبر فى العساكر فماجت بأهلها ، ووقع البهت ، ورجفت الارض ، وصار الناس فوضى على غير تعبية ولا أهبة ، ودهمتهم خيل العدو ، فأحاطت بابن عباد ، وحطمت ما تعرض لها ، وتركت الارض حصيدا خلفها ، وجرح ابن عباد جرحا أشواه ، وفر رؤساء الاندلس وتركوا محلاتهم وأسلموها ، وظنوا أنه وهى لا يرقع ، ونازلة لا تدفع ، وظن الأذفونش أن السلطان يوسف فى المنهزمين ولم يعلم أن العاقبة للمتقين ، فركب أمير المسلمين ، وأحدق به أنجاد خيله ورجله من صنهاجة رؤساء القبائل . وقصدوا محلة الاذفونش فاقتحموها ودخلوها ، وفتكوا فيها ، وقتلوا ، وضربت الطبول ، وزعقت البوقات ، فاهتزت الارض ، وتجاوبت الجبال والآفاق ، وتراجع الروم الى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها ، فصدموا أمير المسلمين ، فأفرج لهم عنها ، ثم كر عليهم فأخرجهم منها ، ثم كروا عليه فخرج لهم عنها ،

ولم تزل الكرات بينهم تتـوالى الى أن أمر أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهـاء أربعة آلاف ، ودخلوا المعترك بدرق اللمط وسيوف الهنـد ومزاريق الران ، فطعنوا الخيـل فرمحت بفرسانهـا ، وأجحمت عن أقرانهـا ، وتلاحق الأذفونش بأسود نفدت مزاريقه ، فأهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الأسود ، وقبض على عنانه ، وانتضى خنجرا كان متمنطقا به ، فأثبته فى فخذه ، فهتك حلق درعه ، ونفذ من فخذه مع بداد سرجه ، وكان وقت الزوال ، وهبت ريح النصر ، فـأنزل الله سكينـته على المسلمين ، ونصر دينـه القويم ، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه ، فأخرجوهم عن محلتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم ، والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، الى أن لحقوا ربوة لجأوا اليها واعتصموا بهـا ، وأحدقت بهم الخيـل ، فلما أظلم الليل انساب الاذفـونش وأصحابه من الربوة ، وافلتوا بعدما تشبثت بهم أظفار المنية ، واستولى المسلمون على ما كان فى محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك ، وأمر ابن عبـاد بضم رؤوس قتلى المشركين ، فاجتمع من ذلك تل عظيم ؛ انتهى ، وبعضه بالمعنى .

رجع الى كلام صاحب «الروض المعطار» قال :

ولجأ الأذفونش الى تل كان يلى محلته فى نحو خمسمائة فارس كل واحد منهم مكلول ، وأباد القتـل والأسر من عداهم من أصحابهم ، وعمـل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها ، والمخذول ينظر الى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالا محيطا به وبأصحابه ، وأقبل ابن عبـاد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وجميل صبره ، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عبـاد الى ابنه باشبيلية كتـابا مضمونه : كتـابى هذا من المحلة المنصورة يـوم الجمعة المـوفى عشرين من رجب ، وقد أعز الله الـدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وهزم الكـفرة والمشركين ، وأذاقهم العذاب الأليـم ، والخطب الجسيم ، فـالحمد لله على مـا يسره وسناه من هذه المسرة العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، فى تشتيت شمـل الأذفونش والاحتواء على جميع عساكره ، أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم المليم ، بعد اتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتـل فى جميع أبطـاله وحماته ، حتى اتخـذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فلله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني والحمد لله الا جراحات يسيرة آلمت لكنها فرجت بعد ذلك ، فلله الحمد والمنة ، والسلام .

واستشهد فى ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضى مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي، وغيرهما ، رحمهم الله تعالى .

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما كان فيه موضع قـدم ، الا على ميت أو دم ، وأقـامت العساكر بالموضع أربعة أيـام ، حتى جمعت الغنـائم ، واستؤذن فى ذلك السلطان يوسف ، فعف عنها ، وآثر بها ملوك الاندلس ، وعرفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم ، وما عند الله فى ذلك من الثواب المقيم ، فلما رأت ملوك الاندلس ايثـار يوسف لهم بالغنائم استكرموه ، وأحبوه وشكروا له ذلـك .

ولما بلغ الأذفونش الى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع الا نواح الثكلى عليهم ، اهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غمـاً وهماً ، وراح الى أمه الهاوية ، ولم يخلف الا بنـتا واحدة جعل الأمر اليهـا ، فتحصنت بطليطلة .

ورحل المعتمد الى اشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين ، فأقام السلطان يوسف بن تاشفين بظاهر اشبيلية ثلاثة أيـام ، ووردت عليه من المغرب أخبـار تقتضى العزم فسافر وذهب معه ابن عباد يوما وليلة ، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه فى الرجوع ، وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسير معه ولده عبد الله الى أن وصل البحر ، وعبر الى المغرب .

ولما رجع ابن عباد الى اشبيلية جلس للناس ، وهنىء بالفتح ، وقرأت القراء ، وقام على رأسه الشعراء ، فأنشدوه ، قال عبد الجليل بن وهبون : حضرت ذلك اليـوم ، وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه ، فقـرأ القارىء «الا تنصروه فقـد نصره الله» (التوبة : ٤٠) فقلت : بعـداً لى ولشعري ، والله ما أبقت لى هذه الآية معنى أحضره وأقوم به .

ولما عزم السلطان يوسف بن تاشفين الى بلاده ترك الأمير سير بن أبي بكر أحد قواده المشاهير ، وترك معه جيشا برسم غزو الفرنج ، فاستراح الأمير المذكور أياما قلائل ، ودخل بلاد الاذفونش ، وأطلق الغارة ونهب وسبى ، وفتح الحصون المنيعة والمعاقل الصعبة العويصة ، وتوغل فى البـلاد ، وحصل أموالا وذخائر عظيمة ، ورتب رجالا وفرسانا فى جميع ما أخذه ، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصله ، وكتب له يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال فى أضيق العيش وأنكده ، وملوك الاندلس فى بلادهم وأهليهم فى أرغد العيش وأطيبه ، وسأله مرسومه ، فكتب اليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل

الى أرض العدوة ، فمن فعل فذاك ، ومن أبى فحاصره وقاتله ، ولا تنفس عليه ، ولتبدأ بمن والى الثغور ، ولا تتعرض للمعتمد بن عبـاد ، الا بعد استيلائك على البلاد ، وكل بلد أخذته فول فيه أميرا من عساكرك ، فأول من ابتدأ به من ملوك الاندلس بنو هود ، وكانوا بروطة – بضم الراء المهملة ، وبعدها واو ساكنة ، وطاء مهملة مفتوحة ، وبعدها هاء ساكنة ، وهى قلعة منيعة من عاصمات الذرا ، ومـاؤها ينبع من أعلاها ، وفيهـا من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان – فحاصرها فلـم يقدر عليها ، ورحـل عنها ، وجند أجنـادا على هيئة الفرنج وزيهم ، وأمرهم أن يقصدوها ويغيروا عليها ، وكمن هو وأصحابه بقرب منها ، فلما رآهم أهل القلعة استضعفوهم ، فنزلوا اليهم ، ومعهم صاحب القلعة ، فخرج عليه سير المذكور ، وقبضه باليد ، وتسلم الحصن . ثم نـازل بني طاهر بشرق الاندلس ، فأسلموا له البلاد ، ولحقوا ببر العدوة . ثم نازل بني صمادح بالمرية ، ولها قلعة حصينة ، فحاصرهم وضيق بهم ، ولما علم ابن صمادح الغلب أسف ومات غبنأ ، فأخذ القلعة واستولى على المـرية وجميع أعمالها ، ثـم قصد بطليوس ، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس المتقدم ذكره ، فحاصره وأخذه واستولى على جميع أعماله وماله ، ولم يبق له الا المعتمد بن عباد ، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل ، ويسأله مرسومه فى ابن عباد ، فكتب اليه يأمره أنه يعرض عليه النقلـة لبر العدوة بجميع الأهـل والعشيرة ، فان رضي ، والا فحاصره وخذه وأرسل به كسائر أصحابه ، فواجهه وعرفه بما رسم به السلطان يوسف ، وسأله الجواب ، فلـم يجب بنفي ولا اثبـات ، ثم انه نـازل اشبيلية وحاصره بها وألح عليه فأقام الحصار شهراً ، ودخل البلد قهرا ، واستخرجه من قصره ، فحمل وجميع أهله وولده الى العدوة فأنزل بأغمات ، وأقـام بها الى أن مات ، رحمه الله تعالى وعفا عنه .

• [عبد المؤمن بن علي]

ولما كانت سنة ٥٤٥ سار الأذفونش صاحب **طليطلة** وبلاد الجلالقة الى قرطبة ومعه أربعون ألف فارس فحاصرها ، وكان أهلها فى غلاء شديد ، فبلغ الخبر عبد المؤمن ، فجهز اليهم جيشا يحتوي على اثني عشر ألف فارس ، فلما أشرفوا على الأذفونش رحل عنها ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب ، فسلمها الى صاحب جيش عبد المؤمن يحيى بن ميمون فبات فيها ، فلما أصبح رأى الفرنج عادوا الى مكانهم ، ونزلوا فى المكـان الذى كانوا فيه ، فلما عاين ذلك رتب هنـالك ناسأ ، وعاد الى عبد المؤمن ، ثم رحل الفرنج الى ديارهم .

وفى السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن الى الانـدلس فى عشرين ألفـأ عليهم الهنتاتي ، فصار اليه صاحب غرنـاطة ميمون وابن همشك وغيرهما ، فدخلوا

تحت طاعة الموحدين ، وحرصوا على قصد ابن مردنيش ملك شرق الاندلس ، وبلغ ذلك ابن مردنيش ، فخاف وأرسل الى صاحب برشلونة من الافرنج يستنجده، فتجهز اليه فى عشرة آلاف من الافرنج عليهم فارس ، وسار صاحب جيش عبد المؤمن الى أن قارب ابن مردنيش ، فبلغه أمر البرشلوني الافرنجي فرجع ، ونازل مدينة المرية وهى بأيدي الروم فحاصرها ، فاشتد الغلاء فى عسكره فرجع الى اشبيلية فأقام فيها ، وسار عبد المؤمن الى سبتة فجهز الأساطيل وجمع العساكر .

ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧ الى المهدية فملكها ، وملك افريقية ، وضخم ملكه كما قدمناه .

[يوسف بن عبد المؤمن]

ولما مات بويع بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن، ولما تمهدت له الأمور، واستقرت قواعد ملكه ، دخل الى جزيرة الاندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها ، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة ، وفى صحبته مائة ألف فارس من الموحدين والعرب ، فنزل بحضرة اشبيلية ، وخافه ملك شرق الاندلس – مرسية وما انضاف اليها – الأمير الشهير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، وحمل على قلب ابن مردنيش ، فمرض مرضا شديدا ومات ، وقيل : انه سم ، ولما مات جاء أولاده وأهله الى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو باشبيلية ، فدخلوا تحت حكمه وسلموا لأحكامه البلاد ، فصاهرهم وأحسن اليهم وأصبحوا عنده فى أعز مكان ، ثم شرع فى استرجاع البلاد التى استولى عليها الافرنج ، فاتسعت مملكته بالاندلس ، وصارت سراياه تغيرالى باب **طليطلة** ، وقيل : انه حاصرها ، فاجتمع الفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء فى عسكره ، فرجع عنها الى مراكش حضرة ملكه ، ثم ذهب الى افريقية فمهدها ، ثم رجع الى حضرته مراكش ، ثم جاز البحر الى الاندلس سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف ، وقصد غربي بلادها ، فحاصر مدينة شنترين ، وهى من أعظم بلاد العدو ، وبقى محاصرا لها شهرا ، فأصابه المرض فمات فى السنة المذكورة ، وحمل فى تابوت الى اشبيلية ، وقيل : أصابه سهم من قبل الافرنج ، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال .

[يعقوب المنصور]

ولما مات يوسف قام بالأمر بعده ابنه الشهير أمير المؤمنين يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فقام بالأمر أحسن قيام ، ولما مات يوسف المذكور رثاه أديب الاندلس أبو بكر يحيى بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

جل الأسى فـأسل دم الأجفان ‏ ‏ ‏ ‏ مـــاء الشؤون لغير هذا الشان

ويعقوب المنصور هو الذى أظهر أبهـــة ملك الموحدين ، ورفع رايــة الجهاد ، ونصب ميزان العدل ، وبسط الأحكــام الشرعية ، وأظهر الدين وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وأقام الحدود على القريب والبعيد ، وله فى ذلك أخبار ، وفيه يقول الأديب أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمي الأسود الشاعر المشهور :

أزال حجـابـه عـنـي وعيـنـي ‏ ‏ ‏ ‏ تــراه من المهـابة فى حجـاب
وقــربـنـي تفـضلــه ولـكــن ‏ ‏ ‏ ‏ بعـدت مهـابة عنـد اقتــرابي

وكثرت الفتوحات فى أيامه ، وأول ما نظر فيه عند صيرورة الأمر اليه بـلاد الأندلس ، فنظر فى شأنها ورتب مصالحها ، وقرر المقاتلين فى مراكزهم ، ورجع الى كرسي مملكته مراكش المحروسة . وفى سنة ٥٨٦ بلغــه أن الافرنج ملـكوا مدينة شلب وهى من غرب الاندلس ، فتوجه اليها بنفسه وحاصرها وأخذهــا ، وأنفذ فى الوقت جيشا من الموحدين والعرب ، ففتح أربع مدن مما بأيدي الافرنج من البلاد التى كـانوا أخذوها من المسلمين قبـل ذلك بأربعين سنة ، وخافـه صاحب طليطلة ، وسأله الهدنة والصلح ، فهادنه خمس سنين ، وعاد الى مراكش.

• رجع الى أخبار المنصور بعد هدنة الافرنج :

ولما انقضت مدة الهدنة ، ولم يبق منها الا القليل ، خرج طائفة من الافرنج فى جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسعوا وعاثوا عيثاً فظيعا ، فانتهى الخبر اليه ، فتجهز لقصدهم فى جيوش موفرة وعساكر مكتبة ، واحتفل فى ذلك ، وجاز الى الاندلس سنة ٥٩١ ، فعلم به الافرنج ، فجمعوا جمعا كثـيرا من أقـاصي بلادهم وأدانيها ، وأقبلوا نحوه ، وقيل : انه لما أراد الجواز من مدينة سلا مرض مرضا شديدا ، ويئس منه أطباؤه ، فعاث الأذفونش فى بلاد المسلمين بالاندلس ، وانــتهز الفرصة ، وتفرقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطـان ، فأرسل الأذفونش يتهدد ويتوعد ويرعد ويبرق ، ويطلب بعض الحصون المتاخمة له من بلاد الاندلس ، وخلاصة الأمر أن المنصور توجه بعد ذلك الى لقــاء النصارى ، وتزاحف الفريقان ، فكان المصاف شمالى قرطبة على قرب قلعة رباح فى يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١ ، فكانت بينهم وقعة عظيمة استشهد فيها جمع كبير من المسلمين .

وحكى أن يعقوب المنصور جعل مكـانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبـا يحيى ابن أبي حفص عم السلطان أبي زكريا الحفصي الذى ملك بعد ذلك افريقية، وخطب له ببعض الاندلس ، فقصد الافرنج الأعلام ظنـا أن السلطـان تحتها ،

فأثروا فى المسلمين أثرا قبيحا ، فلم يرعهم الا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كسر شوكتهم ، فهزمهم شر هزيمة ، وهرب الأذفونش فى طائفة يسيرة ، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر .

وحكي أن الذى حصل لبيت المال من دروع الافرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد ، ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه ، وربما صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة .

وقيل : ان فل الافرنج هربوا الى قلعة رباح فتحصنوا بها ، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها ، وكانت قبل للمسلمين ، فأخذها العدو ، فردت فى هذه المرة ، ثم حاصر **طليطلة** وقاتلها أشد قتال وقطع أشجارها وشن الغارات على أرجائها ، وأخذ من أعمالها حصونا وقتل رجالها وسبى حريمها وخرب منازلها وهدم أسوارها وترك الافرنج فى أسوأ حال ، ولم يبرز اليه أحد من المقاتلة ، ثم رجع الى اشبيلية ، وأقام الى سنة ٥٩٣ ، فعاد الى بلاد الفرنج ، وفعل فيها الأفاعيل ، فلم يقدر العدو على لقائه ، وضاقت على الافرنج الأرض بما رحبت ، فطلبوا الصلح فأجابهم اليه ، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بافريقية مع قراقوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام .

ثم توفى السلطان يعقوب سنة ٥٩٥ . وما يقال «انه ساح فى الأرض وتخلى عن الملك ووصل الى الشام ، ودفن بالبقاع» لا أصل له ، وان حكى ابن خلكان بعضه . وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطي فى شرح مقصورة حازم ، وقال : ان ذلك من هذيان العامة ، لولوعهم بالسلطان المذكور .

● أوليتي : يعرف بيتنا فى القديم بوزير ، ثم حديثا بلوشة ببني الخطيب ، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة ، الى **طليطلة** ، ثم تسربوا محومين على وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه ، فاستقر منهم بالموسطة الاندلسية جملة من النبهاء تضمن منهم ذكر خلق ، كعبد الرحمن قاضى كورة باغه ، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها ، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها ، جاريا مجرى التسمية بالمركب فى تاريخ الغافقي وغيره ، وسكن عقبهم بها ، وسكن بعضهم منتقرير مملكين اياها مخطتين جبل التحصن والمنعة فنسبوا اليها . (لسان الدين بن الخطيب)

● قال ابن القرضي : ولما انصرف يحيى الى الاندلس كان امام وقته ، وواحد بلاده ، وكان ممن أتهم بالهيج فى وقعة الربض المشهورة ففر الى **طليطلة** ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا ، وانصرف الى قرطبة .

ولحق سليمان ابن أخيهما الحكم بن سليمان بن أمير المؤمنين الناصر بجنود

البربر ، وقد اجتمعوا بظاهر قرطبة (بعد طردهم منها) وتوامروا ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ، ونهضوا به الى ثغر **طليطلة** ، فاستجاش بابن أذفونش ثم نهض في جموع البرابرة والنصرانية الى قرطبة ، وبرز اليه المهدى في كافة أهل البلد وخاصة الدولة ، فكانت الدائرة عليهم ، واستلحم منهم ما يزيد على عشرين ألفاً ، وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم ، ودخل المستعين قرطبة ختام المائة الرابعة ، ولحق المهدي **بطليطلة** . واستجاش بابن أذفونش ثانية ، فنهض معه الى قرطبة ، وهزم المستعين والبرابرة بعقبة البقر من ظاهر قرطبة ، ودخل قرطبة - أعني المهدي - وملكها ، وخرج المستعين مع البربر ، وتفرقوا في البسائط ينهبون ولا يبقون على أحد ، ثم ارتحلوا الى الجزيرة الخضراء ، فخرج المهدي ومعه ابن أذفونش لاتباعهم ، فكروا عليهم ، فانهزم المهدي وابن أذفونش ومن معه من المسلمين والنصارى ، واتبعهم المستعين الى قرطبة ، فأخرج المهدي هشاما المؤيد للناس ، وبايع له ، وقام بأمر حجابته ، ظنا منه أن ذلك ينفعه ، وهيهات ، وحاصرهم المستعين والبربر ، فخشى أهل قرطبة من اقتحامهم عليهم ، فأغروا أهل القصر وحاشية المؤيد بالمهدي وأن الفتنة انما جاءت من قبله ، وتولى كبر ذلك واضح العامري ، فقتلوا المهدي ، واجتمع الكافة على المؤيد ، وقام واضح بحجابته ، واستمر الحصار ، ولم يغن عن أهل قرطبة ما فعلوه شيئا ، الى أن هلكت القرى والبسائط بقرطبة ، وعدمت المرافق ، وجهدهم الحصار وبعث المستعين الى أهل [ابن] أذفونش يستقدمهم لمظاهرته ، فبعث اليهم هشام وحاجبه واضح يكفونهم عن ذلك ، بأن ينزلوا لهم عن ثغور قشتالة التى كان المنصور افتتحها ، فسكن عن مظاهرتهم عزم أذفونش ، ولم يزل الأمر حتى دخل المستعين قرطبة ومن معه من البربر عنوة سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتل هشام سرأ ، ولحق بيوتات قرطبة معرة في نسائهم وأبنائهم .

وظن المستعين أن قد استحكم أمره ، وتوثبت البرابرة والعبيد على الأعمال ، فولوا المدن العظيمة ، وتقلدوا البلاد الواسعة ، مثل باديس بن حبوس في غرناطة ، والبرزالى في قرمونة ، واليفرني في رندة ، وخزرون في شريش ، وافترق شمل الجماعة بالاندلس ، وصار الملك طوائف في آخرين من أهل الدولة ، مثل ابن عباد باشبيلية ، وابن الأفطس ببطليوس ، وابن ذي النون **بطليطلة** ، وابن أبي عامر ببلنسية ، وابن هود بسرقسطة ، ومجاهد العامري بدانية والجزائر ...

● وكان هشام يقول برموز الملاحم وكتب الحدثان ، وخامر نفسه من ذكر قائم بسبتة ، أول اسمه عين ، ما لا شيء يزيله ، ولم يزل مرتقبا لظهوره ، فلذلك ما كاتب علي بن حمود لرفع بيته ، وبعد صيته ، فكان منه في أخذه بثأره بعد موته ما كان ، فان كان كذلك ، فهشام - على مشهور عجزه - أحد كائدي

الأعداء بغيره من منكـوبي الملوك بما لا شيء فوقـه ، فما أدرك فيه بعد هلاكه بوتره واستفاد بدمه وسطا بعدوه ؛ انتهى ما لخصته من خبره مع ابن حمود .

فصل : قال ابن حيان : وأما حربه مع المهدي ، فانه لما استوسق الأمر لسليمان حسبما تقدم ، وتابعته البرابرة ، اجتمعوا لحرب قرطبة ، فنزلوا فى سفح الجبل بها وبشرقيها ، يوم الخميس الحادي عشر من ربيـع الاول سنة أربعمائة ، وقد كان واضح الفتى وافاها قبلهم بيومين فى أجناده من رجال الثغر ، فقلده المهدي أمر الحرب ، واحتشد الناس من الكور والبادية ، فعسكروا فى جموع لم يحصها الا خالقهم ، فتدانى الزحفان يوم السبت الثالث عشر من ربيع المؤرخ ، فتسرع اليهم أهل قرطبة ، وخالفوا واضحا فى تدبير حربهم ، فاستجرتهم البرابرة ، حتى اذا تمكـنوا منهم عطفوا عليهم ، فـانكشفوا عنهم انكشافـا ما سمع بمثله ، وانهزموا الى منازلهم ، وتشعبت الطرق بهم ، وعاد تضييق مسالك كانوا أعدوها لعدوهم شدادا دونهم ، فازدحموا وتناشبوا وقتل بعضهم بعضا ، ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم ، فقتل فى هذه الوقعة عالم ، وأبادوا أمة ، وهى وقعة قنتيش المشهورة بالاندلس التى قطع المقـال على أنه قتل فيها عشرة آلاف قتيـل وأزيد . والله أعلم .

ومال النصارى يومئذ على المنهزمين من المسلمين ، فقتلوا منهم فى صعيد واحد نيفاً على ثلاثة آلاف رجل ، وخرج الأمر عن يد واضح ، فلم يثبت أحد ممن كان معه ، ولا كر فى تلك الوقعة عامي ولا خاصي ، وكان أمره عجبا . ونادى واضح بشعاره ، فاجتمع اليه رجاله ، وثبت الى أن أجنه الليل واتخذه جملا ، وسار عن قرطبة هاربا الى الثغر ، وانبسط البربر يومئذ فى أرض قرطبة يقتلون ويأسرون .

قال ابن حيـان : وأصيب فى تلك الوقعة من المؤدبين خاصة نيف على ستين ، أعريت سقائفهم ، فى غداة واحدة منهم ، وتعطل صبيانهم لعدمهم . وأصيب فيها زربوط الطنبوري ، وأقام الطنبوريون أصحابه عليه مأتما مشهودا بعد الحادثة . وهلك فى تلك الوقعة أخلاط من الناس ، وكان بعض الظرفاء يقول : من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل ، فانها ألصقت بالصميم فى قتل قنبوط الملهي ، وزربوط المغني ونمطهما ، فهيهات أن يخلف الدهر مثلهما .

وكـان المهدي ، اذ دخـل قرطبة منتصف جمادي الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وقتل عبد الرحمن بن أبي عامر ، أظهر موت هشام المؤيد فى رمضان من العام ، وورى الشخص الذى موه به وقسم تراثه ، فلما كان غداة الأحد ثاني وقعة قنتيش ، أظهر المهدي هشاما المؤيد رجاء أن يستميل البرابرة به ، لما كانوا يكثرون من الترحم عليه والطلب بدمه ، فأبرزه للناس وعجبوا من ذلك ، فقال له البربر : الله محمود على سلامته ، ونحن فلا حاجة لنا فى امامته ، ولا نرضى بغير

سليمان ، فلما سمع المهدي ذلك ، خرج فى الليل عن القصر ، وتطمر بقرطبة الى أن لحق **بطليطلة** ، ودعا الناس الى القيام بنصرته ، فجمع له واضح عساكر الافرنجة وأهل الثغور ، وجاءهم مع واضح الى قرطبة ، فبرز اليه سليمان ، والتقى الجمعان يوم الجمعة فى شوال من العام ، فانهزم سليمان ، فدخل المهدي قرطبة وبويع له بها ، وتردد عليه البربر يحاربونه ، فشرع فى حفر الخندق حول قرطبة ، وألزم أهلها القيام بأمره ، فاشتدت الكلفة عليهم ، ودبر واضح مع الموالى العامريين الغدر بالمهدي ، وشغبوا عليه فى ذي الحجة من العام ، وأخرجوا هشاما المؤيد ، من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة بالسطح ، ونادوا بشعاره ، وضربوا عنق المهدي بين يديه ، وألقوا جسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها البلد كله ، وقطعت يده ورجله ، وعاد هشام المؤيد الى الخلافة ، وجددت له البيعة ، واستحجب واضحا الفتى ، واستولى على تدبير الأمور ، وأرسل برأس المهدي الى عسكر سليمان على معاودة طاعة هشام ، وقد رجا استمالتهم به فأبوا ذلك ، وأغلظ سليمان على رسله ، وأراد قتلهم ، وأظهر الجزع على ابن عمه المهدي ، وبكى عليه ، وأمر بتنظيف الرأس ، وأنفذه الى **طليطلة** ، الى ولد المهدي عبيد الله . فأعظم قتل أبيه ودفع بيعة هشام ، وكان بعسكر سليمان عبد الرحمن بن متيوه ، فلما بلغه مهلك المهدي بن عبد الجبار عدوه ، كاتب واضحا وتوثق له ، فهرب الى قرطبة ، فدبر أمر هشام مدة بعد قتل واضح وعلي بن وداعة ، فى أخبار طويلة ، الى أن ضعف أمر هشام ، ودخل عليه سليمان دولته الأخيرة ، ودبر قرطبة ، الى أن وقع له مع علي بن حمود ما وصفناه . انتهى ما لخصته من كلام ابن حيان .

● ورأيت بخطي فى بعض مسوداتي ما صورته : محمد بن عبد الله بن يحيى ابن يحيى الليثي قاضى الجماعة بقرطبة ، سمع عم أبيه عبيد الله بن يحيى ومحمد ابن عمر بن لبابة وأحمد بن خالد ، ورحل من قرطبة سنة ٣١٢ ، ودخل مصر وحج وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيلى وابن الأعرابي وغيرهم ؛ وكان حافظا معتنيا بالآثار جامعا للسنن ، وتصرفا فى علم الاعراب ومعاني الشعر ، شاعرا مطبوعا ؛ وشاوره القاضى أحمد بن بقي ، واستقضاه الناصر عبد الرحمن ابن محمد على البيرة وبجانة ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة بعد أبي طالب سنة ٣٢٦ ، وجمعت له مع القضاء الصلاة ، وكان كثيرا ما يخرج الى الثغور ويتصرف فى اصلاح ما وهى منها ، فاعتل فى آخر خرجاته ومات فى بعض الحصون المجاورة **لطليطلة** سنة ٣٣٧ ، ومولده سنة ٢٨٤ ؛ انتهى وأظن أني نقلته من كتاب ابن الأبار الحافظ ، والله أعلم .

● ومن الفضلاء الذين أدركهم وأخذ عنهم الحافظ أبو بكر ابن الجد ، وأبو بكر ابن زهر ، وغيرهما ، وحضر حصار **طليطلة** مع منصور بني عبد المؤمن ،

وكتب لملك البرين أبى محمد عبد الواحد ، وكتب أيضا عن مأمون بني عبد المؤمن، وكـتب أخيرا عن ملك بجاية والغرب الأوسط الأمير أبى يحيى ابن عمران ابن سعيد ملك افريقية ، رحم الله تعالى الجميع .

● وذكر ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن الداخل أقام ببرقة مستخفيا خمس سنين ، وآل أمره فى سفره الى أن استجار ببـنـي رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط ، وتقلب فى قبـائل البربر الى أن استقر على البحر عند قوم من زنـاتة ، وأخذ فى تجهيز بدر مولاه الى العبور للأندلس لمـوالى بني أمية وشيعتهم بهـا ، وكانت المـوالى المروانية المدونة بـالاندلس فى ذلك الأوان مـا بين الأربعمائة والخمسمائة ، ولهم جمرة ، وكانت رياستهم الى شخصين : أبى عثمـان عبيد الله بن عثمان ، وعبد الله بن خالد ، وهما من موالى عثمان ، رضى الله تعـالى عنه ، وكانا يتوليان لواء بني أمية يعتقبان حمله ورياسة جند الشام النـازلين بكورة البيرة ، فعبر بدر مـولى عبد الرحمن الى أبى عثمان بكتـاب عبد الرحمن يذكره فيه أيادي سلفه من بني أمية وسببه بهم ويعرفه مكانه من السلطان وسعيه لنيله ، اذ كان الأمر لجده هشام فهو حقيق بوراثته ، ويسأله القيام بشأنه وملاقاة من يثق به من الموالى الأموية وغيرهم ، ويتلطف فى ادخاله الى الأندلس ليبلي عذرا فى الظهور عليها ، ويعده باعلاء الدرجة ، ولطف المنزلة ، ويأمره أن يستعين فى ذلك بمن يـأمنه ، ويرجو قيامه معه ، ويـأخذ فيه مع اليمانية ذوي الحنق على المضرية لما بين الحيين من الترات ، فمشى أبو عثمان لمـا دعاه اليه ، وبانت له فيه طماعية ، وكان عند ورود بـدر قد تجهز الى ثغر سرقسطة لنصرة صاحبهـا الصميل بن حاتم وجه دولـة يوسف بن عبد الرحمن صاحب الاندلس ، فقـال لصهره عبد الله بن خالد المذكور : لو كنـا ذاكرنا الصميل خبر بدر وما جاء به لنختـبر ما عنده فى موافقتنا ، وكانا على ثقـة فى أنه لا يظهر على سرهما أحدا لمروءته وأنفته ، فقال له : ان نحن فعلنا لم نأمن من أن تدركه الغيرة على سلطان يوسف لمـا هو عليه من شرف القدر وجلالة المنـزلة فيتوقع سقوط رياسته فـلا يساعدنا ، قـال أبو عثمان : فنمسح اذا على أمره ، ونذكر له أنـه قصد لارادة الايواء والأمان وطلب أخماس جده هشام لدينا ليتعيش بها ، لا يريد غير ذلك ، فاتفقا على هذا . فلما ودعا الصميل خلوا به فى ذلك ، وقد ظهر لهما منه حقد على صاحبه يوسف فى ابطائه عن امداده لما حاربه الحباب الزهري بكورة سرقسطة ، فقال لهما : أنا معكما فيما تحبان ، فاكتبا اليه أن يعبر ، فاذا حضر سألنا يوسف أن ينزله فى جواره وأن يحسن له ، ويزوجه بابنته ، فان فعل والا ضربنا صلعته بأسيافنا ، وصرفنا الأمر عنه اليه ، فشكراه وقبلا يده ثم ودعاه ، وأقام **بطليطلة** وقد ولاه يوسف عليها وعزله عن الثغر ، وانصرفا الى وطنهما بالبيرة ، وقد كانا لقيـا من كان معهما فى العسكر من وجوه الناس وثقـاتهم ، فطارحهم أمر ابن

معاوية ، ثم دسا فى الكور الى ثقاتهما بمثل ذلك ، فدب أمره فيهم دبيب النار فى الجمر ، وكانت سنة خلف بالاندلس بعد خروج من المجاعة التى دامت بالناس .

وفى رواية أن الصميل لان لهما فى أن يطلب الأمر عبد الرحمن الداخل لنفسه ثم دبر ذلك لما انصرفا ، فتراجع فيه ، فردهما ، وقال : اني رويت فى الأمر الذى أدرته معكما فوجدت الفتى الذى دعوتماني اليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم فى بوله ، وهذا رجل نتحكم عليه ، ونميل على جوانبه ، ولا يسعنا بدل منه ، ووالله لو بلغتما بيوتكما ثم بدا لى فيما فارقتكما عليه لرأيت أن لا أقصر حتى ألقاكما لئلا أغركما من نفسي ، فاني أعلمكما أن أول سيف يسل عليه سيفي ، فبارك الله لكما فى رأيكما ، فقالا له : ما لنا رأي الا رأيك ، ولا مذهب لنا عنك ، ثم انصرفا عنه على أن يعينهما فى أمره ان طلب غير السلطان ، وانفصلا عنه الى البيرة عازمين على التصميم فى أمره ، ويئسا من مضر وربيعة ، ورجعا الى اليمانية ، وأخذا فى تهييج أحقاد أهل اليمن على مضر ، فوجداهم قوما قد وغرت صدورهم عليهم ، يتمنون شيئا يجدون به السبيل الى ادراك ثأرهم ، واغتنما بعد يوسف صاحب الاندلس فى الثغر ، وغيبة الصميل ، فابتاعا مركبا ووجها فيه أحد عشر رجلا منهم مع بدر الرسول ، وفيهم تمام بن علقمة وغيره ، وكان عبد الرحمن قد وجه خاتمه الى مواليه ، فكتبوا تحت ختمه الى من يرجونه فى طلب الأمر ، فبثوا من ذلك فى الجهات ما دب به أمرهم ، ولما وجه أبو عثمان المركب المذكور مع شيعة ألفوه بشط مغيلة من بلاد البربر ، وهو يصلى ، وكان قد اشتد قلقه وانتظاره لبدر رسوله ، فبشره بدر بتمكن الأمر ، وخرج اليه تمام مكثرا لتبشيره ، فقال له عبد الرحمن : ما اسمك ؟ قال : تمام ، قال : وما كنيتك ؟ قال : أبو غالب ، فقال : الله أكبر ! الآن تم أمرنا وغلبنا بحول الله تعالى وقوته ، وأدنى منزلة أبي غالب لما ملك ، ولم يزل حاجبه حتى مات عبد الرحمن . وبادر عبد الرحمن بالدخول الى المركب ، فلما هم بذلك أقبل البربر فتعرضوا دونه ، ففرقت فيهم من مال كان مع تمام صلات على أقدارهم ، حتى لم يبق أحد حتى أرضاه ، فلما صار عبد الرحمن بداخل المركب أقبل عات منهم لم يكن أخذ شيئا فتعلق بحبل الهودج يعقل المركب ، فحول رجل اسمه شاكر يده بالسيف ، فقطع يد البربري ، وأعانتهم الريح على التوجه بمركبهم ، حتى حلوا بساحل البيرة فى جهة المنكب ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ١٣٨ ، فأقبل اليه نقيباه أبو عثمان وصهره أبو خالد ، فنقلاه الى قرية طرش منزل أبي عثمان ، فجاءه يوسف بن بخت ، وانثالت عليه الأموية ، وجاءه جدار بن عمرو المذحجي من أهل مالقة ، فكان بعد ذلك قاضيه فى العساكر ، وجاءه أبو عبدة حسان بن مالك الكلبي من اشبيلية فاستوزره ، وانثال عليه الناس انثيالا ، فقوي أمره مع الساعات فضلا عن الأيام ، وأمده الله تعالى بقوة عالية ، فكان دخوله قرطبة بعد ذلك بسبعة أشهر .

وكان خبر دخوله (عبد الرحمن الداخل) للأندلس قد صادف صاحبها يوسف الفهري بالثغر ، وقد قبض على الحباب الزهري الثائر بسرقسطة ، وعلى عامر العبدري الثائر معه ، فبينما هو بوادي الرمل بمقربة من **طليطلة** وقد ضرب عنق عامر العبدري وابن عامر برأى الصميل اذ جاءه قبل أن يدخل رواقه رسول يركض من عند ولده عبد الرحمن بن يوسف من قرطبة يعلمه بأمر عبد الرحمن ونزوله بساحل جند دمشق ، واجتماع الموالى المروانية اليه ، وتشوف النـاس لأمره ، فانتشر الخبر فى العسكر لوقته ، وشمت الناس بيوسف لقتلـه القرشيين عامرا وابنه ، وختره بعهدهما ، فسارع عدد كثـير الى البدار لعبد الرحمن الداخل ، وتنادوا بشعارهم ، وقوطوا عن عسكره ، واتفق أن جادت السماء بوابل لا عهد بمثله لمـا شاء الله تعالى من التضييق على يوسف ، فأصبح وليس فى عسكره سوى غلمانه وخاصته وقوم الصميل قيس وأتباعه ، فأقبل الى **طليطلة** وقال للصميل : ما الرأي ؟ فقال : بادره الساعة قبل أن يغلظ أمره ، فاني لست آمن عليك هؤلاء اليمانية لحنقهم علينا ، فقال له يوسف : أتقول ذلك ؟ ومع من نسير اليه وأنت ترى الناس قد ذهبوا عنا ؟ وقد أنفضنا من المـال ، وأنضينا الظهر ، ونهكتنا المجاعة فى سفرتنا هذه ، ولكن نسير الى قرطبة ، فنستأنف الاستعداد له ،بعد أن ننظر فى أمره ويتبين لنا خبره ، فلعله دون ما كنت الينا . فقال الصميل : الرأي ما أشرت به عليك ، وليس غيره ، وسوف تتبـين غلطك فيما تنكبه ، ومضوا الى قرطبـة .

وسار عبد الرحمن الداخل الى اشبيلية ، وتلقـاه رئيس عربهـا أبو الصباح ابن يحيى اليحصبي ، واجتمع الرأى على أن يقصدوا به دار الامارة قرطبة ، فلما نزلوا بطشانة قـالوا : كيف نسير بأمير لا لواء له ولاعلم نهتدي اليه ؟ فجاءوا بقناة وعمامة ليعقدوها عليه ، فكرهوا أن يميلوا القنـاة لتعقد تطيراً فأقاموها بين زيتونتين متجاورتين ، فصعد رجل فرع احداهما فعقد اللواء والقناة قائمة ، كما سيأتي ؛ وحكي أن فرقدا العالم صاحب الحدثان مر بذلك الموضع ، فنظر الى الزيتونتين ، فقال : سيعقد بين هاتين الزيتونتين لواء لأمير لا يثور عليه لواء الا كسره ، فكان ذلك اللواء يسعد بـه هو وولده من بعده ، ولمـا أقبـل الى قرطبة خرج له يوسف ، وكانت المجاعة توالت قبل ذلك ست سنين فأورثت أهل الاندلس ضعفا ، ولم يكن عيش عامة الناس بالعسكر ما عدا أهل الطاقة مذ خرجوا من اشبيلية الا الفول الأخضر الذى يجدونه فى طريقهم ، وكـان الزمان زمن ربيع ، فسمى ذلك العام عام الخلف ، وكان نهر قرطبة حائلا ، فسار يوسف من قرطبة وأقبل ابن معاوية على بـر اشبيلية والنهر بينهما ، فلما رأى يوسف تصميم عبد الرحمن الى قرطبة رجع مع النهر محاذيا له ، فتسايرا والنهر حاجز بينهما ، الى أن حل يوسف بصحراء المصارة غربي قرطبة ، وعبد الرحمن فى مقابلته ،وتراسلا

فى الصلح ، وقد أمر يوسف بذبح الجزر ، وتقدم بعمل الأطعمة ، وابن معاوية آخذ فى خلاف ذلك قد أعد للحرب عدتها ، واستكمل أهبتها ، وسهر الليل كله على نظام أمره ، كما سنذكره ، ثم انهزم أهل قرطبة ، وظفر عبد الرحمن الداخل ، ونصر نصراً لا كفاء له ، وانهزم الصميل ، وفر الى شوذر من كورة جيان ، وفر يوسف الى جهة ماردة .

وذكر أن أبا الصباح رئيس اليمانية قال لهم عند هزيمة يوسف : يا معشر يمن، هل لكم الى فتحين فى يوم ؟ قد فرغنا من يوسف وصميل ، فلنقتل هذا الفتى المقدامة ابن معاوية فيصير الأمر لنا ، نقدم عليه رجلا منا ، ونحل عنه هذه المضرية ، فلم يجبه أحد لذلك ، وبلغ الخبر عبد الرحمن فأسرها فى نفسه الى أن اغتاله بعد عام ، فقتله .

ولما انقضت الهزيمة أقام ابن معاوية بظاهر قرطبة ثلاثة أيام ، حتى أخرج عيال يوسف من القصر ، وعف وأحسن السيرة ، ولما حصل بدار الامارة ، وحل محل يوسف ، لم يستقر به قرار من افلات يوسف والصميل ، فخرج فى اثر عدوه واستخلف على قرطبة القائم بأمره أبا عثمان ، واستكتب كاتب يوسف أمية بن زياد ، واستنام اليه اذ كان من موالى بني أمية ، ونهض فى طلب يوسف ، فوقع يوسف على خبره فخالفه الى قرطبة ودخل القصر ، وتحصن أبو عثمان خليفة عبد الرحمن بصومعة الجامع فاستنزله بالأمان ، ولم يزل عنده الى أن عقد الصلح بينه وبين ابن معاوية ، وكان عقد الصلح المشتمل عليه وعلى وزيره الصميل فى صفر سنة ١٣٩ ؛ وشارطه على أن يخلى بينه وبين أمواله حيثما كانت ، وأن يسكن بلاط الحر – منزله بشرقي قرطبة – على أن يختلف كل يوم الى ابن معاوية ويريه وجهه ، وأعطاه رهينة على ذلك ابنه أبا الأسود محمد بن يوسف ، زيادة على ابنه عبد الرحمن الذى أسره ابن معاوية يوم الوقعة ، ورجع العسكران وقد اختلطا الى قرطبة .

وذكر ابن حيان أن يوسف بن عبد الرحمن نكث سنة ١٤١ ، فهرب من قرطبة ، وسعى بالفساد فى الارض ، وقد كانت الحال اضطربت به فى قرطبة ودس له قوم قاموا عليه فى أملاكه ، زعموا أنه غصبهم اياها ، فدفع معهم الى الحكام فأعنتوه ، وحمل عنه فى التألم بذلك كلام رفع الى ابن معاوية أصاب أعداء يوسف به السبيل الى السعاية به والتخويف منه ، فاشتد توحشه ، فخرج الى جهة ماردة ، واجتمع اليه عشرون ألفا من أهل الشتات ، فغلظ أمره ، وحدثته نفسه بلقاء ابن معاوية ، فخرج نحوه من ماردة ، وخرج ابن معاوية من قرطبة ، فبينما ابن معاوية فى حصن المدور مستعد ، اذ التقى بيوسف عبد الملك بن عمر بن مروان صاحب اشبيلية ، فكانت بينهما حرب شديدة انكشف عنها يوسف بعد بلاء عظيم منهزما، واستحر القتل فى أصحابه ، فهلك منهم خلق كثير ، وسار يوسف لناحية

طليطلة ، فلقيه فى قرية من قراها عبد الله بن عمرو الأنصارى ، فلما عرفه قال لمن معه : هذا الفهري يفر ، قد ضاقت عليه الارض ، وقتله الراحة له ، والراحة منه ، فقتله واحتز رأسه وقدم به الى عبد الرحمن ، فلما قرب وأوذن عبد الرحمن به أمره أن يتوقف به دون جسر قرطبة ، وأمر بقتل ولده عبد الرحمن المحبوس عنده ، وضم الى رأسه رأسه ، ووضعا على قناتين مشهرين الى باب القصر .

وكان عبد الرحمن لما فر يوسف قد سجن وزيره الصميل لأنه قال له : أين توجه ؟ فقال : لا أعلم ، فقال : ما كان ليخرج حتى يعلمك ، ومع ذلك فان ولدك معه ، وأكد عليه فى أن يحضره ، فقال : لو أنه تحت قدمي هذه ما رفعتها لك عنه ، فاصنع ما شئت ، فحينئذ أمر به للحبس وسجن معه ولدي يوسف أبا الأسود محمدا المعروف بعد بالأعمى وعبد الرحمن ، فتهيأ لهما الهرب من نقب ، فأما أبو الأسود فنجا سالما ، واضطرب فى الارض يبغي الفساد الى أن هلك حتف أنفه ، وأما عبد الرحمن فأثقله اللحم فانبهر ، فرد الى الحبس ، حتى قتل كما تقدم ، وأنف الصميل من الهرب فأقام بمكانه ، فلما قتل يوسف أدخل ابن معاوية على الصميل من خنقه ، فأصبح ميتا ، فدخل عليه مشيخة المضرية فى السجن ، فوجدوه ميتا وبين يديه كأس ونقل ، كأنه بغت على شرابه ، فقالوا : والله انا لنعلم يا أبا جوشن أنك ما شربتها ولكن سقيتها .

من (عبد الله بن وادي آش) الى صديق طليطلى :

● وله من أخرى الى ابن الحديدي **بطليطلة** : قد سطع — أعزك الله — من سناك وسنائك ، وتضوع من نثاك وثنائك ، وانتشر من علاك وحلاك ، ما ضمخ مسكه اللوح ، وستر نوره يوح ، فسور سيرك تتلى فى منازل الفضائل ، وصور غررك تجلى فى محافل الأفاضل ، ولا غرو أن تنزع الأنفس الشاسعة تلقاءك ، وتتمنى لقاءك ، ولا بدع أن تمتد الأعين النازحة اليك ، وتود أن تقع عليك ، فالفضل مومموق ، والنفيس مرموق ، وحرص الحوباء على مشافهة الأخلاء يقضى عليها باقتداح زند المخاطبة ، واستفتاح غلق المكاتبة ، واذا عدم التناطق ، فقد وجب التباطق ، ولو أن التكاتب لا يقع الا بعد وقوع طير التعارف ، على ماء التآلف ، وتفيؤ النفس ، ظلال الأنس ، لانسدت أبواب المواصلة ، وانبتت أسباب المراسلة . وما زلت مذ تنسمت أرج ذكراك ، وتوسمت نهج علياك ، أصبو اليك صبو الهائم ، وأظمأ نحوك ظمأ الحائم ، وأرتقب للامكان صالحة أتوصل بها الى مجاراتك فى ميدان الاستدلال ، وأتوسل بها الى معاطاتك أفنان الالتئام والاتصال ، والزمن يأبى الا اللي ، فينهد العوائق الي ، الى أن دهمني من ضروب خطوبه بعجائب ، واستقبلني من صنوف صروفه بغرائب ، قذفتني من سمائي ، وسقتني غير مائي ، فأيدي التغرب تتعاطاني ، وأقدام النوب لا تتخطاني . والله يحسن العقبى ، ويعقب الحسنى ، بمنه .

٣

جغرافية طليطلة

● [كورة طليطلة وما تشتهر به]

ومن أعظم كور الاندلس كورة **طليطلة** ، وهى من متوسط الاندلس ، وكانت دار مملكة بني ذي النون من ملوك الطوائف ، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة ، وسماها قيصر بلسانه بزليطة ، وتأويل ذلك : أنت فارح ، فعربتها العرب وقالت : **طليطلة** ، وكانوا يسمونها وجهاتها فى دولة بني أمية بالثغر الأدنى ، ويسمون سرقسطة وجهاتها بالثغر الأعلى ، وتسمى **طليطلة** مدينة الأملاك لأنها فيما يقال ملكها اثنان وسبعون انسانا ، ودخلها سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وعيسى بن مريم ، وذو القرنين ، وفيها وجد طارق مائدة سليمان ، وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم الذى بنى اشبيلية ، أخذها من بيت المقدس كما مر ، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ، وقيل : انها كانت من زمرد أخضر ، ويقال : انها الآن برومة ، والله أعلم بذلك .

ووجد طارق **بطليطلة** ذخائر عظيمة ، منها مائة وسبعون تاجا من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، وايوان ممتلىء من أواني الذهب والفضة ، وهو كبير ، حتى قيل : ان الخيل تلعب فيه فرسانها برماحهم لوسعه ، وقد قيل : ان أواني المائدة من الذهب وصحافها من اليشم والجزع ، وذكروا فيها غير هذا مما لا يكاد يصدقه الناظر فيه .

وبطليطلة بساتين محدقة ، وأنهار مخترقة ، ورياض وجنان ، وفواكه حسان ، مختلفة الطعوم والألوان ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ، ورساتيق مريعة ، وضياع بديعة ، وقلاع منيعة ، وبالجملة فمحاسنها كثيرة ، ولعلنا نلم ببعض متنزهاتها فيما يأتي من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى .

وطليطلة قاعدة ملك القوطيين ، وهى مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحد تكنفه فرختان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعا ، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال فى هدمها ، وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس .

أضحت طليطلة معطلة ... من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها ... مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة ... نصبت لحمل كتائب الكفر

وسيأتي بعض أخبار **طليطلة** .

● وذكر بعض المؤرخين أن الغرائب التى أصيبت فى مغانم الاندلس أيام فتحها كمائدة سليمان عليه الصلاة والسلام التى ألفاها طارق بن زياد بكنيسة

طليطلـة وقليلة الدر التى ألفـاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة وغيرهما من طرائف الذخائر انما كانت مما صار لصاحب الاندلس من غنيمة بيت المقدس ، اذ حضر فتحها مع بختنصر ، وكان اسم ذلك الملك بريان ، وفى سهمه وقـع ذلك ومثله مما كانت الجن تـأتي به نبي الله سليمان ، على نبينـا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والسلام .

● وقال جماعة : ان القوط غير البشتولقات ، وأن البشتولقات من عجم رومة ، وانهم جعلوا دار ملكهم ماردة ، واتصل ملكهم الى أن ملك منهم سبعـة وعشرون ملكا ، ثم دخل عليهم القوط ، واتخذوا **طليطلة** دار مملكة ، ثم ذكر تنصر ملكهم خشندش مثل ما تقدم ، ثم ذكر أن عدة ملوك القوط ستة وثلاثون ملكا .

● [خبر ابن خلدون عن الأمم التى استوطنتها]

وقال قاضى القضاة ابن خلدون الحضرمي فى تاريخه الكبير ، ما صورته : كـان هذا القطر الاندلسي من العـدوة الشمالية من عـدوتي البحر الـرومي وبالجانب الغربي منها يسمى عند العجم الأندلوش ، وتسكنـه أمم من افرنجة المغرب أشدهم وأكثرهم الجلالقة ، وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على أهله لمئين من السنين قبل الاسلام ، بعد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط الى الاندلس ، فصاروا اليها وملكوها ، ولـما أخذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا من وراءهم بـالمغرب من أمم الفرنجة والقوط عليها فدانوا بها ، وكان ملوك القوط ينزلون **طليطلـة** ، وكانت دار ملكهم ، وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشبيلية وماردة ، وأقاموا كذلك نحواً من أربعمائة سنة الى أن جاء الله بالاسلام والفتح ، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق ، وهو سمة لملوكهم ، كما هو جرجير سمة لملوك صقلية ، انتهى .

● وكـان الأولون من ملـوك الأعاجم يتداولون بسكنـاهم أربعة من بـلاد الأنـدلس : اشبيلية ، وقرطبة ، وقرمونة ، **وطليطلـة** ، ويقسمون أزمـانهم على الكينونة بها .

● قال ابن حيان والحجاري : انه لما استشهد عنيسة قدم أهل الاندلس عليهم عذرة بن عبد الله الفهري ، ولم يعده ابن بشكوال فى سلاطين الأندلس ، بل قال : ثم تتابعت ولاة الاندلس مرسلين من قبل صاحب افريقية : أولهم يحيى بن سلمة ، وذكر الحجاري أن عـذرة كان من صلحائهم وفرسانهم ، وصار لعقبه نبـاهة ، وولده هشام بن عذرة هو الذى استولى على طليطلة قصبة الاندلس ، وفى عقبـه بوادي آش من مملكة غرناطة نباهة وأدب ، قـال ابن سعيد : وهم الى الآن ذوو بيت مؤصل ، ومجد مؤثل ، وكان سرير سلطنة عذرة قرطبة .

قال : والأندلس أندلسان فى اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربي ، وأندلس شرقي ، فالغربى منها ما جرت أوديته الى البحر المحيط الغربي ، ويمطر بالرياح الغربية ، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف الى بلد شنتمرية طالعا الى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلا الى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفاء التى من بلد لورقة ، والحوز الشرقي المعروف بالاندلس الأقصى ، وتجري أوديته الى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية ، وهو من حد جبل البشكنس ، هابطا مع وادي ابره الى بلد شنت مرية ، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط ، وفى القبلة منه البحر الغربي الذى منه يجري البحر المتوسط الخارج الى بلد الشام ، وهو البحر المسمى ببحر تيران ، ومعناه الذى يشق دائرة الأرض ، ويسمى البحر الكبير ، انتهى .

● ومن خواص **طليطلة** : أن حنطتها لا تتغير ولا تتسوس على طول السنين ، يتوارثها الخلف عن السلف ، وزعفران **طليطلة** هو الذى يعم البلاد ويتجهز به الرفاق الى الآفاق ، وكذلك الصبغ السماوي ، انتهى .

● وأقاليم العالم سبع ، الاقليم الخامس منها يمر على **طليطلة** وسرقسطة وما فى سمتهما الى بلاد أرغون التى فى جنوبها برشلونة ، ثم يمر على رومية وبلادها ، ويشق بحر البنادقة ، ثم يمر على القسطنطينية ، ومدبرته الزهرة .

● **وطليطلة** قاعدة ملك القوطيين ، وهى مطلة على نهر تاجه ، وعليه كانت القنطرة التى يعجز الواصفون عن وصفها ، وكانت على قوس واحد تكنفه فرختان من كل جانب ، وطول القنطرة ثلاثمائة باع ، وعرضها ثمانون باعا ، وخربت أيام الأمير محمد لما عصى عليه أهلها فغزاهم ، واحتال فى هدمها ، وفى ذلك يقول الحكيم عباس بن فرناس :

أضحت طليطلة معطلة   من أهلها فى قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها   مهجورة الأكناف كالقبر
ما كان يبقى الله قنطرة   نصبت لحمل كتائب الكفر

● واعلم أن جزيرة الأندلس – أعادها الله للاسلام – مشتملة على موسطة وشرق ، وغرب :

فالموسطة فيها من القواعد المصرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة لها أعمال ضخام وأقطار متسعة : قرطبة ، **وطليطلة** ، وجيان ، وغرناطة ، والمرية ، ومالقة .

● وقال بعضهم فى **طليطلــة** :

زادت طليطلــة عــلى ما حدثــوا بــلــد عليــه نــضرة ونــعــيــم
الله زيــنـــه فــوشــح خــصــره نهر المجــرة والغصــون نجــوم

● ولمــا دخل الانــدلس أمير المسلمين علي ابن أمير المسلمين يــوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المغرب والانــدلس ، وأمعن النظر فيها ، وتــأمل وصفها وحالها ، قال : انها تشبه عقابا مخالبه **طليطلة** ، وصدره قلعة ربــاح ، ورأسه جيــان ، ومنقاره غرناطة ، وجناحه الأيمن باسط الى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط الى المشرق .

● ومنها الرصيف المشهور بالاندلس ، قال فى بعض أخبار رومية : أنه لمــا ولي يوليش المعروف بجاشر ، وابتدأ بتذريع الأرض وتكسيرها ، كان ابتداؤه بذلك من مدينة رومية الى المشرق منها والى المغرب والى الشمال والى الجنوب ، ثم بدأ بفرش المبلطة ، وأقبل بها على وسط دائرة الارض الى أن بلغ بها أرض الاندلس وركزها شرقي قرطبة ببابها المتطامن المعروف بباب عبد الجبار ، ثم ابتدأها من باب القنطرة قبلي قرطبة الى شقندة الى استجة الى قرمونة الى البحر ، وأقام على كل ميل سارية قد نقش عليها اسمه من مدينة رومية ، وذكر أنه أراد تسقيفها فى بعض الأماكن راحة للخــاطرين من وهج الصيف وهول الشتاء ، ثم توقــع أن يكون ذلك فسادا فى الارض وتغييرا للطرق عند انتشار اللصوص وأهــل الشر فيها فى المواضع المنقطعة النائية عن العمران ، فتركها على ما هى عليه . وذكر فى هذه الآثار صنم قادس الذى ليس له نظير الا الصنم الذى بطرف جليقية ، وذكر قنطرة طليطلة وقنطرة السيف وقنطرة ماردة ، وملعب مربيطر .

● [**بيلتــا طليطلــة**]

ومن غرائب الاندلس : البيلتان اللتــان **بطليطلة** ، صنعهما عبد الرحمن لمــا سمع بخبر الطلسم الذى بمدينة أرين من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودي ، وأنه يدور باصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، فصنع هو هــاتين البيلتــين خارج **طليطلــة** فى بيت مجوف فى جوف النهر الأعظم فى الموضع المعروف ببــاب الدباغين ، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير مــاء ، فاذا أصبح كان فيهما [ربــع] سبعهما من الماء ، فاذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع فى اليوم والليلة حتى يكمــل

امتلاؤهما بكمال القمر ، فاذا كان فى ليلة خمسة عشر وأخذ القمر فى النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع [حتى يتم القمر واحدا وعشرين يوما فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص فى كل يوم وليلة نصف سبع] فاذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء ، واذا تكلف أحد حين تنقصان أن يملأهما وجلب لهما الماء ابتلعتا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما الا ما كان فيهما فى تلك الساعة ، وكذا لو تكلف عند امتلائهما افراغهما ولم يبق فيهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما فى الحين . وهما أعجب من طلسم الهند ، لأن ذلك فى نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار ، وأما هاتان فليستا فى مكان الاعتدال ، ولم تزالا فى بيت واحد حتى ملك النصارى - دمرهم الله - **طليطلة** ، فأراد الفنش أن يعلم حركاتهما ، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي اليها الماء ، وكيف الحركة فيهما ، فقلعت ، فبطلت حركتهما ، وذلك سنة ٥٢٨ . وقيل : ان سبب فسادهما حنين اليهودي الذى جلب حمام الاندلس كلها الى **طليطلة** فى يوم واحد ، وذلك سنة ٥٢٧ ، وهو الذى أعلم الفنش أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها ، فأراد أن يكشف حركة البيلتين ، فقال له : أيها الملك ، أنا أقلعهما وأردهما أحسن مما كانتا ، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران فى الليل ، فلما قلعت لم يقدر على ردها ، وقيل : انه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت ، ولم تزل الأخرى تعطي حركتها ، والله أعلم بحقيقة الحال .

● [**طليطلة**] هكذا ضبطه الحميدي بضم الطاءين وفتح اللام وأكثر ما سمعناه من المغاربة بضم الأولى وفتح الثانية . مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالاندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الاندلس وهى غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة وكانت قاعدة ملوك القوطيين وموضع قرارهم وهى على شاطىء نهر تاجه وعليه القنطرة التى يعجز الواصف عن وصفها وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيانوس صاحب أهل الكهف قالوا وبقرب منها موضع يقال له جنان الورد فيه أجساد أصحاب الكهف لا تبلى الى الآن والله أعلم وقد قيل فيهم غير ذلك كما ذكر فى الرقيم وهى من أجل المدن قدرا وأعظمها خطرا ومن خاصيتها ان الغلال تبقى فى مطاميرها سبعين سنة لا تتغير وزعفرانها هو الغاية فى الجودة وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للفارس وما زالت فى أيدى المسلمين منذ أيام الفتوح الى أن ملكها الافرنج فى سنة ٤٧٧ وكان الذى سلمها اليهم يحيى بن يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر بالله وهى الآن فى أيديهم وكانت **طليطلة** تسمى مدينة الأملاك ملكها اثنان وسبعون لسانا فيما قيل ودخلها سليمان ابن داود وعيسى بن مريم وذو القرنين والخضر عليهم السلام فيما زعم أهلها

والله أعلم . قال ابن دريد **طليطلاء** مدينة وما أظنها الا هذه . ينسب اليها جماعة من العلماء . منهم أبو عبد الله الطليطلى روى كتاب مسلم بن الحجاج توفى يوم الأربعاء الثانى عشر من صفر سنة ٤٥٨ . وعيسى بن دينـار بن واقد الغـافقي الطليطلى سكن قرطبة ورحل وسمع من أبي القاسم وصحبه وعول عليه وانصرف الى الاندلس فكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه فى وقته أحد . قال ابن الفرضي قال يحيى بن مالك بن عائذ سمعت محمد بن عبد الملك بن أيمن يقول كان عيسى بن دينار عالما متفننا وهو الذى علم المسائل أهل عصرنا وكان أفقـه من يحيى بن يحيى على جلالة قـدر يحيى وكان محمد بن عمر ابن لبـابة يقول فقيه الاندلس عيسى بن دينار وعالمها عبد الملك بن حبيب وغالقها يحيى بن يحيى . وتوفى سنة ٢١٢ **بطليطلة** وقبره بها معروف ، ومحمد بن عبد الله بن عيشون الطليطلى أبو عبد الله كان فقيها وله مختصر فى الفقه وكتـاب فى توجيه حديث الموطأ وسمع كثيرا من الحديث ورواه وله الى المشرق رحلة سمع فيها من جماعة وتوفى **بطليطلة** لتسع ليال خلون من صفر سنة ٣٤١ .

● والأنـدلس جزيرة والا فليست بجزيرة على الحقيقة لاتصال هذا القـدر بالأرض الكبـيرة ، وعرض جزيرة الاندلس فى موسطتها عند **طليطلة** ستة عشر يوما . واتفقوا على أن جزيرة الاندلس مثلثة الشكل ، واختلفوا فى الركن الذى فى الشرق والجنوب فى حيز أربونة ، فممن قال انه فى أربونة وان هذه المدينة تقابلها مدينة برذيل التى فى الركن الشرقي الشمالى أحمد بن محمد الرازي وابن حيان ، وفى كـلام غيرهما أنه فى جهة أربـونة ، وحقق الأمر الشريف ، وهو أعرف بتلك الجهة لتردده فى الأسفار برا وبحرا اليها وتفرغه لهذا الفن .

اللغة العربية فى مدينة طليطلة
بعد الفتح النصراني ووثائق المستعربين

من المعروف ان اسم « المستعربين » يطلق عادة فى دراسات التاريخ على جماعات النصارى المحافظين على ديانتهم على طول العهد الاسلامى ، أى ، القرون التى عرفت أثناءها أرض شبه الجزيرة الايبيرية باسم « الأندلس » . ومن بين هذه الجماعات المتنوعة العناصر المتباينة التطور نجد جماعة مستعربى مدينة **طليطلة** وهى ذات مميزات خاصة منها الانفراد بمواصلة استعمال اللغة العربية كلغة رسمية عند انشاء الوثائق القانونية بعد سقوط **طليطلة** سنة ١٠٨٥ خلال مدة تزيد على قرنين اثنين .

أما الغرض الأساسى من هذه المقالة البسيطة فانما هو القاء الضوء على أحوال العربية لدى هؤلاء المستعربين من جهة وعلى تبيين أسباب بقاء العربية لغة متداولة عندهم على مستوى الكتابة من جهة ثانية .

تعتبر حالة جماعة مستعربى **طليطلة** حالة فريدة فى اطار الفتح النصرانى وتعمير ما جعله غير عامر من أراضى شبه الجزيرة الايبيرية ، ويرجع هذا الاعتبار الى أن هؤلاء المستعربين لم يدعوا استعمال العربية التى كانت بالنسبة اليهم وسيلة الثقافة وأداء التعبير فى العهد الاسلامى ، وذلك فى سياق سياسى وحضارى يختلف عن السياق الأندلسى والجو الاسلامى السابق اختلافا جوهريا . والبرهان القاطع على حفاظهم المذكور على العربية هو وجود عدد كبير يقرب من ألف ومائتى وثيقة مخصصة لاغراض شتى منها عقود البيع والشراء ومنها الهبات والقروض وعقود الايجار والنكاح والوصايا وهلم جرا . وقد حقق ونشر معظم هذه الوثائق المستشرق الاسبانى المشهور غونثالث بالنثيا González Palencia فى مؤلف هام جدير بالذكر والاحترام (١) .

---

(١) **Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII** (Madrid, 1926-1930), أربعة مجلدات .

اننا سنعتمد فى هذه المقالة على هذا التحقيق المذكور ، ثم على الدراسة اللغوية المفصلة التى قصدنا فيها تحليـل خصائص اللغة العربيـة المنعكسة فى نصوص مستعربى **طليطلـة** (٢) لا سيما فيها المـلامح الراجع وقوعها الى تأثير العـامية الأندلسية فى كتابة الوثائق لأنها ، أى ، تلك العامية الاندلسية ، كانت اللغة الأم المتداولة لدى مستعربى **طليطلة** فى خلال القرن الثاني عشر م. على أقل تقدير .

فاذا تساءلنا عن سبب اختيار العربية لتحرير هذه الوثائق فى الفترة الأولى بعد الفتح النصرانى ، أى ، فى أواخر القرن الحادى عشر م. والنصف الاول من القرن التـالى ، فجميع ما عندنا من الشواهد يـدل على أن هذا الاختيار كان فى الحقيقـة اضطرارا ، نظرا الى أن اللهجـة الرومانسية المعروفة عـادة بـاسم mozárabe باللغة الاسبانية لم تكن وقتذاك الا لغة حديث يومى غير صالحة لأغراض الثقافة العليا ، أضف الى ذلك أن اللغة اللاتينية لم يتقنها غير الاقليـة النادرة جدا من رجال الدين المسيحيين المثقفين .

ولكن البيـئة الاجتماعية المحيطة بالمستعربين كانت ولا بد أن تؤثر تأثـيرا ملموسا فى أحوالهم اللغوية لأن البعـد عن دار الاسلام وعن مراكـز الحضارة العربية أدى بهم منذ أواسط القرن الثاني عشر م. الى زوال تملكهم من زمام اللغة العربية والى فقدان قدرتهم على استعمالها الصحيح .

على أن هناك عاملا آخر حـال دون تركهم للعربية ، نعنى بذلك ورود جموع جديدة من نصارى هاجروا من مدن جنوبى الأندلس نتيجة لما تعرضوا له هناك من ظروف صعبة تحت سلطة المرابطين المغاربة المتسلطين على أراضيها فى مثل تلك السنين (٣) . فعسى أن ساعد هؤلاء المستعربون الطارئون بثقافتهم العربية الاكثر رسوخا والاوسع نطاقا على ابقاء العربية أداة تعبيرية فى مدينة **طليطلة** .

وعند حلول القرن الثالث عشر م. وخاصة فى نصفه الثانى تغيرت أحوال تلك المدينة تغيرا جليـا ، فقد أصبحت اللهجة الرومانسية المعروفة بالقشتالية لغـة الحضارة النصرانية أثناء عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم فى ممالكه ، اذ كانت هى اللغـة التى صارت بديلة عن كـل من اللاتينية والعربية فى جميـع مجالات الحضارة سواء أكان ذلك فى ترجمة آثار التراث العلمى والادبى العربى أم فيما صدر من مراسم وأخبـار وتواريخ مشهورة ودواوين المملكة . وأمست

(٢) I. Ferrando, **El dialecto andalusí de la Marca Media: Los documentos mozárabes toledanos (XII y XIII)**, (Zaragoza, 1995).

(٣) انظر الى J. P. Molénat, L'arabe à Tolède du XIIème au XVème siècle, **Al-Qanṭara** (XV, 1994) 2, 473-496.

اللغة العربية مقتصرة على تحرير بعض العقود ، ومع أنها لم تخرج فى حقيقة الأمر عن كونها عربية ، فانها تحولت الى لغة مجمدة بعض الشىء لم تعد قادرة على تأدية معانى القانون والحضارة المستحدثة ، مما اضطر المؤلفون المستعربون الى اللجوء الى ألفاظ وعبارات وتراكيب رومانسية ضمن العقود المكتوبة بالعربية ، وفى آخر المطاف أصبحت العربية لديهم لغة ميتة لا رواج لها ، وقد حلت محلها القشتالية .

وهناك عامل اضافى آخر ذو أهمية كبرى حمل على ابقاء استعمال العربية فى الوثائق الطليطلية ، وهو أن اللغة العربية كانت لهم بمثابة شعار مشهور يميزهم دون سائر الجماعات النصرانية فى طليطلة ، لا سيما المهاجرون من شمالى شبه الجزيرة الايبيرية أو من جنوبى فرنسا ، الذين مع كونهم نصارى أيضا لم يتح لهم ما أتاحه الملك ألفونسو السادس للمستعربين من امتيازات ضرائبية شكرا على معاونتهم معه فى تيسير فتح طليطلة ودخولها . فأضفى ذلك على جماعة المستعربين صبغة خاصة ناتجة عن تميزهم بلغتهم العربية وبطقوس دينية مفارقة لشعائر جيرانهم بعض المفارقة ، وباحتفاظهم بقوانين موروثة عن أسلافهم القوط (٤) . فأصبحت هذه المميزات كلها علامة كيانهم لم يريدوا فقدانها ولو اضطروا الى الكفاح والدفاع عنها فى بعض الأحيان .

وبعد محاولتنا هذه لتحديد الدواعى المؤدية الى مواصلة الكتابة بالعربية بعد الفتح النصرانى ، يجب علينا أن نعرف بأوصاف اللغة المنعكسة فى الوثائق المذكورة ، وانما مقصدنا الآن هو أن نجيب على الأسئلة الآتية : هل نحن أمام لغة فصيحة أم عامية ؟ هل هى لغة خاصة بالمثقفين دون غيرهم أم لا ؟ وهل هى لغة مكتوبة فحسب أم لغة الحديث اليومى ؟ اذا أردنا اجابة على هذه الأسئلة المطروحة فمن المفروض علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن غرض الموثقين عند تحرير الوثائق والعقود انما هو دائما وبلا استثناء الارتقاء الى أعلى مستويات اللغة ، أى ، العربية الفصحى بما لها من قواعد واعراب . هذا أمر طبيعى معروف ، فقلما نجد نصوصا رسمية أو قانونية مكتوبة بلغة تبعد عن مقاييس الفصحى وأبنيتها . ومن المعروف أن الناطقين بالعربية قديما وحديثا يستهدفون فى الغالب وعلى الرغم من الازدواج اللغوى الى استعمال المستوى الأعلى ، أى ، الفصحى فى جميع مكتوباتهم مهما كان نوعها فى حين أنهم مستخدمون للعامية ، أى ، المستوى الأسفل لاغراض غير متعلقة بالثقافة العليا من معاملاتهم اليومية وحديثهم العادى .

---

(٤) هذا القانون هو المعروف عندهم باسم Fuero juzgo

ومن الأدلة التى تبين أن الأساس اللغوى فى تحرير الوثائق لا يختلف اختلافا مبدئيا عن اللغة الفصحى يعد وجود عدة ظواهر لسانية لا يمكن نسبتها الى النظام اللغوى العامى حسبنا أن نذكر منها بعضها كما يلى :

١ – التزام واع للاعراب فى أغلب الأحيان مع الحفاظ على حصيلته الوظيفية

٢ – ابقاء الالف المقصورة والالف الممدودة من علامات التأنيث .

٣ – وقوع المثـــنى فى حالات غير منحصرة فى أعضـــاء الجسم المزدوجة وأسماء الاعداد وأمثـــالها فقط ، وتجاوز ذلك الى أسماء أخرى بل وفى الألفـــاظ الـــدخيلة .

٤ – أما مضارع الأفعال فما زالت ترد منه فى هذه الوثائق صيغها الثلاث من مرفـــوع ومنصوب ومجزوم مـــع أن النصوص محتوية على بعض الأخطـــاء والاختلاط فيما بينها .

٥ – الاستمرار فى استعمال الأفعال المزيدة بالالف للدلالة على التعدية على خلاف المعتاد فى لغة أكثر المولدين .

٦ – تغلب على لغـــة هذه الوثائق مطـــابقة الاسماء والافعـــال المعهودة فى الفصحى وتفضيلها على لغة «أكلونى البراغيث» .

ان هذه القائمة وان كانت غير كاملة ، تدل دلالة وافية على أن الخضوع لقواعد الفصحى ومقاييسها هو فى الواقع من أبرز مميزات لغة وثـــائق المستعربين على خـــلاف ما ادعـــاه المشتسرق الفرنسى ج. ب. موليـــنا J. P. Molénat (٥) ، القـــائل بأن « المستوى اللغوى الوحيد المجسم فى وثائق المستعربين هو مستوى العامية» وبأن «عربية المستعربين المدونة لم تكن لغة رسمية على الاطلاق» . ونحن نرى عكس ذلك ، أى ، أن مثل هذه الوثائق لا يجوز تدوينها – بطبيعة الأمر – بغير لغة فصيحة شائعة ذات شهرة وشأن .

مع ذلك كله ، وبعد تصفية الشكوك الخاصة بالمستوى اللغوى الذى هو قوام الوثائق الطليطلية ، فان ثمة واقعا آخر لا ينكر ، وهو أن نيـــة محرريها ، أى ، كتابة وثائق نموذجية من حيث اللغة لم تتحقق تماما ، اذ تتخللها أخطاء فى جميع أبواب اللغة من رسم وصرف ونحو ومعجم مما يطلعنا على كفـــاءتهم المحدودة ، وما لقوا من مصاعب عند تصديهم لهذه المهمة .

---

(٥) فى البحث المذكور نفسه ص ٤٨١ – ٤٨٢ .

ويمكننا تقسيم هذه الأخطاء التى حرمتهم من درجة الاتقان لعملهم الى ثلاثة أصناف ، أولها التصحيحات وثانيها الظواهر العامية وثالثها التأثر باللهجات الرومانسية اما القشتالية واما اللغة المعروفة بالأعجمية ، أى ، رومانسية الأندلسيين .

— أما الصنف الأول وهو ما يسمى بالتصحيحات المزورة أو Pseudocorrecciones فانه منقسم الى نوعين مختلفين .

أ — أولهما التصحيح المائل الى المستوى الأسفل infracorrección وهو قريب من اللحن ، أى ، استعمال صيغ شبيهة بالصيغ العامية عوضا عما يقابلها بالفصحى لجهله أو نسيانه .

ب — وثانيهما التصحيح المائل الى المستوى الأعلى أو ultracorrección وهو قريب من التفصح ، أى ، اتخاذ صيغ فصيحة فى غير محلها وذلك تجنبيا للصيغ العامية الموافقة للفصحى على غير وعي بذلك من الناطق أو الكاتب ، نضرب مثلا استعمال «مفاعيل» للجمع بدلا من «مفاعل» فى مثل «المرافيق» أو «الاوامير» عوض «مرافق» و «أوامر» ، وذلك خوفا من الخطأ المعاكس الكثير الوقوع عند قولهم «المفاتح» مثلا بدلا من «المفاتيح» ، أو كقولهم «للبايعان» أو «الى البايعون» ، علما منهم بأن علامتى الرفع فى الجمع السالم والمثنى قد اختفت من كلامهم ، اذ استبدلت بهما علامتا النصب والجر فى جميع الحالات ، الامر الذى جعلهم يقولون «باع البايعين أو البايعين» .

— أما تأثر لغة الوثائق بالعامية ، فانما سبب ذلك أنها ، وليست الفصحى ، كانت لغة الأم لجماعة المستعربين الى أواخر القرن الثانى عشر م. على حسب تقديرنا . ومن عواقب هذا التأثر وقوع خصائص عديدة منتمية الى النظام اللغوى المخالف للنظام الفصيح . نقدم منها فيما يلى كشفا ملخصا خاصا بأبواب اللغة المختلفة :

١ — فى باب الأصوات ، تنعكس الامالة الأندلسية على درجتها الأولى ، أى ، حدوث صوت متوسط بين الألف والياء أو بين الفتح والكسر [e] فى كتابة الاسماء الرومانسية التى يقع فيها صوت [e] فى مقطع منبور تقابله ألف فى الرسم العربى مثلا «طراشة» Teresa ، «بلانسية» Valencia ، «اشتافن» Esteban .أما الدرجة الثانية من الامالة ، وهى حدوث الياء أو الكسر بدلا من الالف أو الفتح ، فليس عندنا ما يكفى من الشواهد والأدلة القاطعة ، اذ لم نجد الا كلمات رومانسية مكتوبة على ظهر بعض الوثائق يقابل فيها الحرف الرومانسى [i] ألفا عربية : Bisagra وهو باب الشقرة ، و Dirabengaz وهى دار ابن غاز ، و Gerindote

وهو جنان داود ، وهناك اختلاط كثير فى رسم الدال والذال مما تتولد كلمات غريبة الرسم مثل «الذليل» ، و «حذود» ، و «عذاده» ، و «مدكور» ، و «الدى» ، و «دهبا» . وأخيرا نشير الى أن ايقاع العربية المتولد من الشعور بطول مقـاطع الكلام قد استبدل به فى حزمة اللهجات الاندلسية ايقاع معتمد على تناوب وقوع النبرة ، أى ، الضغط التنفسى عند التلفظ ببعض تلك المقاطع (٦) . فمن آثار هذا التغير الايقاعي تقصير المقـاطع غير المنبورة مثـل ما نلاحظ فى «المبتعون» ، و «المنادة» و «السنهجين» بـدلا من «المبتاعون» ، و «المنـاداة» و «السنهاجين» . وبالعكس يقع تطويل المقـاطع المنبورة مثـلا «يكتوب» ، و «أسفال» و «مسليم» عوض «يكتب» ، و «أسفل» و «مسلم» .

٢ — بـاب تصريف الأسماء والأفعال . مما يجدر ذكره فى هذا الباب استخدام وزن «فعال» اسما لصاحب الحرفة مثلا «براج» ، و «جمار» ، و «لبار» و «قواس» وربما استعملوا وزن «فعالى» ولعله راجع الى تأثير العربية الجنوبية البـائدة ، مثلا «قرمادي» ، و «حمامي» ، و «كتـاني» . وكذلك نجد المثنى التحليلى ، أى ، المركب من كلمة «زوج» ومن صيغة الجمع مثلا «زوج بيوت» و «زوج مرافق» بدلا من بيتـان» و «مرفقتان» . ومن نفس البـاب أن ضمير المتكلم المفرد من الفعـل المضارع يرد فى بعض الاحيان نونا مثلا «ناخد» وان كان جمعا فألحقت به الواو مثلا «نصطادوا» حسب القاعدة المطردة فى اللهجات المغربية . أما الافعال المزيدة فيلاحظ أن وزن «أفعل» قد انخفضت نسبة استعماله وقام مقامه وزن «فعل» مثلا «جوز» و «زول» عوض «أجاز» و «أزال» . أما الفعل المبنى للمجهول فربما تؤدى معناه أفعال مزيدة بالتاء أو النون ، فنجد مثلا «تكتب» و «انباع» بدلا من «كتب» و «بيع» مع ملاحظة أن الصيغة الفصيحة أكثر شيوعا وانتشارا .

٣ — بـاب التراكيب . ان الخصـائص التى ينعكس فيها نظـام اللهجة فى التركيب هى ظهور ما يسمى «بتنوين الربط» «ـا» الذى يربط بين الاسم وصفته فى كل المواقف وليس فقط فى حالة النصب : «وفيها أرض ان بيضاء» ، «هى الآن غرس ان غرسه» . أما الاضافة فنجدها أحيانا على صيغتها التحليلية المركبة من حرف «متاع» والمضاف : «الارض متاع القصيل» ، «الجنينة متاع الدير» وهلم جرا . يستخدم كذلك حرف «ل» للتعبـير عن المفعول به : «غفر الله له» ، «ورأيـا لشنجه» (٧) .

---

(٦) وفقا على ما اقترحه فى كتابيه F. Corriente, **A grammatical Sketch of the Spanish Arabic dialect bundle** (Madrid, 1977), 3.1.1., F. Corriente, **Arabe andalusí y lenguas romances** (Madrid, 1992), 2.1.3.1.2.

(٧) شنجه اسم من اسماء النصارى .

ومن الجدير بالذكر وجود السابق الفعلى «ك» للتعبير عن المستقبل المحتمل أو المستحيل من جهة : «المـال الذى كيكون له فى المستقبل» ، «اتفق أن كياخذ» ومن جهة أخرى للدلالة على الحاضر أو العمل المستمر ، كما هو الحال فى بعض لهجات المغرب : «حيث كتدبح الكبـاش» . أما الضمير العـائد فى الجمل الموصوليـة ، فتحذف بكثرة : «الدارين التين ذكرنا» ، «الغرس الذى اغترس ولد البايع» . وفى الأخير نلاحظ أداة النفي «لس» الموجودة فى نصوص أندلسية أخرى .

— أما القسم الثالث من الصعوبات اللغوية فهو تـأثير اللغة الرومانسية التى قامت بدور الطبقة السفلى sustrato أولا والطبقـة المجـاورة adstrato ثانيا . أنه لابد من وجود آثـار لغوية ترجع الى هذه اللغة الرومانسية المتولدة المشتقة عن اللاتينية العامية وهى المعروفة لدى الباحثين الغربيين باسم اللهجة المستعربية التى كانت فيما سبق اللغة الأم للمستعربين قبل اتخاذهم العربية وسيلة للثقافة وآلة للتفاهم . وما زالت — على ما يبدو لنا — هذه اللغة تتداول فيما بعد لكنها عاشت ظروفا صعبة وانحطاطا جعلاها لغة مقتصرة على مرتبة الدونية تجاه العربية . ان آثار هاتين الطبقتين تكمن فى صيغ وظواهر تميل ميلا الى الاندماج فى النظام اللغوى العربى الاندلسى . بيد أن هنـاك طبقة لغوية أخرى وهى اللغـة القشتـالية التى أصبحت تسيطـر على سائر اللغـات فى المنطقـة انطلاقـا من القرن الثـالث عشر م. وهى التى قـامت بدور الطبقة العليـا superestrato وآثـارها ليست مندمجة فى القـواليب الاندلسية الا نـادرا . ومن التـأثيرات الموجودة فى الوثائق .

أ — على مستوى الأصوات اقتبـاس الفونيمين الرومـانسيين /p/ و /c/ الهامشيى الوظيفة ليس فى الكلمات الدخيلة الرومانسية الأصل فحسب ، بل فى كلمات عربية بحتة . والميل الشديد الى اسقاط التقابل الفونيمى بين الدال والذال ، واستعمال النبرة عوض الكمية كالاساس الايقاعى الرئيسى ، وامتداد التفخيم الى الأصوات المرفقة المجاورة للاصوات المفخمة بما فى ذلك من اعتبـار التفخيم فونيمـا فوق مستوى الوحدات suprasegmental . أو ، فى نفس الاطـار ، اسقاط التفخيم .

ب — على مستوى التصريف عدم تفريق الجنس النحوى فى مخاطب الفعل المضارع المفـرد أو الأمر من أمثال «وقـال لها : اخرج» ، «تريـد (للمؤنث)» ، واستعمال اسم المفعول بـدلا من اسم الفاعل فى الأفعـال اللازمة : «مبطولة» ، «مصلوحة» ، واستخدام بعض اللواحق الرومانسية الأصل فى كلمات عربيـة : «صخيرولة» وهى صخرة صغيرة والكـلمة العربية الحق بهـا لاحق التصغير الرومانسى /ol—/ ، /uel/, /—/ ، أو فى كلمات غير عربية الاصل مندمجة فى العربية؛

«شدكون» أو شادكة كبيرة وذلك عن طريق لاحق التكبير الرومانسي /on—/ .

ج — من التأثيرات الأساسية على مستوى التركيب التردد فى اختيار الجنس النحوى لبعض الأسماء مثل «البير» التى ترد مذكرا فى بعض الاحيان : «بير مر» وذلك اعتمادا على كونه مذكرا فى الرومانسية ، أو «باب» و «كرم» الذان يأتيـان مؤنثين مرات ومذكرين مرات أخرى : «الباب الشارعة» ، «الكرم المذكورة» لأن الجنس الرومانسى لهتين الكلمتين هو المـؤنث . وكذلك نجد بعض الحروف على معانيها ووظائفها العـادية فى الرومانسية المختلفة عن المعاني العربية : «من» و «ل» وذلك نتيجـة عن ترجمة مبـاشرة غير جدية للتركيب الرومانسى . ومن الجدير بالذكر أن فعل «كـان» نجده فى مواقف لا يتوقع وجوده فيها فى العربية لكنه مفروض الاستعمال فى الاسبانية . أضف الى ذلك عددا لا بأس به من تراكيب تحاكي التراكيب الرومانسية دون العربية (٨) .

د — ان التأثير الرومانسى على مستوى المعجم يجب اعتباره تأثيرا مهما بدون شك ولا ريب مع ملاحظة أن تحديد أبعـاده المعينة ليس بعمل سهل ، على غرار ما قيم به مع المسردين الأندلسيين المشهورين لبيطره ذي ألكـالا وريمند مرتي اللذين لا تزيد فيهما نسبة الكلمات الرومانسية الاصل على خمس بالمائة (٩) لامعان النظر فى هذا الموضوع ينبغي قراءة مقالة من مقالاتنا (١٠) حيث تتوفر قائمة كاملة فيها الكلمات الرومانسية الاصل فى وثائق مستعربى **طليطلة** واضافة الى القـائمة توجد ملاحظات وتعليقات شتى فيمـا يخص أصل هذه الكلمـات وتأريخها ، وتقسيمها من حيث مجال دلالتها . والمجال الذى كثرت فيه الكلمات الرومانسية الدخيلة هو مجال المصطلحات الدينية . أما مجالات التقنية والمواد والملابس فهى على أنها مهمة لا تصل الى نفس الدرجة فى الأهمية . والمجال الأقل اقبالا للدخيل هو مجال الطبيعة وعلم الاحياء .

وبعد أن قدمنا الملامح العامة للغة الوثـائق **الطليطلية** ، نستطيع أن نحـاول تحديد المستوى اللغوي الموجود فيها تحديدا أدق . كما سبق ذكره . تشكل هذه الوثائق مجموعة مميزة الاسلوب بلغة تقرب من الفصحى ، لكن بوقوع عدد كبير من سمات عامية الموثقين ، وعدد لا بأس به من التصحيحات الراجعة الى انقطاع محرري الوثائق عن مصادر الحضارة العربية الاسلامية المعاصرة ، الى جانب

(٨) قد شرحنا البعض من هذه التراكيب المقلدة فى كتابنا المذكور آنفا ، ص ١٠٠

(٩) انظر الى كتاب الاستاذ كورينطى السابق الذكر F. Corriente, **Arabe andalusí y lenguas romances**, 141-142.

(١٠) I. Ferrando, «Los romancismos de los documentos de Toledo», **Anaquel de Estudios Arabes** (VI, 1995), 71-86.

مقتبسات عديدة عن اللغات المجاورة لها . كل هذا يجعل من لغة الوثائق فى آخر المطاف لغة قريبة من النظام اللغوى الذى عرفه الباحث اليهودي ي . بلاو باسم «العربية الوسطى» (١١) مع ملاحظة أنه ليس عندنا مستوى لغوى محدد متجانس بل بالاحرى عدة ظواهر لسانية تتخلل نصوصا تهدف الى المستوى الفصيح .

وعلى صعيد آخر من المهم أن نواجه الآن قضية أخرى من القضايا المثيرة للكثير من الجدل لم نأخذها بعد بعين الاعتبار فى هذه المقالة وهى : أظلت العربية لدى مستعربي **طليطلة** أداة للتفاهم والتعامل اليوميين ؟ من الحجج التى يدلى بها عادة على هذا البقاء نجد أولا كل الخصائص المنتمية الى النظام اللغوى العامى السابقة ذكرها ، وثانيا وجود بضع فقرات فى الوثائق تعيد حوارا أو مناقشات يومية حية سجلت بلغة تقرب من العامية ، والهدف من ذلك تدوين كلام الناس كما جرى لاثبات صحة الوثيقة القانونية المحتوية عليه . فهذا ما نلاحظه على سبيل المثال فى الوثيقة رقم ١٠٠١ الى تحررت عام ١١٩٧ حيث نشاهد مناقشة بين شخصين بخصوص رد مال قرض . فى هذا الحوار نجد الكثير من ظواهر العامية الاندلسية مثل اسباق المتكلم من الفعل المضارع بالنون : «ناخذ» ، و «نبيعه» الى آخره . من الاكيد أن مثل هذا الحوار أستعملت فيه اللغة العامية وليس الفصحى (١٢) ، وهذا هو سبب تسجيله عن طريق عبارات وكلمات عامية . والحجة الثالثة مضمرة فى جملة موجودة فى أسفل الوثائق ابتداء من أواخر القرن الثانى عشر م. نصها : «فسر عليهم بلسان عجمى فهموه واعترفوا بفهمه» ونحن نعتقد أن المراد بهذه الجملة أن بعض الشهود لم يعودوا يفهمون العربية فهما كافيا وكانوا اذا فى حاجة الى ترجمة أو تفسير بلغة أعجمية . ويبين ذلك فيما نظنه أنه قبل هذا الوقت كان كل واحد من المستعربين فى مدينة **طليطلة** قادرا على فهم العربية والتكلم بها . وهناك حجة أخرى تؤكد بقاء العربية لغة حديث وهى ما ذهب اليه بعض الباحثين (١٣) من أن اللهجة المستعربية الرومانسية كانت على وشك الانقراض فى أيام الفتح النصرانى فصارت العربية الوسيلة الوحيدة

---

(١١) انظر الى كتابه J. Blau, **Studies in Middle Arabic and its Judaeo-Arabic variety** (Jerusalén, 1988).

(١٢) ولا اللهجة المستعربية الرومانسية كما ادعاه الباحث الاسبانى غالميس وهو يرى أن لغة المناقشة المذكورة كانت المستعربية ، وذلك فى المقالة الآتية :
A. Galmés, «La lengua de los mozárabes de Toledo: un diálogo en la calle», **Simposio Toledo hispano-árabe** (Toledo, 1986), 135-151.

(١٣) من أمثال D. J. Wasserstein, «The languaje situation in al-Andalus», **Studies in the muwaššaḥ and the kharja** (Oxford, 1991), 1-15 J. P. Molénat, فى المقالة المذكورة ، ص ٤٨٣

للتفاهم حينذاك نظرا الى أن اللاتينية لم تخرج عن كونها لغة الدين المجمدة من جهة وأن القشتالية لم تزدهر بعد من جهة أخرى .

وفى ختام هذه الكلمات البسيطة نقول على وجه التلخيص ان الاحوال اللغوية لدى مستعربى مدينة **طليطلة** فى القرنين الثــانى عشر والثــالث عشر م. تميزت بتعايش العربية والرومانسية . لكن العربية التى كانت ابــان القرن الثانى عشر اللغة السائدة المسيطرة على سائرها ، بدأت انطلاقــا من القرن الثالث عشر م. تفقد شهرتها ويندر استعمالها المتسع سابقا على جميع ميادين النشاط ويقل شأنها تجاه اللغة القشتالية الجديدة بالرغم من حسن بلاء المستعربين فى الدفــاع عن كيانهم وتقاليدهم ومنها استعمال العربية .

اكنــاثيو فيراندو

الحضور الاسبانى فى شعر عبد الوهاب البياتى

أهدى هذا المقال الى طليطلة عرفانا مني بدورها المنسى بشكل شبه كامل فى التراث العربى الحديث ابداعا وفكرا . ومن العجيب أن هذا النسيان يكشف عن غيبة الاستراتيجية العربية وعن لون من الاتباع حتى فى الابداع ؛ فقد سقطت طليطلة مبكرا وبسقوطها كأن شيئا لم يكن ، وكأنها لم تستمر بلغتها العربية . بل وبعض طقوسها الاسلامية . وكأنها لم تكن خلية نحل لأعمال الترجمة ونقل عناصر التفوق العربية مطورة الى باقى اسبانيا والى كل الغرب .

لم تعط المصادر العربية القديمة طليطلة حقها بسبب سقوطها المبكر واتباعا لهذه الغيبة الطليطلية فى المصادر العربية غابت فى العصر الحديث . ومن هنا جاء تصورى لهذه الاتباعية العربية فى عصر رأسماله الابداع . ويؤيد ذلك أمران : الأمر الاول النصوص العربية الكلاسيكية التى تظهر فى هذا العدد من مجلة المعهد المصرى ، أما الثانى فهو هذا المقال الذى أكتبه عن شاعر عاش فترة غير هينة فى اسبانيا ، ولعله أكثر الشعراء المعاصرين احتفالا بالتراث الاندلسى وبالحاضر الاسبانى واستخداما له فى شعره .

ومع ذلك فلا نرى لطليطلة فى أشعاره أثرا يتناسب مع دورها التاريخى ، ومن ثم فهذا المقال شاهد على ذلك . وهو دعوة مني للتأمل فى تاريخ هذه المدينة التى كانت مفصلا للنقل من الحضارة العربية وقود حضارة جديدة . فهل ينشأ اليوم مركز عربى نصنع المستقبل العربى كما صنعت طليطلة المستقبل العربى منذ قرون غير بعيدة ؟ أقصد مركزا للترجمة الواعية ذات الأهداف الاستراتيجية مثل ترجمات طليطلة التى أشار أميركو كاسترو ، فى تاريخه لاسبانيا الاسلامية ، الى خصوصية هذه الترجمة التى لم تكن حرفية . بل كانت تختار ما يفيد وما يكون نواة للجديد .

* * *

ثمة اهتمام جلى باسبانيا ظهر مبكرا لدى عبد الوهاب البياتي ، فى شعره ونثره ، فمدن كمدريد وغرناطة وقرطبة وطليطلة أخذت تطل على قراء شعره فى مسحة معاصرة منذ دواوينه الأولى ، مخالفا آخرين من مجايليه وسواهم فى تناول الموضوعات الأندلسية المطروقة فى الشعر العربى المعاصر .

وحظيت هذه الحواضر الاسبانية بحضور بارز الى جانب مثقفين ومبدعين من بينهم سلفادور دالى وبيكاسو وفدريكو غارثيا لوركا ورفائيل ألبرتى وأنطونيو ماتشادو ، وأحداث سياسية اجتماعية كالحرب الأهلية الاسبانية (١) .

---

(١) نود الاشارة الى أن البياتي ظل يترد ، بصفة يومية طوال عقد الثمانينات ، على مقهى ذي طابع شرقى فى وسط العاصمة الاسبانية ، وكان نقطة التقاء لمريدى الشاعر العربى من عرب وأجانب، ومع مرور الوقت نسى الناس اسم المقهى «فويما Fuyma » واطلقوا عليه تسمية «مقهى البياتي»، وكان البياتي قد اختاره لأنه كان يذكره بمقاهى الشرق العربى . غير أنه تحول فى منتصف التسعينات الى محل أمريكى مجاراة لروح العصر !

هذا اضافة الى عنـاصر وشخصيات هيسبـانية ، أى من الـدول النـاطقة بالاسبانية : كالشاعر المكسيكى أوكتـابيو باث والشاعر التشيلى بـابلو نيرودا والرئيس التشيلى المغدور سلفادور الليندي ومواطنهما الرسام روبرتو متـا ، والثـائر الأسطورة تشي غيفـارا ورفيق دربه الكوبي فيـدل كاسترو ، والبطل الثورى المكسيكي اميليانو زابـاتا ، ولا عجب من هذا الزخم الهيسباني ، من اسبـانيا وأمريكا النـاطقة بالاسبانية ، فهذه القـارة بكل ما فيهـا من ثورات وانكسارات تمثل انسان القرن العشرين بآماله وهمومه ومآسيه الذى يعد بدوره الهم الاول للبياتي شاعراً وانسانا ، فى قرن تآزرت فيه سبل الظلم والبربرية ضد الانسان ، وكلها قضايا تمثل محور شعر البياتي .

والحضور الاسبانى من خلال الحرب الاهلية بمضاعفاتها : الـدور البطولى للعاصمة الاسبانية مدريد فى المقاومة ضد الفاشيست واغتيـال فدريكو غارثيا لوركا فى الايام الاولى لاشتعالها وما ترتب على حسمها لصالح اليمين من تشريد للجمهوريين ، الى جانب الرموز الهيسبانية ، كلها تدخل فى سياق الرؤيا – وليست الرؤية – الاجتماعية والتـاريخية لشعر البيـاتي التى تتمحور حول القـوى الصاعدة وهى «تصنع التاريخ وتقاتل ضد القوى التقليدية الراكدة» حسبما يشير الـدكتور محيى الدين صبحى فى دراستـه القيمـة عن الرؤيـا فى شعـر البياتى (٢) . لهذا فان اعمال البياتى لهذه الرؤيا واسقاطها على هذا السيـاق الاسبانى والهيسبانى جاء فى لحظة تاريخية تلاقت مع فكره السياسى .

غير أن هذا الحضور أو اهتمام البيـاتي باسبانيا لا يرتبط بالحنين لمـا هو أندلسى على عكس شعراء وكتـاب عرب آخرين قصروا هذا الجانب على وصفه بعضهم بالفردوس المفقود ، أى الأندلس أو ما اعتبره نزار قباني «وجعا تاريخيا لا يحتمل» . وبـالرغم من أن اهتمام البيـاتي انصب فى اسبـانيا المعاصرة فان الاندلس ظهرت فى مرحلة متأخرة فى شعره على أثر زيارة قـام بها لهذا البلد فى مطلع شهر نوفمبر ١٩٧٣ بعد انتهاء منفاه القاهري وعودته الى بغداد . وكانت تلك الزيارة ، اضافة الى الصداقات التى كانت تجمعه ببعض المثقفين الاسبان ، سبباً فى اختياره مدريد للعيش فيها طوال عقد الثمانينات .

كانت محطتـه الاسبانية هذه بمثـابة تجربة غنية قربته من بعد آخر لمـا هو هيسبانى أو أمريكى لاتيـنى . اضافة الى اقترابه المـادى والفكرى من أمريكـا اللاتينـية الذى أسفر عن قصائد فى ديوان «بستان عائشة» ، فضلا عن ترجمته

---

(٢) د. محيى الدين صبحى ، الرؤيا فى شعر البياتي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ ، ص ٢٨ .

بعض قصائد الشاعر المكسيكى أوكتابيو باث وغارثيا لوركا فى أحد كتب محطته الأردنية «رسالة الى ناظم حكمت وقصائد أخرى» .

وقد فاق حضور اسبانيا فى شعر البياتي حضور أى بلد أجنبى آخر ، بل فاق حضور بلدان عربية كثيرة ، حتى ليمكن مقارنته بحضور بلد آخر يعشقه البياتي هو مصر ، وان كان لأسباب مختلفة فى حالة عن أخرى ، من بينها وضع ماضى مصر وحاضرها فى الوطن العربى وفترة المد الثورى والقومى التى عاشها الشاعر العراقى فى قاهرة عبد الناصر .

بيد أن مدريد وغارثيا لوركا هما العنصران الهيسابانيان اللذان سيحظيان بنصيب الأسد فى هذا السياق فى شعر البياتي ، وذلك لأسباب عقائدية واضحة ، فالدور البطولى لمدريد فى الحرب الاهلية و «حفيد هوميروس» المغدور على يد الفاشيست كانا مما لا شك وراء هذا الاهتمام البارز من قبل البياتي .

مدريد

احتلت الاشارات الاسبانية مكانا بارزاً ومبكرا لدى البياتي ، ففى أول ديوان له فى المنفى «المجد للأطفال والزيتون» برزت مدريد الى جانب طهران وشيكاغو فى قصيدة «رفاق الشمس» لتكون صرخة من أجل الحرية فى المدن الثلاث التى جمع بينها قهر الانسان . الا أن العاصمة الاسبانية تظهر فى هذه القصيدة مدينة مفتوحة اذ لها أبواب ، وهى ميزة تفتقر اليها المدينتان الأخريان :

وعلى أبواب مدريد انتظرناك طويلا
ولعينيك ، رفيق الشمس ، خضبنا الحقولا
وافترشنا الأرض فى أسواق طهران القديمة
وأكلنا الشوك والصبار فى أحياء شيكاغو الدميمة

* * *

انه الشمس التى من أجلها ناضل آلاف الرفاق
فى الهوى تشرق ، فى ليل العراق
وعلى أبواب مدريد ، وفى أسواق طهران القديمة
وعلى الموتى ، وفى أحياء شيكاغو الدميمة (٣)

وكانت هذه أول مرة يقترب فيها البياتي من مدريد ثم واصل استدعاءها فى ديوان «كلمات لا تموت» لتشاركها فى ذلك موسكو ونهر الفولغا الى جانب لينين فى

---

(٣) عبد الوهاب البياتي ، الأعمال الكاملة ، المجلد الاول ، ص ٣١٠ – ٣١١ ، دار العودة بيروت .

قصيدة مهداة الى مكسيم غوركى لأسباب أيدولوجية معروفة عن هذا الشاعر العربى . لقد كانت مدريد للكثير من مثقفى العالم ، اليساريين منهم ، رمزا للحرية والصمود فى وجه الفاشست ، انطلاقا من دورها فى الحرب الاهلية الاسبانية . الا أن البياتي اتخذ منها موقفا عدائيا فى بعض الأحيان ، وهو موقف يدخل فى اطار موقفه هو وجيله الشعرى من المدينة عامة . لم يكن اختيار هذه المدينة صدفة ، بل للطابع السياسى الذى اكتسبته أو لعبته فى الحرب الاهلية التى تركت بدورها حضورا مكثفا لها فى آداب العالم المعاصرة .

ولم يقتصر حضور مدريد فى شعر المنفى لدى البياتي على المدينة بعينها ، اذ تضمنتها قصائد أخرى كتلك التى خص بها الفنان الاسبانى العالمى بابلو بيكاسو والتى يربط فيها مدريد بالفجر وحقائب السفر ، رحيله وسفره الدائم بين جغرافية العالم حيث ذاق مرارة المنفى والغربة بمعنييهما المادى والفلسفى . وتصل به المزاوجة بين هذه المدينة الرمز والبعد الغنائى فى قصيدة «الى هند» ، شريكة حياته ، اذ تزاحم فى أهميتها بغداد التى يحن اليها فى منفاه القاهرى ، فى منتصف الستينات ، دون أن يفوته تضمينها بعدا رومانسيا فى اطار السياق العام للقصيدة :

عيناك مدريد التى استعدتها
عيناك قندهار
بحيرتان عبر غابات النخيل وسهوب النار (٤)

مدريد – غارثيا لوركا

غير أن البياتي عند معالجة جريمة اغتيال الشاعر فدريكو غارثيا لوركا فى قصيدة «الوريث» يلصق بالعاصمة الاسبانية تهمة مشاهدة جريمة اعدام «حفيد هوميروس» رميا بالرصاص ، فى اشارة واضحة الى الشاعر الغرناطى ، والمعروف أنه قتل بطريقة مجانية وعبثية على يد قوات الحرس المدنى الموالية للجنرال فرانكو فى غرناطة ، لأسباب ليست محسومة الى اليوم ، ابان اشتعال الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦ – ١٩٣٩) ، وان كان من الثابت أن الحسد والغيرة اضافة الى أشعار كتبها صديقه رفائيل ألبرتى ضد الفاشست ونسبت الى غارثيا لوركا – بثتها اذاعة الجمهورية ونشرتها المجلة اليسارية El Mono Azul «بدلة العمل الزرقاء» – كانت من الاسباب الرئيسية لهذه النهاية المجانية لأعظم شاعر اسبانى فى النصف الاول من القرن العشرين .

---

(٤) المجلد الثانى ص ٢٠٥ .

ومما لا شك فيه أن الشاعر العربى العراقى كان على دراية بأن نظيره الغرناطى اغتيل فى مسقط رأسه ، الا أنه كان يهدف الى توكيد موقفه الآنى ازاء هذه المدينة التى يشعر ازاءها بكراهية عابرة ، ففى القصيدة نفسها يشير الى ارم ذات العماد المدينة الأسطورية التى صب عليها الله غضبه لخطاياها حسب النصوص الدينية . وبالرغم من ذكر هذه المدينة الظالم أهلها فان البياتي لم يرغب فى مقارنتها بمدريد وان كان قد أضفى على هذه الأخيرة طابعا عدوانيا فى بعض أشعاره .

والبياتي باشارته غير المباشرة الى غارثيا لوركا بأنه «حفيد هوميروس» ، وهى صفة تنسحب على كافة الشعراء ، يضيف بعدا آخر على ما هو اسبانى فى نتاجه الشعرى . وابتداء من هذه القصيدة ، من ديوان «الذى يأتى ولا يأتى» ، اكتسب الشاعر الغرناطى حضورا مكثفا طغى على كافة العناصر الاسبانية والهيسبانية عند البياتي الذى لم يكتف بوصفه السابق له فأضاف اليه نعتا هو «آخر السلالة» موحيا بذلك بأنه منقطع النظير بين أقرانه ، ليؤكد على مرتبته العالية بين من تعاملوا مع الكلمة الشعرية فى العالم المعاصر . ويعد غارثيا لوركا من أكثر الأقنعة التى لجأ اليها البياتي ووظفها فى نتاجه ، خاصة فى شعر المنفى :

تنقطع الجذور
وآخر السلالة
حفيد هوميروس فى مدريد
يعدم رمياً بالرصاص ، ارم العماد
تغرق فى ذاكرة الأحفاد
مات المغنى ، ماتت الغابات
وشهر يار مات (٥)

ظلت أشعار البياتي تغازل مدريد ابتداء من ديوانه الثالث ، «المجد للأطفال والزيتون» ، حتى دواوينه الأخيرة ، لتظهر مقترنة بموضوع اسبانى آخر ذي شعبية واسعة هو مصارعة الثيران دون أن يتخلى عن استذكار غارثيا لوركا الذى يموت مناضلا فى هذه المدينة . وتظهر مدريد على صلة بكل ما هو غير مرغوب من ظلمة الليل أو الظلم والموت والتشوه والعوز ، ففيها يموت الفنان ، الشاعر ، ليبعث فى مكان آخر تحت أقنعة جديدة بحثا عن مملكته المفقودة فى هذه المدينة . وهى أحاسيس تقاسمها البياتي مع كتاب اسبان ذاقوا مرارة المنفى وضاجعوا الهزيمة ، هزيمة الجمهوريين فى الحرب الأهلية ، ومن بينهم الشاعر

---

(٥) المصدر نفسه ص ٢٤٩ .

رفائيل ألبرتى ، صديق غارثيا لوركا وآخر شاعر على قيد الحياة من جيل الـ ٢٧ ، الذى يوشك أن يتم قرنا ، اذ ولد فى نهاية سنة ١٩٠٢ ، وفى هذا السياق يقول :

يكتب فوق حائط السجن ، وفوق جبهة المدينة
أشعاره الحزينة
مناضلا يموت فى مدريد
مضرجا بدمـــه وحيد
تحت قرون الثور أو فى ساحة الاعدام

* * *

رأيته : يولـــد فى مدريد
فى ساحة الاعدام أو فى صيحة الوليد
متوجــأ بالغـــار
تحوم حول رأسه فراشة من نار (٦)

هذا دون أن ينسى البياتي محاكـــاة شخصية أدبية اسبانية أخرى هو دون كيخوتى فى منازلة أعداء الانسانية والحرية ممتطيـــا صهوة فرسه الخضراء . ويواصل الشاعر مشاعره العدائية تجاه العاصمة الاسبانية ليضعها فى مصاف مدن الثورات المغدورة ، وكان الثائر الأمريكى اللاتينى تشى غيفارا ، بما يعنيه فى هذا السياق ، الرمز المنـــاسب لتحقيق مقصده بهذا الصدد . ويصل الى ذروة هذه المسيرة فى ربطها بالليل حالك الظلام والنار ، فى اشارة واضحة الى واقـــع البلاد السياسى الرازح تحت وطأة النظام الشمولى للجنرال فرانكو الذى أشعل نيران الحرب الاهلية بانقلابه على الجمهورية الثانية ليأتى عليها ، ويئدها وهى فى المهـــد :

فى زمن المنشورات السرية ،
فى مدن الثورات المغدورة ،
«جيفارا» العاشق فى صفحات الكتب المشبوهة
يثوى مغموراً بالثلج وبالأزهار الورقية

* * *

وبنار الليل القـــادم من مدريد
يبيع الجزارون لحوم الشعراء المنفيين (٧)

---

(٦) المجلد الثالث ، ص ٢٥٩ – ٢٦١
(٧) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ – ٢٦٨

الشاعر رفـائيل ألبـرتي

ازاء هذا الوضع ، أى وأد الجمهورية الاسبانية الثـانية ، عاش كثـير من شعراء ومثقفى اسبانيا فى تجربة المنفى التى دامت عقودا . وكان من بين هؤلاء الشاعر رفائيل ألبرتى الذى تنقل منفيا طوال أربعة عقود بين جغرافيات العالم من شمال افريقية الى باريس والأرجنتين وروما ، والذى تعرف اليه البياتي فى مدينة ستالينغراد فى حضور الزعيمة الشيوعية الاسبانية دولوريس ايباروري «باسيوناريا» ، وكان ذلك فى منتصف الستينات ، ثم التقيا مجددا فى منفى ألبرتي بروما .

غير أن هذا اللقاء لم يكن عابرا اذ أدى الى صداقة بين الشاعرين ، العربى والاسبانى ، تكرست بوصول البياتي الى مدريد حيث عاش طوال عقد الثمانينات تقريبا ، وكان وصوله الى العاصمة الاسبانية بعد عامين من عودة ألبرتي من منافيه . وأفضى ذلك الى أن يخص البيـاتي الشاعر الاسبانى بقصيدة مطولة ، استلهم فيها واقع البلاد المترتب على تلك المواجهة الدامية بين أنصار الجمهورية واليمين ، استوحى فيها حياة شاعر اسبانى آخر مات فى المنفى بجنوب فرنسا هو أنطونيو ماتشادو الى جانب الشاعر الأسطورة غارثيا لوركا ، وكلاهما مـات ضحية الحرب الاهلية وان كان ذلك بطريقتين مختلفتين .

فى قصيدة «الى رفائيل ألبرتي» ، من ديوان «قمر شيراز» ، نجد أن «خيط النور» بما يعنيه فى شعر البياتي – اذ أنه يرمز الى الخط الفكرى للشاعر – ، لم يعد مقصورا على غرناطة بل منح هذه الميزة لحاضرة أندلسية أخرى ، هى طليطلة . هذا دون أن ينسى البياتي استلهام الغابة الاسبانية بما ترمز اليه عند رفـائيل ألبرتي نفسه من خلال سيرته الذاتية فى «الغابة الضائعة» ، هذه المرحلة الغضة الخضراء من طفولته التى عاشها على ساحل الأطلسى فى بلدته بويرتو دي سانتا ماريا باقليم الأندلس .

وتلحق قصيدة البياتي فى أفق البحر ، العنصر الطبيعى الهـام والمحورى فى شعر ألبرتي الذى تـردد صداه فى هذه القصيدة التى حملت الشاعـر العراقى ليجوب من خلالها آفاق اسبانيا المعاصرة مجسدة برموزها الثقافية ، من منفيين وأمـوات .

يواصل البياتي استلهامه للواقع الاسبانى فى هذه القصيدة المهداة الى ألبرتي، فيضفى على مدريد طابع الحنين من خلال هذا الشاعر الاندلسى الذى يبكيها من منفاه فى روما . وفى أبياتها لجـأ الى تقنية الوقفات والحوار مع محور القصيدة نفسها ونعنى به ألبرتي الذى يبـكى وطنه ومدريد فى المنفى ، فى مدينـة موصدة

الأبواب أمام الشعراء حيث يموت بعضهم كمداً فى المنفى فى حين ينــوء بعضهم الآخر بالفقر القاتل :

«وقفنا تحت عمود النور ، رأينا : نار الشعراء
الاسبان المنفيين الموتى : لوركا – ماتشادو...ناديتك ألبرتي !
فــأجاب : الشعــر
وآخر طفل فى المنفى يبكى الوطن الأم
ويبــكى مــدريد (٨)

مــدريد – لوركــا مرة أخرى

وفي موضع آخر ، فى قصيدة «الموت فى الحب» في ديوان «الموت فى الحيــاة» ، تكتسب مدريد صفة جديدة أكثر ايجابية ، اذ يربط بينها وبين الولادة ، ورمزية سنابل القمح ، ليولد فيها عالم جديد . غير أن هذه الولادة ، الأمل ، لن تتم الا تحت سماء عالم جديد ، فى مدريد ، وهى مشروطة بالطوفان الذى سيغسل عار البشرية ووجه هذه المدينة القبيح الذى داسته سنابك خيل الحرس الأسود ، أى الحرس المدنى الذى استخدمه فرانكو فى قمع الشعب . والولادة فى هذه القصيدة تحيل الى العذراء التى وضعت المبشر بالحب والحرية تحت جذع نخلة ، ضمن استلهام البياتي لأساطير حضارات حوض البحر المتوسط ، اذ يحط فى ممفيس ويحمل القارىء الى أوليس وأوفيليا وعائشة . هذا دون أدنى رغبة فى تفسير الشعر على أنه انعكاس للواقع ، اذ أن شعر البياتي ابداع للواقع ، واغناء له من خلال توظيف الأدوات الانسانية المتاحة من تجارب وأساطير فى قصائده :

أيتهــا العذراء
هز بجذع النخلة الفرعاء
تساقط الأشيــاء
تنفجر الشموس والأقمــار
يكتسح الطوفان هذا العــار
نولــد فى «مدريد»
تحت سماء عالم جديد (٩)

---

(٨) المصدر نفسه ، ص ٤١٠
(٩) المجلد الثانى ، ص ٣٣٠

لجأ البيــاتي الى الرمز الشخصى والعــام ، الى الرمز الجماعى ، مستلهما الشخصيات التاريخية والأساطير والأقنعة ، من خلال التراث العربى والانسانى، ليصل الى الولادة ، الى عالم جديد ، عبر الموت ، وهو مسار تمثل فى هذه القصيدة، فعائشة ليست الا روح العالم المتجدد من خلال الموت والانبعاث .

يعد الشاعر غارثيا لوركا أحد أبرز العناصر الاسبانية فى شعر عبد الوهاب البياتي ، اذ احتل حيزا كبيرا ومحوريا الى جانب مدريد ، فكلاهما شكلا معا لحمة أكثر من قصيدة . وكان هذا الشاعر الاندلسى والحرب الاهلية الاسبانية سببا رئيسيا فى اهتمام البيــاتي المبكر باسبانيا ، منذ الأربعينات . وهو من الشعراء القــلائل الذين ترجم لهم البياتي أشعــارا ، اذ ترجم له سبع قصائــد نشرها فى «رسالة الى ناظم حكمت وقصائد أخرى» .

كان هذا الاهتمام وراء قيام البياتي برثاء غارثيا لوركــا ، ليصبح الشاعر الوحيد الى جانب التركي ناظم حكمت اللذين خصهما بمرثية ، وان كان قد خص الشاعر اللبناني خليــل حاوي الذى انتحر ابــان الاحتلال الاسرائيلى لبيروت بمرثية أخرى ، لكنها جاءت فى مرحلة متأخرة ، فى ١٩٨٣ ، أثناء اقامته بمدريد . لقد جمعت صداقة حميمة بين البياتي وناظم حكمت طوال منفاهما فى موسكو فى نهاية الخمسينات ومطلع الستينات ، أى أن علاقة مباشرة كانت قائمة بينهما ، وهو مبرر كاف لهذا التكريم الشعري من قبل الشاعر العراقى . اضافة الى أن الشاعر التركي قد خص البياتي سنتئذ بمقالتين فى الصحافة الروسية نشرهما البياتي مترجمتين فى «حرائق الشعر» .

أما سبب اهتمام البياتي بغارثيا لوركا ، فقد أقر به فى سيرته الذاتية «تجربتى الشعرية» اذ يؤكد أن أشعاره – هو وشعراء آخرون – لها قدرة النفاذ من خلال الموسيقى والصورة والرؤية الى وجدان الانسان المعاصر فى الوقت الذى تنطوى فيه على نوع من الالتزام الواعى النابع من نفوسهم «ووجدت فى أشعارهم كــل خصائص بلادهم وقسماتها التى تصل الى التصور الانسانى الكامل ، خصائص الانسان الحي فى تشيلى واسبانيــا» (١٠) . هذا الى جانب مــا يعنيه على وجــه الخصوص هذا الشاعــر ومسقط رأسه ، غرنــاطة ، للشاعر العربى ، اذ اتخذ منحى مكثفا ، فاق ما عناه لمثقفى العالم التقدميين .

---

(١٠) عبد الوهاب البياتي . تجربتى الشعرية ، الاعمال الكاملة ، الجزء الثانى ، دار العودة ، بيروت ، ص ١٨

فضلا عن هذا فان البياتي اتخذ من الشاعر الغرناطى نموذجا لعصر بأكمله : انه المثقف الشهيد ، الشاهد على تداعيات الصراع الذى فجره القتلة ، وجعل منه بطلا أسطوريا ورمزا للمغدور بهم من المثقفين والغرباء فى أوطانهم . ويلمح الى أن غارثيا لوركا كان توقع مصرعه ، وهو ما يتسق مع الواقع فما زال هناك غموض يحوم حول مغادرته مدريد وعودته الى غرناطة فور اندلاع لهب الحرب الأهلية مع علمه أن الفاشيست قد سيطروا عليها ، وهم المستاؤون منه ومن أفكاره ، فكثيرا ما تعرض أيامئذ للاهانة من جمهور مسرحياته فى العاصمة لطرحه أفكار عدها الحضور المحافظ خارجة على قيم المجتمع ، وهى وقائع مسجلة ومعروفة لدارسي الأدب الاسبانى المعاصر .

وفى احدى قصائد البياتي الطويلة والمكثفة فى هذا السياق الاسبانى ، «الى ارنست همنغواي» نجد لغارثيا لوركا حضورا الى جانب مدريد وغرناطة ، اضافة الى «الحرس الأسود» وكتب الرحالة الاسبانى والشيخ الأكبر ابن عربى المتصوف الآندلسى . وكلها عناصر يختزل عبد الوهاب البياتي من خلالها العذاب والموت والدم ، سمات اسبانيا التى يعانى فيها انسان العصر تحت قبضة النظام الفاشى الذى حكمها طوال أربعة عقود بالنار والحديد . كان صراعا بين قوى الظلام والانسان الذى صورته هذه الأبيات ، مستعينا فى ذلك بالتراث العربى الاندلسى ليعكس الواقع الاسبانى المظلم ، فالموت والدم فى كل مكان الى جانب قمع الحرس المدنى المتهم بتنفيذ اغتيال الشاعر الغرناطى فى ضواحى غرناطة . وهى الحادثة التى عالجها شريط سينمائى للممثل الكوبى المعروف أندي غارثيا وعرض فى مطلع سنة ١٩٩٧ فى دور العرض باسبانيا ، سبقه فى ذلك الكاتب الايرلندى ايان جيبسون فى المجلدين الكبيرين اللذين وضعهما عن حياة لوركا وموته ونشرهما فى منتصف الثمانينات .

تجمع بين هذه القصيدة وقصيدة أخرى هى «محنة أبى العلاء» تقنية تداعى الخواطر اذ يربط الشاعر الغرناطى بمبدع آخر اهتم باسبانيا وحربها الأهلية ومصارعة الثيران فى أعماله ، هو هيمنغواي وروايته المعروفة «لمن تقرع الأجراس ؟» . فمن خلال محنة المعرى استلهم البياتي شخصيات جمع بينها التمرد والعذاب والاضطهاد مثل غارثيا لوركا وغاليليو غاليلى والمعرى نفسه ، اذ كانوا شهودا فاعلين للثورة ورموزا لتمرد الانسان على الظلم والظلام والقهر والفقر :

لمن تغنى هذه الجنادب ؟
لمن تضىء هذه الكواكب ؟

لـمـن تدق هذه الأجراس ؟
وأين يمضى النـاس ؟

* * *

يا ليـل ! يا نعـاس !
لوركا ونور العالم الأبيض فى الأكفان (١١)

غير أن التحدى لازم هذا الانسان من خـلال جملة تنسب الى غاليليو ، وهى ذات دلالة واضحة فى هذا الصدد ، «ولكن الأرض تدور» ، وقد وضعها البياتي عنوانا جانبيا لهذه القصيدة وللمقطع الأخير منها . أما غارثيا لوركا فقد بلـغ مصيره المحتوم حاملا النور فى هذه القصيدة فى جو من الحزن والحسرة والحنين الى بغـداد ، رغم التحدى واللمحـات الوجودية والتضحية التى تنسحب على شخصيات هذه القصيدة الطويلة ، المكونة من عشر مقطوعات – قصائد دائرية . ومن خلال التقنية عينها ، أى تداعى الأفكار ، يتوالى استلهام شخصيات أخرى فى القصيدة – الديوان «الذى يأتى ولا يأتى» فى قصيدة «طردية» على وجه التحديد التى تـدور حول مقتل غارثيا لوركـا ، كشيخ المعرة ، ذي المحبسين ، وكاثرين بطلة رواية هيمنغواي «وداعا للسلاح» التى ماتت لتهب الحياة ، وعمر الخيام ، وكلهم يجمعهم العذاب والتضحية ، الى جانب المطاردة التى تنتهى بقتل الشاعر الغرنـاطى :

الأرنب المذعور عبر الغسق الغارق فى الضباب
تنهشـه الكـلاب
بكم تبـيع أيها الصياد !
شهـادة الميـلاد ؟
كاترين ، وهى تلـد الحياة
ماتت ، وهذا الأرنب المذعور يصبغ فى دمائه مخالب الكلاب والأعشاب

* * *

لوركا يجر واقفـا للموت فى الميلاد
أمامه ، كانت كلاب الصيد تجرى
تنبح الجـلاد (١٢)

وعنوان القصيدة يستدعى صورة المطـاردة من خلال لقطـات سينمـائية ، فالصياد وكلابه وراء الفريسة «الأرنب المذعور» ، وتستمر دائرة هذه اللقطات

---

(١١) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، المجلد الثانى ، ص ١٦٢
(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٧

بظهور كاثرين التى تموت وهى تلد ، بينما المعرى الضرير يحدج السماء بنظرة ازدراء ، لتنتهى بصيد الفريسة ومقتلها : مقتـل غارثيا لوركا . غير أن مقتـل الشاعر ، فى القصيدة ذاتها ، لم ينل من عزيمة البياتي الذى يأبى الانحناء أمام الهزيمة ، اذ يصر على المقاومة ، وهى من ميزات شعره ، ليصل الى ذروة التحدى باستلهام التراث العربى الاندلسى ممثلا فى خطبة طارق بن زياد التى ألقاها فى جنده ، بعد عبـور المضيق ، حين أحرق السفن ليقـع طريق العودة أو التقهقر ليواصلوا فتح الاندلس ، اذ لا خيار سوى النصر ، وفى هذا اسقاط على انسان العصر :

ايـاك والفـرار
أمامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد
الموت فى كـل مكان ضرب الحصار (١٣)

غـرنـاطـة

يلاحظ أن موت غارثيا لوركا ، الذى صوره البياتي على أنه وقع فى مدريد ، بدأ يلمح الى موقعه الحقيقى ، أى فى غرناطة ، فى قصيدة «الموت فى غرناطة» دون أن يشير صراحة الى ذلك ، اذ اكتفى بأن وظف «معلم الصبيان» ليعلن فى غرناطة أن الفاشيست قتلوا الشاعر ومثلوا بجثته على نهر الفرات ، فى حين يصر على أنه سيبعث من التراب كالعنقاء التى يناجيها بالرغم من يديه المبتورتين . وقد لجأ البياتي الى السرد فى معالجته لهذه الحادثة .

وقد جمع البياتي فى هذه القصيدة بين غارثيا لوركا وشخصية تاريخية أخرى لقيت حتفها ، أو صفيت على يد الخصوم ، الشهيد الحسين بن علي ، فكلاهما شهيد ، كل من منظور خاص ، وكلاهما لقيا «موتا ثوريا ونبتيا ، بذرة خصبة من شأنها أن تثمر مولدا أجمل ، حياة جديدة وأسمى «حسب المستعرب الاسبانى بدرو مارتينيث مونتابيث (١٤) .

---

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٦
(١٤) انظر :
Pedro Martínez Montávez, **Exploraciones en la literatura neoárabe**, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, p. 49.
قام الدكتور محمد الجعيدى ، الاستاذ فى جامعة مدريد أوتونوما ، بنشر فصل «ثلاث مدن اسبانية فى شعر عبد الوهاب البيـاتي» من هذا الكتـاب الى العربية ونشرته دار ايف للطبـاعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢

ويواصل الشاعر مسيرة صهر العناصر الرمزية والأسطورية ، ليتولد لدى المتلقى شعور بأنها قصيدة مشحونة بالعناصر وأن هذه العناصر مكررة فى بعض الأحيان وحافلة بالاستطراد فى أحيان أخرى . الا أن علاقة متينة ومبررة تربط فيما بينها وتحكمها .

ويمثل الموت ، وبشكل خاص الموت الغاضب أو المضحى ، عنصرا موحدا بين القصائد التى تتطرق الى ما هو اسبانى . وهذا الخيط الموحد بين أبيات هذه القصائد قلما يأتى رمزيا ، وفى حالة كهذه ، وعندما يلجأ الشاعر الى الرمز ، يأتى الموت ممثلا فى فراشة ترمز اليه أو الى روح الميت حسب معتقدات حضارات الهلال الخصيب القديمة ، كما هو معروف ، وهو ما يلاحظ فى قصيدة «الموت فى الحب» (١٥) . غير أن اغتيال غارثيا لوركا يمثل مركز ومرجعية كل أنواع الموت، اذ تدور حوله أو تسير فى خط مواز لمقتله . اضافة الى اسقاط وقائع الحاضر على التاريخ من خلال استقطاب التاريخ عبر الحوادث الماساوية المتشابهة . ومن هنا جاء اختياره لمقتل الحسين الثائر الشهيد .

كان اختيار غارثيا لوركا له مبرره فى التوجه السياسى والفكرى للبياتي ، وبالرغم من يأسه أمام استشهاد هؤلاء الثوار فانه يتغلب على هذه الحالة بالاصرار على أنهم سوف يبعثون ، فالبعث هو طريق الخلاص : الثورات ، التى ستنتقم بدورها لشهدائها . كما أن دماء هذا الشهيد لم تذهب سدى بل لسبب يوتوبى ، من أجل المدينة الفاضلة التى ينشدها شعر البياتي ، فى الوقت الذى يحاول فيه اعادة الأمور الى نصابها من خلال الكلمة المكتوبة . ويرى محمد زفزاف أن البياتي دفع قضية غارثيا لوركا الى مستوى عال من الرمزية والوضوح ، فهذا الشاعر الغرناطى لم يمت فى اسبانيا ، بل فى العراق ، على نهر الفرات ، اذ أعدمه السفاحون الفاشست (١٦) .

يحقق حضور الشاعر الغرناطى فى شعر البياتي ذروته فى «مراثى لوركا» ، اذ يجمع فى مقطوعاتها الست بين غارثيا لوركا ومدريد وغرناطة ، الا أن الشاعر لم يظهر بوضوح فى مراثيه ، اذ اكتفى البياتي بجعله العنصر المشكل لنسيج القصيدة . كما أنه يرصد فى المراثى شخوصا وعناصر أسطورية وأحداثا تاريخية ، يجمع بينها خيط موحد : الموت ، فى جو من الحزن والتشاؤم . وبداية القصيدة ذات دلالة واضحة فى هذا السياق ، فى الوقت الذى يدفع الشاعر بزخم

---

(١٥) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، الجزء الثانى ، ص ٣٣٨

(١٦) محمد زفزاف ، «النموذج الثورى فى شعر البياتي» ، فى مأساة الانسان المعاصر فى شعر البياتي ، ... ص ٨٤ – ٨٧

الأساطير العراقية القديمة ممثلة فى «انكيدو» ليصور الموت الأسطورى أو أول وقفة للانسان أمام الموت للتأمل فيه :

يبقر بطن الأيل الخنزير
يموت «انكيدو» على السرير
مبتئسا حزين
كما تموت دودة فى الطين (١٧)

يستمر هذا الجو القابض للروح والحزين فى «مراثى لوركا» وقد سبق أن ظهر فى قصائد أخرى الى جانب الاضطهاد والحزن . انها حالة من الكرب والاضطراب والحلم ، وطريق مليئة بالمعقابات ، حتى ليصل الانسان الى حالة يقف فيها ما بين الحياة والموت :

مدينة مسحورة
قامت على نهر من الفضة والليمون
لا يولد الانسان فى أبوابها الألف ولا يموت (١٨)

ويصل هذا النهج الى ذروته بظهور شخصية «بياتية» ، هى النخاس ، رمز الفشل الثورى الذى يرتكب المستحيل : بيع غرناطة وعائشة والعنقاء . وفى الوقت الذى يوحى فيه بأن الخيانة كانت سبب موت الشاعر الاندلسى ، يربط مسقط رأسه ، غرناطة ، بالبراءة واليتم ، لينتهى الى الدعوة الى الثورة انتقاما من القتلة الذين أراقوا الدماء ، دماء غارثيا لوركا ، ودنسوا المدينة وحولوا بياض ثلوجها الى ليل حالك الظلام ، بارتكابهم هذه الجريمة الشنعاء . وبالرغم من هذا الجو القاتم الذى يخيم على القصيدة بمقطوعاتها الست ، فان الطفولة السعيدة ، طفولة الشاعر الاندلسى ، تطل من أبياتها الى جانب غرناطة و «خيط النور» الذى ربط البياتي باسبانيا قبل وطوال منفاه الاختيارى فى مدريد . وهذا الخيط ، حسبما أوحى الشاعر ، يرمز الى فكره التاريخى ، تقدمه فى خط مستقيم نحو الحرية ، حرية الانسان :

غرناطة الطفولة السعيدة
طيارة من ورق ، قصيدة
مشدودة بخيط هذا النور
تهتز فوق السور
غرناطة البراءة (١٩)

---

(١٧) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، المجلد الثانى ، ص ٣٤٤
(١٨) المصدر السابق ، ص ٣٣٥
(١٩) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧

قرطبـة – غـارثيا لوركـا

وقرطبة هى المدينة الاسبانية الثالثة ، بعد مدريد وغرناطة ، التى احتفى بها البياتي فى شعره ، غير أن حضورها أقل كثافة من المدينتين الآخريين ، اذ جاء بطريقة عابرة ، فقد خصها باشارة فى قصيدتين ، الاولى «عن الموت والثورة» ، مهداة الى تشى غيفارا ويظهر فيها غارثيا لوركا مجددا ، و «الزلزال» المهداة الى الشاعر المغربى عبد اللطيف اللعبى ورفاقه اذ يخلط الشاعر بين غرناطة وقرطبة، ويعود ليربط بين غرنـاطة والشاعر غارثيا لوركـا ، الا أنه يخلط بين غرناطة وقرطبة ، فهو تارة يشير الى أن موت الشاعر وقع فى زنزانـة الخليفة الأخير فى قرطبة والملك الأخير فيها أيضا ، والمعروف أن الملك الاخير ، أبو عبد الله الصغير، سلم غرناطة ولم يكن فى قرطبة ، وأن غارثيا لوركا قتل فى غرناطة وليس فى قرطبة. ومع ذلك يبدو أن تبديل الأدوار بين غرناطة وقرطبة تم عن قصد من قبل البياتي ، اذ يشير الى الحمراء بحدائقها الغناء» .

حيث القمر الولى فى عيون قارعى طبول الملك الأخير
فى «قرطبة» يغيب فى البحر
... حيث الشاعر الأندلسى فى سجون العالم الجديد
فى زنزانة الخليفة الأخير فى «قرطبة» يموت (٢٠)

وكما يلاحظ فان الشاعر يسقط الماضى على الحاضر ليختلط الواقع بالخيال عبر ومضات واشارات أندلسية وأخرى معاصرة .

وفى الوقت عينه يعرج على كوبا الثورة اذ نجد أن عائشة بما تعنيه تتوقف لأن الثورة لا تصل الى كوبا فى عهد الظلم والاستبداد ، هذا بينما الشاعر الغرناطى يساق معصوب العينين قبل صياح الديك ، قبل شروق الفجر ، أى قبل الثورة ، فى حين ذبلت الزهور على ضفتى نهر الوادي الكبير بقرطبة التى يصر الشاعر على الربط بينها وبين لوركا :

«توقفت عائشة ، فالباص لا يذهب فى الليل
الى كوبـا ، ولا يعود ...
قال : أعود – غارسيا لوركا – اذا ما انتصف الليل
وفى الوادي الكبير نامت الزهور

---

(٢٠) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، المجلد الثالث ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥

العاشق الأندلسى عصبوا عينيه وقتلوه
قبل أن ينتصف الليل وقبل أن يصيح الديك (٢١)

وضمن حشده للصور الاسبانية والهيسبانية يعرج من جديد على غيفارا الذى يمثل الوجه الآخر للوركا المثقف الشهيد ، أو الوجه النظرى ، فى حين أن الزعيم الثورى يمثـل الوجه العملى ، شهيد الثـورة الذى شهر سلاحــه فى وجه أعداء البشرية فى محاولة لاعادة العدالة الى الأرض التى تفتقر اليها بعيدا عن يوتوبيا الشاعر الذى لا يرى الخلاص فى هذا العالم ، بل فى البعث .

بـابلو بيكـاسو

كان الفنان التشكيلى بابلو بيكاسو اسبانيا آخر تمتع بحضور خاص ومبكر فى شعر البياتي ، ففى ١٩٦١ خصه بقصيدة «الى بابلو بيكاسو» ، من ديوان «النار والكلمات» عالج فيها بطريقة تصورية لوحاته وألـوانه وفرشاته دون أن تخلو الأبيات من اشارة واضحة الى العاصمة مدريد وأخرى رمزية لغـارثيا لوركا . وتعكس هذه القصيدة مناخ احدى محطات منافى البياتي المتعددة فى اطار تأويل بعض لوحات الفنان الاسبانى العالمى ومراحله الفنية ، اذ يتنقل بينها عبر أخيلة مركبة . فى هذا الاطار يكتسب اللـون الأزرق ، رمز احدى المراحـل الفنية عند بيكاسو ، درجة قريبة من الأخضر ليستحيل الى فيروزى ، بينمـا يعرج على روح العصر فى بزوغ الفجر حاملا معه النصر (٢٢) .

ومع مرور الزمن اكتسب هذا الفنان حضورا أكثر فى أشعار البياتي خاصة بعد الزيارة التى قام بها لباريس حيث كان يقيم بيكاسو ، ففى «حجر السقوط» ، من ديوان «الكتابة على الطين» ، عـاد ليعرج عليه وعلى لـوحاته عبر صور جديدة وتواتر أخيلة تصورية مع اللعب بالألفاظ بغية تغيير وظائف المعنى .

ويواصل البياتي استلهامه لنتاج بيكاسو عبر رحلة فى متحف اللوفر ، خاصة لوحة «المهرج» فى قصيدة «قصائد حب على بوابات العالم السبع» – فى الديوان الذى حمل العنوان نفسه – التى تـرمز الى العبث والانسحاق حسب الـدكتور محيى الدين صبحى (٢٣) اضافة الى مرحلته التكعيبية .

---

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٣٣٦

(٢٢) كارمن رويث برابو «اللون فى شعر البياتي» ...
Carmen Ruiz Bravo-Villasante, «El color en al-Bayati», en **Actas de las Primeras Jornadas de Literatura Arabe Contemporánea**..., pp. 383-300.

(٢٣) محيى الدين صبحى ، الرؤيا فى شعر البياتي ، ... ص ٣٢٤

غير أن المقطوعة الاولى من مقطوعات القصيدة السبع – يعود الشاعر لتناول الرقم سبعة المعروف بتواتر ظهوره فى روحانيات وأساطير كثير من الحضارات الانسانية – تنتهى بالانتحار ، كناية عن الانسحاب واعتزال الحياة . أما المقطوعة التالية فتعرض لظروف تلك الحياة التى يرفضها ، وهو ما يتماشى مع المناخ القاتم الخانق الذى يسيطر على القصيدة اذ يقترب الشعر من النثر . والقصيدة فى مجملها تلخيص لتجربة الشاعر العاشق ، وهو أسلوب طرقه من قبل عبر شخصيات تاريخية استلهمها باسقاطها على تجربته الشعرية والفكرية ، من بينها الحلاج والمعري واخناتون . فى هذا السياق أو فى اطار الظروف التى حملته على الاستسلام يربط بين «نيسابور» و «أركاديا» فكلتيهما قضى عليهما على يد الساحر ، ومعروف أن الاولى كانت مدينة العشق قديما فى حين كانت الأخيرة مدينة السلام والسكينة فى العصر الحديث .

وفى الديوان نفسه يعود الى بيكاسو فى قصيدة «الكابوس» ، التى لجأ فيها الى التكثيف ، اذ استهلها بالعودة الى جحيمه التصويرى من خلال لوحاته بألوانها وبهلواناته ، لينتهى الى مدريد من خلال شخصية عازف القيثارة التى سبق له أن وظفها فى قصائده الاسبانية . انه يلتقط الأفكار والرؤيا التى طرحها فى القصيدة السابقة ، غير أنه يضيف اليها عنصر الموت فى هذه المدينة ضمانا للبعث فى مدن أخرى وفى ظروف أفضل .

واضح أن اختيار البياتي لهذا الفنان الاسبانى لم يكن جزافا بل عن وعى تام بشخصية وفن بابلو رويث بيكاسو ، فكلاهما ناضل ووظف فنه من أجل الحرية ، فمن المؤكد أن بيكاسو لو لم يكن ثوريا أو متمردا لما اهتم به الشاعر العراقى ولا بفنه . وكان اشتراكهما فى الالتزام سببا اضطر كليهما الى المنفى ، وهو العنصر الذى جمع بين البياتي وشعراء اسبان آخرين تمتعوا بحضور فى نتاجه الشعرى والنثرى مثل أنطونيو ماتشادو ورفائيل ألبرتي .

أمريكا اللاتينية – الأندلس

والى أمريكا اللاتينية أو الهيسبانية يعود البياتي عبر زميله التشيلى بابلو نيرودا الذى يهديه قصيدة «القربان» ليرثيه ليس وحده بل معه عهد الرئيس المغدور سلفادور الليندى الذى اغتيل أثناء مقاومته القوات الفاشية تحت قيادة الجنرال بينوتشيت عام ١٩٧٣ (٢٤) .

---

(٢٤) أذكر أن البياتي قام بمشاهدة الشريط السينمائى الامريكى «مفقود Missing» : بطولة الممثل جاك ليموند ، فى احدى دور عرض السينما فى العاصمة الاسبانية ، فى منتصف الثمانينات ، وكان عن الاعتقالات الجماعية والمذابح التى ارتكبها نظام الجنرال بينوتشيت ابان الانقلاب الذى =

ومات حسرة عليه صديقه الشاعر نيرودا . والقصيدة ذات الروح السياسية مليئة باللوحات الواقعية ، انها تقترب من الواقع الذى لم يـره البياتي لأسباب جغرافية وسياسية ، وان كان تصوره ليس صعبا على شاعر أراد أن يكون فاعلا فى قصيدته هذه ، فقد استعرض التاريخ القديم والحديث للقـارة الامريكية من مذابح الانديز والهنود الحمر باسم الدين الى المال والبترول ومنـاجم النحاس والجـوع :

رأيت الدم فى شوارع القارة مكتوبا به الانجيل والمنشور
مطبوعـا به جبين نيـرودا ...
ورأيت الدم فى شوارع القـارة ،
نيرودا على خريطة التكوين يستقرىء أقمار
براكين الهنود الحمر ، غابة من النعاس ،
ليل البحر يستلقى على أسرة العمال فى مناجم النحاس
كان الجنرال – القـاتل المأجور
وهو خائف ، يذيع من دبابة ، بيانه الاول ...
حامل القربان ألقى وردة فى النهر
قال : اشتعلى أيتها الأنهار فى القارة باسم الفقراء (٢٥)

يلاحظ أن ديوان «سيرة ذاتية لسارق النار» من أكثر أعمال البياتي احتفاء بما هو اسبـانى وأندلسى وأمريكى لاتيـنى ، فقد عـالج هذه المواضيع فى ست من مجموع ثمان هى قصائد الديوان كله ، أى فى كل من «المخاض» و «قصائد عن الفراق والموت» و «الزلزال» ، و «السيمفونية الغجرية» و «القربان» و «الموت فى البسفور» المهداة الى ناظم حكمت . ومما يجدر ذكره أن مولد هذا الديوان جاء اثر أول زيارة قام بها البياتي لاسبانيا فى يناير ١٩٧٣ .

كانت قصيدة «قصائد عن الفراق والموت» ومعها «السيمفونية الغجرية» نتاجا مباشرا لتلك الرحلة اذ استلهم فى الاولى حكـاية شعبية اسبـانية عن أمير عربى أندلسى كان له سبعة أولاد أغـوت الجنية أصغرهم ، وقد لجأ فيهـا الى تقنية القصاص الشعبى فى السرد وذلك عبر أسلوب سردى على غرار الحكايات الشعبية، يخلط فيها بين المخيلة الشعرية والموروث الشعبى . وقد وظف فيها مضمون أغنية

= قاده على نظام الرئيس المنتخب سلفادور الليندى . وقد عاد ليشاهد الشريط أكثر من مرة وفى كل مرة كان يبدو غاية فى التأثر أمام عدة مشاهد فى الشريط ، غير أن دلائل التأثر بانت عليه أكثر أمام مشهد قيام قوات الانقلاب بملاحقة حصان أبيض اللون بعد حرق كتب المثقفين اليساريين . وقد أكد لى أنه لم يتأثر منذ سنين بشريط سينمائى بالنحور الذى تأثر فى بهذا الشريط .

(٢٥) عبد الوهاب البياتي ، الاعمال الكاملة ، الجزء الثالث ، ص ٣٦٢ – ٣٦٤

من أغانى الغجر ، استمع اليها فى منطقة «ساكرو مونتى» على مشارف غرناطة قرب قصر الحمراء التى يسكنها الغجر وفيهـا تكثر ملاهيهم التى يغنـون فيها ويرقصون «الفلامنكو» ، وهو الفن الذى لجأ اليه فى القصيدة الثانية «السيمفونية الغجرية» التى غاب عنها الطـابع السياسى الذى وسم الكثـير من أشعاره عن اسبانيا اذ أنها من وحى زيارته لاسبانيا واستلهامه لغناء ورقص الفلامنكو . لذا فقد تحولت الى قصيدة حب لجأ فيها الشاعر الى بعض المفردات الصوفية عن وعى اذ استحضر روح الاندلس بصوفيتها ممثلة فى قطبها «الشيخ الأكبر» الذى خصه بفاتحة ديوان «قصائد حب على بوابات العالم السبع» .

غير أن القصيدة الفلامنكوية يمكن تلخيصها فى أنهـا رقصة حب تصويرية ، عرج البيـاتي من خلالهـا على الحوار التصويرى بين رجـل وامرأة ، غجري وغجرية ، وهى اشارات سبق أن وظفها فى «قصائد عن الفراق والموت» ، التى صور فيها ثنائية الحب والموت مستخدما مضمون أغنية من أغانى الفلامنكو ، غناها فى حضوره مغن غجري فى منطقة «ساكرو مونتى» .

بستـان عائشة : ديوان اسبانى المـولد

فى نهاية المطاف نصل الى ديوان «بستان عائشة» لنجد أنه أكثر دواوين البياتي احتفـاء بما هو اسبـانى وهيسبانى ، اذ يتضمن سبـع قصائد تدور حول هذا الموضوع : «الى خورخى لويس بورخيس» ، «مجنون اشبيلية» ، و «الى بيثـنتى أليكساندرى » ، و «الولادة» ، و «مدريد فى عيد الميلاد» ، و «الى أكتابيو باث» ، و «الى أسماء البياتي» ، الى جانب اثنتين مهداتين الى مستعربين اسبانيين ، الأولى «نار الشعر» الى بدرو مارتينيث مونتابيث ، و «نهر المجرة» الى فيدريكو آربوس .

وهو الديوان الذى ولد كاملا تحت خيمة اسبانيا ، ففيها عاش عشر سنوات ، وقد كتبه خلال عقد الثمانينات ، قبل رحيله مجددا الى بغداد بشهور ، أى أنه لم يكن من قبيل المصادفة أو الاستلهام عن بعد . من هنا كان لهذا الزخم الاسبانى والهيسبانى مبرره بعد معايشة الشاعر لـواقع هذا البلد بنفسه واقترابـه من أمريكا اللاتينية عبر العاصمة الأم لقارة الامريكية ، مدريد .

نختار منها القصيدة التى يفتـتح الشاعر بهـا هذه المجموعة وهى قصيدة مكثـفة ، الأكثر شاعرية بين قصائد الـديوان وقد أهداها الى الأعمى البصير خورخى لويس بورخيس يلجأ الى اشارات مجزأة من سياقات عديدة تدور حول استعارة دائرية لحياة هذا الكـاتب الأرجنتينى ، العمى – البصيرة ، منعطفا صوب قصر الحمراء أحد رموز الحضارة العربية فى الاندلس التى تشبع بهـا وتمثلها بورخيس فى أعماله الأدبية ومحاضراته فى بوينوس آيريس فى شبابه ، ثم

يعود البياتي ليئن ويجتر وضعه الشخصى فى ملكوت المنفى . وهذه الاستعارة يدركها المتلقى المطلع على بورخيس دون حاجة الى الكثير من الخيال والثقافة ، ولـكن شرط التسلح بحساسية جمـالية ليسبح فى معنى كلمـات القصيدة التى تفضى بمكنون عالم هذا المبدع – بورخيس – الحياتى والثقافى . كل هذه الدائرة رسمها البياتي عبر التركيز والتكثيف والاقتصاد اللغوى ، وهى ظاهرة صبغت جل قصائد هذا الديوان، وان لم تكن مستجدة على الشاعر الذى كثيرا ما استعان بالاشارات والومضات اللغوية ليختزل ويقدم معنى شاملا لمسيرة ما :

أعمى ، لكنك تبصر فى عين الكلمات
تتقرى بـاللمس المـرآة
ورفوف الكتب الغراقى بالنـور
ونـار اللوحـات ...
أعمى لكنـك تبصر
وجهى الآخر تحت قنـاع الموت
وضياعى فى ملكـوت المنفى :
من منـا الأعمى
فى سجن الحريـة ؟ (٢٦)

والى جانب بورخيس يخوض البياتي فى عـالم مبدعين آخرين هما : الشاعر المكسيكى أوكتابيو باث والشاعر الاسبانى بيثنتى أليكساندرى ، وكلاهما حائز نوبل للآداب . وفى حالة الشاعر الاسبانى يعود البياتي الى رسم الليل الذى جثم على أنفاس اسبانيا طوال أربعة عقود ، أى نظام الجنرال فرانكو ، وخاصة على مثقفى هذا البلد الذين عاشوا منفى داخليا فى غالبيتهم . ها هو يقول فى مطلع القصيدة :

فى بهو الليل الاسبانى ، فتـاة نائمة
يحرسها ثعبـان
وعلى قدميها يجثو عبـد
ينفخ فى نـاي ذهبى (٢٧)

وفى هذا الديوان يعود البياتي مجددا الى مدريد فى نسق عصرى ، بعيدا عن دورها فى الحرب الاهلية ، اذ ينقل القـارىء الى أجواء الاحتفالات الـدينية فى

---

(٢٦) عبد الوهـاب البيـاتي ، بستان عـائشة ، دار الشروق ، القـاهرة/بيـروت ، ١٩٨٩ ، ص ٣٣ – ٣٤

(٢٧) بستان عائشة ، ص ٣٦

اسبانيا ليرسم وسطها صورة المسيح المحمول فى المواكب والى جانبه لمحة يومية من الحياة فى المدينة ، وذلك فى قصيدة «مدريد فى أعياد الميلاد» .

وعــائشة حسب البياتي قتلهــا الحب والفراق ، وكــان وراء ذلك الـــدافع الاجتماعى والسياسى ، وهذه الجريمـــة يتحمل وزرهـــا عصر ماتت فيه القيـــم الروحية وكتب على البشر العشاق أن يجوبوا العالم ويلفوا حول أنفسهم حاملين معهم جحيمهم وهم يجوبون من منفى لآخر ليشيعوا موتاهم ... ولكن هذا القاتل، العصر بأكمله ، لـــم يكن فى حسبانه أن عائشة لن تموت لأنها العنقـــاء . فكلما احترقت وتحولت الى رماد نهضت وعادت الى الظهور على شكل فراشة أو قصيدة أو انجاز فنى أو عادت الى الظهور بلحمها ودمها فى عصر آخر . غير أنها كائن بلا لحم ودم ، انهـــا روح وروح فقط . وبستانها هو نشيد جديد للأرض التى فقدت عذريتهـــا .

د. خالد سالم